فصول في
ثقافة العرب قبل الإسلام

فصول في

ثقافة العرب قبل الإسلام

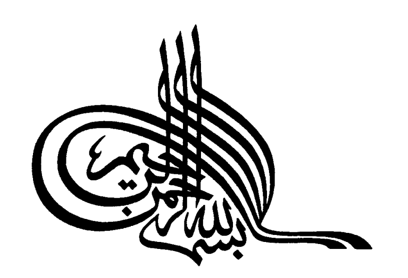
د. إبراهيم عوض

القاهرة

المنار للطباعة والنشر

ت / ٢٩٦٤٨٤٤

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٦م



كلمة الافتتاح

يتناول الكتاب الذى بين يَدَى القارئ بالبحث بعضًا من جوانب الثقافة العربية قبل الإسلام. ولكى تتحدد المفاهيم أودّ أن أوضح بادئَ ذى بَدْءٍ أننى أستعمل مصطلح "الثقافة" بمعنى النشاط الإنسانى المعنوى وما يتمثل فيه هذا النشاط من لغة ودينٍ وفكرٍ وأدبٍ وفنٍّ وقِيَمٍ وسلوكٍ وعاداتٍ وتقاليدَ وقوانينَ ونظمٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ واقتصاديةٍ وتربويةٍ...إلخ. والثقافة، كما أفهمها، هى جزء من "الحضارة"، وهذه تشمل عندى "المدنية" و"الثقافة" جميعًا، أى النشاط الإنسانى فى جانبيه الاثنين: الجانب المادى، والجانب المعنوى. صحيح أن هناك من العلماء من يضع "الثقافة" فى مقابل "الحضارة"، ومنهم من يقسّم "الثقافة" إلى "ثقافة معنوية" و"ثقافة مادية"، مما يجعلها ترادف "الحضارة" كما آخذ بتعريفها، ومنهم...، ومنهم... حتى لقد ذكرت تشارلت سيمور سميث فى معجمها: "**Dictionary of Anthropology**" (ضمن ما كتبته تحت عنوان "**Culture**") أن اثنين من الباحثين فى هذا المجال قد استطاعا أن يرصدا عام ١٩٥٢م، أى قبل أكثر من نصف قرن، نحوًا من ٣٠٠ تعريف لذلك المصطلح، إلا أن لكل دارسٍ مع ذلك الحقَّ فى أن يأخذ بالمعنى الذى يقتنع به

ويرتاح عقله إليه. والمهم أن يحـدد مصـطلحاته حتى لا تفتـرق بينه وبين قرائه السُّبُل.

ويطلق الباحثون على تاريخ العـرب قبـل الإسـلام كلمـة "الجاهلية"، وهذا المصطلح يحتـاج هـو أيضـا إلى تحديـد. وقـد تناول مثلا د. شوقى ضيف فى أول الفصـل الثـانى مـن كتابـه: "العصر الجاهلى" هذا الاسم قائلا إن "الجاهليـة" ليسـت مشـتقة من "الجهل" الذى هو ضد "العلم"، بل مـن "الجهـل" الـذى هـو ضد "الحِلْم". أى أن الجاهلية عنـده لا تعـنى عـدم المعرفـة، بـل تعنى السفه والغضب والـنزق. ثم راح يستشـهد علـى تفسـيره هذا ببعض أمثلة من القرآن والحـديث والشـعر الجـاهلى وَرَدَتْ فيها كلها كلمة "الجهل" بذلك المعنى. وكـل هـذا جميـل وعلـى العين والرأس، إلا أنا نستطيع أيضا أن نجـد فى القـرآن والحـديث والشعر الجاهلى شواهد أخرى ورد فيهـا "الجهـل" بمعـنى عـدم العلم، كقوله سبحانه عـن الفقـراء المـتعففين الـذين لا يمـدون أيديهم بالسؤال فيظنهم من يجهل أحوالهم أنهـم أغنيـاء: "يحسـبهم الجاهلُ أغنياءَ من التعفُّف. تعرفهم بسيماهم"، وقولـه جـل شـأنه: "يا أيها الذين آمنوا، إن جاءكم فاسـقٌ بنبـإ فتبينـوا أن تصـيبوا قوما بجهالة فتصبحوا علـى مـا فعلـتم نـادمين"، وقولـه عليـه السلام: "إن بين يدي الساعة لأياما يـنزل فيهـا الجهـل ويُرْفَـع فيها العلم ويكثر فيها الهرج. والهـرج القتـل"، "ألا إن ربي أمـرني

أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمني"، "إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون ويضلون"، "إن القرآن لم ينزل يكذّب بعضه بعضا، بل يصدّق بعضه بعضه، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه"، وكذلك الأبيات التالية للنابغة الذبيانى وعَبيد بن الأبرص وعَدِىّ بن زيد وعنترة والسَّمَوْأل وتأبَّطَ شَرًّا على الترتيب:

يُنْبِئك ذو عِرْضِهِم عَنّي وَعالِمهم ... وَلَيسَ جاهِلُ شَيْءٍ مِثلَ مَن عَلِما

***

يا أَيُّها السائلُ عَن مَجْدِنا ... إِنَّكَ عَن مَسعاتِنا جاهِلُ

***

أَم لَدَيكَ العَهدُ الوَثيقُ مِنَ الأَيـ ... ـامِ؟ بَل أَنتَ جاهِلٌ مَغرورُ

***

هَلاَّ سَأَلتِ الخَيْلَ يا ابنةَ مالِكٍ ... إِن كُنتِ جاهِلَةً بِما لَم تَعلَمي

***

سَلي، إن جَهِلْتِ، الناسَ عَنّا وعنهمو ... فَلَيسَ سَواءً عالِمٌ وَجَهُولُ

***

بِها الرَكبُ أَيما يَمَّمَ الرَّكْبُ يَمَّموا ... وَإِن لَم تَلُحْ فَالقَومُ بِالسَّيْرِ جُهَّلُ

... إلخ. لكن ذلك لن يحل المشكلة، إذ المعروف أن مصطلح "الجاهلية" إنما ظهر بعد مجيء الإسلام، وكان القرآن

الكريم والرسول أول من استعمله. والمفهوم أن الجاهلية تُناقض الإسلام فى كل شىء تقريبا بما فى ذلك الحِلْم والعِلْم. أى أن المسألة لا تقف عند مخالفة الجاهلية للدين الجديد فى قيمتى الحِلْم والعلم، بل تشمل سائر القيم الإنسانية والاجتماعية والخلقية. وعلى ذلك فالجاهلية لا تقتصر على الجهل أيا كان معناه، بل تعنى كل ما أتى الإسلام نحوه، سواء كان جهلا أو طيشا أو كسلا أو سُكْرا أو زنى أو ظلما أو تجبرا أو ذلة أو نفاقا أو خيانة أو احتكارا أو اغتصابا أو إسرافا أو يأسا أو حسدا أو قذارة أو فوضى أو قبحا أو كفرا أو شركا أو عصبية قبلية أو قومية... إلخ. وغير خافٍ أن المعنى اللغوى لأية كلمة لا يتطابق مع معناها الاصطلاحى، بل يكون أوسع منه أو أضيق، بل قد يختلف عنه اختلافا كبيرا. وربما أراد د. شوقى ضيف أن ينفى الجهل عن العرب قبل الإسلام ردًّا على من يحاولون التطرق من ذلك إلى الإساءة للعروبة نفسها، إلا أن الواقع التاريخى يؤكد فعلا أن معارفهم كانت قليلة ولا تعدو أن تكون شظايا متفرقة يمازجها الأوهام والخرافات ولا تقوم على منهج، كما أنهم لم يكونوا يعرفون المدارس والمعاهد، بل كانوا يتشربون معارفهم أثناء حياتهم اليومية تشربا عمليا، إذ كانت تغلب عليهم الأمية. ومن هنا كانت عظمة الإسلام، الذى حول تلك الأمة من حال إلى حال وجعل من أبنائها فى

غضون سنوات قلائلَ سادةً وقادةً للعالم فى كل ميادين الحياة! إلا أن هذه مسألة أخرى.

ويشتمل هذا الكتاب على فصول سبعة فى ثقافة العرب أيام جاهليتهم: أولها عن الشعر الجاهلى، الذى وضعتُه فى صدارة الكتاب نزولا على ما هو معروف من أن فن الشعر كان يحتل لدى عرب الجاهلية، بل فى التراث العربى عموما، المقام الأعلى بين مفردات الثقافة المختلفة. وقد بحثت فى هذا الفصل عددا من القضايا الهامة المتصلة بذلك الموضوع كأولية الشعر العربى وما قيل عن النحل والانتحال وبناء القصيدة فى شعر الجاهليين، وأعدت النظر فى كل ذلك من جديد. وفى الفصل الثانى تناولت موضوع القَصَص المنسوب إلى العصر الجاهلى وتساءلت كما تساءل من سبقونى إلى طَرْق هذا الأمر: إلى أى مدى يمكن أن نَعُدّ ذلك القَصَص نثرا جاهليا؟ كما وقفت أمام بعض نصوصه وحللتها تحليلا مضمونيا وأدبيا مبرزا ما فيها من لمحات المتعة والإبداع. أما الفصل الثالث فخاصٌّ بالأمثال الجاهلية، وقد عالجتها فيه معالجة لغوية واجتماعية، مع التعرض هنا أيضا لبحث المدى الذى يمكن أن نثق فيه بتلك الأمثال، وهل قيلت فعلا فى ذلك العصر أَوْ لا؟ كما يتناول الفصل الرابع ما يسمَّى فى تاريخ الأدب العربى بـ"سجع الكُهّان"، أى الأقوال التى كان الكهّان العرب قبل الإسلام

يتلفظون بها إذا ما جاء أحد لاستشارهم فى رُؤْيَا رآها وأراد تعبيرها، أو خصومة يبغى وَضْع حَدٍّ لها، أو منافسة بينه وبين شخص آخر حول مفاخرهما الفردية والقبلية يراد حسمها... إلخ. وهى أقوال كان أولئك الكهان يتعمَّدون أن تكون مسجوعة تستهوى الأذن وتشغلها بما فيها من توقيع موسيقى، وأن تكون كذلك غامضة تقبل أكثر من معنى، وإن كنتُ قد شكَكْتُ فى كثير منها لأسباب ارتأيتها حسبما سيرى القراء فى حينه. وخامس تلك الفصول قد خُصِّص لموضوع الخطابة الجاهلية ونصوص الخُطَب التى وصلتنا منسوبة إلى عصر ما قبل الإسلام والمقاييس التى يمكن التعويل عليها فى فرز صحيحها من زائفها. أما فى الفصل السادس فقد حاولت أن أرسم صورة للأوضاع المختلفة لحياة العرب فى الجاهلية كما يمكن استخلاصها من آيات القرآن الكريم مع الاستعانة بتفاسيره وكتب أسباب نزوله. ولا ريب أن القرآن هو المصدر الذى لا يمكن أن يتطرق إليه الشك فى الكلام عن الجاهليين وحياتهم. ويبقى الفصل السابع والأخير، وهو يضم عددا من الموضوعات تتعلق بأنساب العرب وقبائلهم وأحلافهم ودياناتهم ونيرانهم وأيامهم وأسواقهم ومعارفهم وعلومهم، وقد استقيت خلاصتها من بعض المؤلفات التى تتعرض لتلك المسائل كـ"الإكليل" للهمدانى، و"الأغانى" للأصفهانى، و"تاريخ مكة"

للأزرقى، و"نهاية الأرَب" للنويرى، و"صبح الأعشى" للقلقشندى، و"التصوير عند العرب" لأحمد باشا تيمور، و"تاريخ آداب اللغة العربية" لجرجى زيدان، و"المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" للدكتور جواد على... إلخ. وهو فصل شديد الأهمية نظرًا لما يشتمل عليه من معلوماتٍ جِدِّ شائقة ومفيدة.

وغنىٌّ عن القول أننى قد رجعت فى هذا الكتاب إلى ما استطعتُ الرجوع إليه من المؤلفات التى سبقنى أصحابها إلى معالجة ما تناولتُه هنا من قضايا، وناقشتُ ما جاء فيها وقلّبته على وجوهه المختلفة حتى انتهيت إلى الرأى الذى اطمأننت إليه. وحاولت أثناء ذلك أن أضيف شيئا جديدا حتى لو كان هذا الجديد هو الزاويةَ التى أنظر منها إلى القضية رَهْن المعالجة، أو النكهةَ التى أعرضها بها. ويسرنى الآن أن أضع هذه الفصول بين يَدَى القارئ الكريم راجيًا من الله تعالى أن تكون ذات نفع للباحثين فى ثقافة العرب قبل الإسلام من عرب ومستعربين وأن تسد ثُغرة فى دراسة تلك الثقافة وما تتفرع إليه من فنون قولية وأوضاع اجتماعية وقيم أخلاقية وطقوس دينية وأنشطة اقتصادية. وقد عملتُ على ضبط أكبر عدد ممكن من الألفاظ فى تلك الفصول على عادتى فيما أؤلف من كتب وأبحاث منذ فترة طويلة حرصًا منى على تقديم نصّ يسهل على القارئ

مطالعته بأقل قدر من الأخطاء النطقية، وهــو مــا أرهقــنى جــدا كما يعرف كل من يعــالج الــرَّقْم علــى الكَــاتُوب. وأحــب أن ألفت نظر القراء الكرام إلى أن الياء النهائيــة فى كلمــات الكتــاب الذى بين يَدَىِ القارئ لم تَجْرِ علــى وتــيرة واحــدة، بــل كُتِبَــتْ بطريقتين مختلفتين: فما كتبتُه بنفســى مــن كــلام لم أضــع تحــت ياءاته المتطرفة نقطتين اتباعًا للنهج المصرى فى هــذا الســبيل، أمــا ما كان موضوعًا تحت هذا الضَّــرْب مــن ياءاتــه نقطتــان فهــو منسوخ من النصوص الموجــودة علــى المشــباك، ولــيس الأمــر فوضى كما قد يسبق إلى ظن بعض القراء. ولعــل مــا سيُكْتَشَــف من أخطاء فى هذا الكتاب لا يكون من الكثــرة ولا مــن الخطــورة بحيث يُزْرِى بى وبما أكتــب لــدى القــراء والدارســين، والله ولى التوفيق!

الشعـــر

يقف الشعر على رأس قائمـــة الثقافـــة الجاهليـــة كمـــا هـــو معروف، ولهذا نذكره أول شـــيء مـــن تلـــك الثقافـــة. وفى هـــذا الفصل نناقش بعض القضايا المتصـــلة بـــه تمحيصـــا لمـــا تَعِـــجّ بـــه الساحة الأدبية من آراء فى ذلك الموضوع، وأُولَـــى تلـــك القضـــايا عُمْر هذا الشعر الجاهلى. يقـــول الجـــاحظ فى كتابـــه: "الحيـــوان":

"وأما الشعرُ فحديثُ الميلاد صغيرُ السِّـــن، أوّلُ مـــن نَهَـــجَ ســـبيلَه وسهَّل الطريقَ إليه امرؤ القيس بن حُجْـــر ومُهَلْهِـــل بـــنُ ربيعـــة، وكُتُـــبُ أرســـطاطاليسَ ومعلّمِـــه أفلاطـــون، ثم بَطْلَيمـــوس وديمقراطس وفلان وفلان قبلَ بدءِ الشعر بالـــدهور قبـــلَ الـــدهور، والأحقاب قبلَ الأحقاب. ويدلّ على حداثةِ الشـــعر قـــولُ امـــرئ القيس بن حُجْر:

إنّ بني عـــوف ابتَنَـــوا حسنـــاً ضيّعـــه الدُّخْلُلُـــون إذ غـــدَرُوا
أدَّوْا إلى جارهـــم خفَارتـــه ولم يَضِـــعْ بالمَغيب مَنْ نَصَـــرُوا
لا حمْيَريٌّ وَفَى ولا عُـــدَسٌ ولا استُ عَيْـــرٍ يحكّها الـــثَّـفَرُ
لكنْ عُوَيْـــرٌ وَفَـــى بذمَّتـــه لا قِصَـــرٌ عابَـــهُ ولا عَـــوَرُ

فانظُرْ كم كان عمرُ زُرارةَ، وكـــم كـــان بـــين مـــوت زُرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام. فإذا اســـتظهرنا الشـــعرَ وجـــدنا له إلى أن جاء اللّه بالإسلام خمســـين ومائـــةَ عـــام، وإذا اســـتظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام".

وقد ترددت هذه المقولة فى خطها العام لَدُنْ مؤرخى الشعر الجاهلى ودارسيه، إذ يَرَوْن أن الشعر الجاهلى الذى يمكن الاطمئنان له إنما يبدأ من ذلك التاريخ الذى ذكره الجاحظ (انظر مثلا نيلدكه/ من تاريخ ونقد الشعر القديم/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى"/ ط٢/ دار العلم للملايين/ ١٩٨٦م/ ١٩، وكارل بروكلمان/ تاريخ الأدب العربى/ ١/ ترجمة د. عبد الحليم النجار/ ط٤/ دار المعارف/ ١٩٧٧م/ ٥٥، وأحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى/ الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه/ ط٤/ مطبعة المعارف ومكتبتها/ ١٣٤٢هـ- ١٩٢٤م/ ٤٤- ٤٥، وريجى بلاشير/ التأثيرات الوراثية والمشاكل التى تضعها رواية الشعر العتيق/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى"/ ٢٨٣، ود. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ط٧/ دار المعارف/ ١٩٧٦م/ ٣٨- ٣٩، ود. عبد العزيز نبوى/ دراسات فى الأدب الجاهلى/ ط٣/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ١٩٩٩م/ ١٢- ١٣)، وإن كان أرنولد نيكلسون المستشرق البريطانى المعروف ينزل بهذا التاريخ إلى مدى قرن واحد فقط أو أكثر قليلا بدءا من عام ٥٠٠م تقريبا (Reynold A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge,

1969, P.71). والواقع أن الجاحظ، مع احترامي الشديد له وإعجابي البالغ به وبفكره وأسلوبه وشخصيته كلها، لم يقدم دليلا على هذا الذى قال، إذ كيف يمكن الاقتناع بأن الذى مهد السبيل للشعر هو امرؤ القيس والمهلهل بما يعنى أنهما أول من قال الشعر من العرب وأن شعرهما من ثم يتسم بما يتسم به أول كل شيء من البدائية وقلة الفن والسذاجة بالنسبة لما جاء بعده، على حين أن ما خلّفه لنا المَلك الضِّلِّيل من شعرٍ، سواء من ناحية المقدار أو من ناحية القيمة الفنية حتى لقد جعلوه أميرا للشعراء الجاهليين، يكذِّب ذلك تكذيبا شديدا؟

ولقد لفتت هذه المسألة أنظار الباحثين فأَبْدَوُا استغرابهم أن يكون الشعر الجاهلى بما فيه من فن متقدم وليد تلك المدة القصيرة التى يحددها الجاحظ بمائة وخمسين عاما أو مائتين فقط قبل الإسلام. يقول مثلا أحمد حسن الزيات: "وليس يسوغ فى العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة الرائعة فى شعر المهلهل بن ربيعة وامرئ القيس، وإنما اختلفت عليه العُصُر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى هذَّب أسلوبه وتشعبت مناحيه" (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربى/ ط٢٤/ دار نهضة مصر/ ٢٨). ويقول أيضا حنا الفاخورى: "وأقدم شعرٍ وصل إلينا كان ما قيل فى حرب البسوس أو قبل ذلك قليلا، وكان قصائد كاملة تدل على

محاولات كثيرة سبقتها وهيأت طريقها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من استقامة الوزن واللغة والبيان" (حنا الفاخورى / تاريخ الأدب العربى/ دون دار نشر أو تاريخ/ ٥٢). ومثلهما فى ذلك د. عبد العزيز نبوى، الذى يقرر أن "الشعر الجاهلى، منذ أقدم نصوصه التى وصلت إلينا، قد اكتملت له أو كادت مقوماته الفنية بدءا من طرائق التعبير، وانتهاء بالموسيقى من وزن وتقفية. وهذا يعنى أنه مرت حقَبٌ طويلة قبل أن يستقر للشعر الجاهلى سماته وخصائصه" (د. عبد العزيز نبوى/ دراسات فى الأدب الجاهلى/ ١٢) ...إلخ. ويؤكد تشارلز ليال أن "تعدد البحور التى كان يستعملها الشعراء الجاهليون وتعقدها، وكذلك القواعد الراسخة التى تتعلق بالوزن والقافية، فضلا عن الأسلوب الواحد الذى كانوا ينتهجونه فى بناء قصائدهم رغم المسافات التى تفصل كلا منهم عن الآخر، كل ذلك يشير إلى دراسةٍ وممارسةٍ طويلةٍ سابقةٍ لفن الشعر وإمكانات اللسان العربى، وإن لم يكن بين يدينا سجل لشىء من هذا" (**C. J. Lyall, Translations of Ancient Arabian Poetry, London, 1885, P.xvi**)، وهو ما يوافقه عليه رينولد نيكلسون (**A Literary History of the Arabs, P.75-76**). وبالمثل يقرر إجناطيوس جويدى فى كتابه: "**L'Arabie Antéislamique**" أن القصائد الجاهلية

الرائعة التى وصلتنا عن القرن السادس الميلادى تشير إلى أن وراءها صنعة طويلة (I. Guidi, L'Arabie Antéislamique, Paris, 1921, P.21). ويعلل كليمان هوار اختفاء الشعر السابق على ذلك التاريخ بأن الذكريات البشرية، ما لم يتم حفظها كتابة على الجدران أو الحجارة أو الأوراق، فإنها حَرِيَّةٌ أن تضيع مع الأيام. ومن ثم يضيف قائلا إن الشعر العربى الذى وصلنا لا يرجع إلى أبعد من القرن السادس الميلادى عندما استُعْمِلت الألفباء النبطية فى تسجيل ذلك الشعر (Clément Huart, A History of Arabic Literature, William Heinmann, London, 1903, P.7). ثم إن كلام الجاحظ عن زرارة والمسافة الزمنية التى تفصله عن الرسول عليه السلام لا علاقة له بهذا الذى نحن فيه، فضلا عن أن الأبيات التى استشهد بها عميد الكتاب العرب القدماء لا تتضمن شيئا مما يشير إليه.

وفوق ذلك فلست أستطيع أن أجد مناسبة بين كلامه فى هذا السياق عن امرئ القيس والمهلهل من جهة وكلامه عن فلاسفة اليونان من جهة أخرى، وإن كان عبد الفتاح كيليطو قد تصور أن الجاحظ إنما يوازن بين الشعر والفلسفة مُعْلِيًا من شأن الأخيرة، جاعلاً إياها كالشيخ المجرب الطويل العمر، أما الشعر فصَبِيٌّ نَـزِقٌ لم تَعْرُكه الحياة بعدُ لأن عمره لا يزال

قصيرا. وهذه هى عبارتـه: "لا جـدال أن هـذا المـتكلم يقـدم الفلسفة على الشعر، ليس في الـزمن فحسـب، وإنمـا في القيمـة أيضا. فكأن الأسـبقية الزمنيـة تمـنح الفلسـفة جـدارة ومزيّـة واستحقاقا، بينما تـأخُّر ظهـور الشـعر علامـةٌ علـى طفولتـه وسذاجته وعدم نضجه. الفلسفة كالشيخ الـذي جـرب الأمـور واستفاد من عمره الطويل، بينما الشعر كالصـبي الطـائش النَّـزِق الذي لا يُؤْبَه لكلامه ولا يُعْتَمَد عليه ولا يُعْتَدّ بـه" (عبـد الفتـاح كيليطـو/ بـين الفلسـفة والشـعر/ موقـع "lycos"). لكـن التركيب النحوى فى كـلام الجـاحظ لا يسـاعد علـى تفسـير العبارة على هذا النحو، وإلا لجـاء هكـذا مـثلا: "أمـا الشـعر فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سـبيله وسـهل الطريـق إليه: امرؤ القيس بن حجر، ومهلـهل بـن ربيعـة. وأمـا كُتُـب أرسـطاطاليس ومعلمـه أفلاطـون، ثم بطليمـوس وديمـوقراطس وفلان وفلان، فموجودة قبل بدء الشعر بالـدهور قبـل الـدهور، والأحقاب قبل الأحقاب"، وبـذلك تكـون هنـاك مقارنـة بـين الشعر والفلسفة، علاوة على أن تركيب جملة الجـاحظ، فيمـا لـو أبقيناها رغم ذلك كما هى، ينقصـه خـبر المبتـدإ، وهـو كلمـة "موجودة" أو ما يشبهها، اللهم إلا إذا كـان الجـاحظ قـد قصـد أنه قبل الشعر كانت هنـاك كتـب فى فلسـفة الشـعر مهـدت الطريق إليه. لكن لا بد أن نفترض فى هذه الحالـة أنـه قـد سـها

فاستطرد قافزًا من الكلام عن الشعر الجاهلى إلى الكلام عن الشعر عموما، لأنه لا صلة، كما نعرف، بين شعر الجاهليين وفلسفة الإغريق. وعندئذ يكون قول الجاحظ: "وكتب أرسطاطاليس..." معطوفا على قوله: "امرؤ القيس بن حُجْر والمهلهل بن ربيعة"، وهو ما قد يرشح له ورودُ "كتب أرسطوطاليس" بعد فاصلة، لا بعد نقطة كما كتبها كيليطو.

وعلى أية حال فهناك أشعار تُرْوَى عن أزمان أبعد كثيرا من تلك المدة التى حددها الجاحظ كتلك التى تنسب لعاد وثمود مثلا. صحيح أن ابن سلام قد نفى أن تكون مثل تلك الأشعار حقيقية، إلا أن الحجة التى استند إليها فى ذلك النفى ليست بالحاسمة. ذلك أنه اعتمد فيها على ما جاء فى القرآن الكريم عن أولئك القوم من أنهم لم تبق منهم باقية، وهو ما أدى به إلى التساؤل قائلا إنه إذا كانت عاد وثمود قد استؤصلتا كما جاء فى القرآن، فمن الذى أدى لنا تلك الأشعار يا ترى؟ لكن فاته أنْ ليس شرطا أن يؤدى لنا أشعارَهم أحدٌ منهم بالذات، إذ من الممكن جدا أن يكون غيرهم من العرب ممن كان يحفظ تلك الأشعار هو الذى أداها لنا، أو أن تكون قد كُتِبَتْ ثم وصلتنا عَبْرَ من وقعت فى أيديهم تلك الكتابات، ثم ضاعت هذه الكتابات فيما بعد. ولست أقصد بذلك أن هذه الأشعار وأشباهها صحيحة بالضرورة، بل كل ما أريد أن

أوضحه هو أن الحجة التى ساقها ابن سلام، علـى جلالـة قـدره، لا تستطيع أن تحسم المسألة، وبخاصة أنه ليس هنـاك مـا يمنـع أن يكون الثموديون قد قالوا شعرا ولا أن يكـون ذلـك الشـعر قـد بقى تلك المدة التى تفصل بينهم وبـين الإسـلام، إذ هـى ليسـت بالمدة الطويلة، فها نحن أولاء ما زلنا نهـتم بأشـعار الجاهليـة الـتى يُقرَ بها الباحثون، ونقرؤها وندرسها ونحفظ كـثيرا مـن نصوصـها رغم انصرام كل هاتيك القرون التى تبلغ الألـف والسـتمائة مـن السنين. ومثلهم فى ذلك تلك الأممُ الـتى اختفـت مـن مسـرح التاريخ واختفت معها لغاتها فلـم يعـد يعرفهـا إلا المتخصصـون القليلون، والتى نعرف مع ذلك عـن تراثهـا وآدابهـا وأفكارهـا وعقائدها الشىء الكثير، كما هو الحال مع الأكـاديين مـثلا مـن التاريخ القديم، والهنود الحمر من تاريخنا الحـديث. وعلـى الوجـه الآخر قد يكون تراث أمة من الأمم مَصُـونًا مُتَاحًـا بـين أيـدى أخلافها، لكنهم لا يعرفون عنه شيئا كمـا كـان وضـع الحضـارة المصرية الفرعونية مثلا بالنسبة لنـا نحـن المصـريين قبـل الحملـة الفرنسية وقبل فك حجر رشيد، الذى كان بمثابـة كلمـة "افـتح يا سمسم" لكنوز على بابا.

ولقد كانت اللهجة الثمودية تجـرى علـى القواعـد الـتى نعرفها فى الفصحى فى اشتقاقاتها وأزمنـة أفعالهـا ووجـود صـيَغ التثنية وأسماء الإشارة والضمائر وحـروف الجـر والعطـف فيهـا،

وإن كانت أداة التعريف عندهم هى "الهـاء" بـدلا مـن "أل" (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ١١٢) مما يمكـن أن يفسَّـر علـى أنه مظهرٌ لَهْجِىٌ يختفى عند نظم الشعر مـثلا، فلمـاذا نُحيـل إذن أن يكون الثموديون قد قالوا شـعرا، أو أن يكـون شـعرهم قـد بقى حتى وصل بعض منه أهل الجاهليـة القـريبين مـن الإسـلام؟ أما قول د. جواد علـى، تحـت عنـوان "العربيـة الفصـحى" فى الفصل التاسع والثلاثين بعد المائة من كتابـه: "المفصَّـل فى تـاريخ العرب قبل الإسلام"، إن النصوص التى وصـلتنا عـن الثمـوديين تختلف عن العربية التى نعرفها، فمـن الممكـن، لـو صـحّ هـذا الكلام وكان شيئا مطّردا فى اللغة كلها، الـرد عليـه بـأن هـذه النصوص ليست نصوصا أدبية وأنه كـان مـن عـادتهم تخصـيص اللغة التى نسميها الآن بـــ"الفصـحى" للإبـداع الأدبى فقـط، وتخصيص اللهجات القبلية لما عدا ذلـك حـتى لـو كـان شـيئا مكتوبا. الواقع أنه لا يوجد عقلا ولا نقلا مـا يُحيـل هـذا. وأمـا اعتراض الدكتور طه حسين مـثلا علـى الرائيـة الـتى ينسـبها صاحب "الأغانى" لأحد أصهار إسماعيل مـن العـرب بحجـة أنهـا مكتوبة بلغة لينة مفهومـة الألفـاظ مسـتقيمة القواعـد النحويـة والصرفية والعروضية كلغة العرب أيام الـنبى عليـه السـلام بمـا يفيد أن اللغة العربية قد ظلت كـل ذلـك الـزمن الطويـل دون تطـوير (فى الأدب الجـاهلى/ دار المعـارف/ ١٩٦٤م/ ١٨٢–

١٨٣، وبالمناسبة فعبارة "عليه السلام" هـذه فمـن عنـدى، إذ لم يحدث مرة أن صلى الدكتور طه على النبى فى ذلك الكتاب!)، فيمكن الجواب عليه بأننا لا نزال حتى الآن، ورغم مرور زمن أكبر من الزمن الذى يفصل بين إسماعيل والجاهلية القريبة من الإسلام، نفهم كثيرا من الشعر الجاهلى مع اختلاف حياتنا الآن عن الحياة آنذاك أكثر مما كانت مختلفة بين العصرين المذكورين، وبخاصة أن موضوع القصيدة المشار إليها موضوع إنسانى بسيط لا يتعلق بوصف الحصان ولا الناقة وما إلى ذلك مما يكثر فيه الغريب بالنسبة لنا لأن حياتنا الآن تخلو من الناقة والحصان ولا نعرف أسماء أعضائهما ولا وجوه الحسن والسوء فيها كما كان يعرفها الجاهليون، بل يتعلق بحدثان الدهر وتقلبات الأيام وحتمية الموت وعجز البشر عن الوقوف فى وجه تصاريف القدر مما يخلو عادة من حُوشِىّ الألفاظ ولا يجد القارئ صعوبة فى فهمه. كما أن قواعد النحو والصرف والعروض ما زالت باقية كما تركها لنا الجاهليون رغم اختلاف ظروف حياتنا تماما عن حياتهم. ومع هذا فلا بد أن أسارع إلى التوضيح بأنى لا أقول بالضرورة إن تلك القصيدة صحيحة فعلا، إذ يحتاج الأمر إلى دراسة أوسع وأعمق وأكثر أناة مما فعل طه حسين المتسرع دون سبب وجيه إلى الرفض والإنكار، لا لشىء إلا لأن المستشرق البريطانى مرجليوث

(كما سنوضح لاحقا) قد شاعت له حماقته وعصبيته على العرب والإسلام من قبله أن يحمل على الشعر الجاهلى كله لينسفه نسفا فجاء طه حسين فنسج على منواله وأنكر الشعر الجاهلى بدوره: كُلّه أو جُلّه! وقد ننتهى بعد هذا إلى قبول القصيدة كلها أو بعضها أو إلى رفضها جملةً أو إلى التوقف بشأنها.

وعلى أية حال فهذا نص ما قاله ابن سلام فى كتابه: "طبقات فحول الشعراء" فى سياق هجومه على ابن إسحاق صاحب سيرة النبى عليه السلام: "وكان ممن أفسد الشعر وهجَّنه وحمل كل غُثَاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مَخْرَمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر. قال الزهري: لا يزال في الناس عِلْمٌ ما بَقِيَ مَوْلَى آل مَخْرَمة. وكان أكثر علمه بالمغازي والسِّيَر وغير ذلك فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر. أُتينا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السِّيَر أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر. إنما هو كلامٌ مؤلَّفٌ معقودٌ بقواف. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف السنين، والله تبارك وتعالى يقول: "فقُطِع دابر

القوم الذين ظلموا" (سورة الأنعام/ ٤٥) أي لا بقية لهم، وقال أيضا: "وأنه أهلك عادا الأولى* وثمودَ فما أبقى" (سورة النجم/ ٥٠- ٥١)، وقال في عاد "فهل ترى لهم مِنْ باقية؟" (سورة الحاقة/ ٨)، وقال: "ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم، لا يعلمهم إلا الله؟" (سورة إبراهيم/ ٩)؟ وقال يونس بن حبيب: أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه: إسماعيلُ بن إبراهيم صلوات الله عليهما. أخبرني مسمع بن عبد الملك أنه سمع محمد بن علي يقول: قال أبو عبد الله بن سلام، لا أدري أرفعه أم لا، وأظنه قد رفعه: أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه: إسماعيلُ ابن إبراهيم صلوات الله عليهما. وأخبرني يونس عن أبي عمرو بن العلاء، قال: العرب كلها وَلَدُ إسماعيل إلا حِمْيَر وبقايا جُرْهُم. وكذلك يُرْوَى أن إسماعيل بن إبراهيم جاورهم وأصهر إليهم. ولكن العربية التي عَنَى محمدُ بن عليٍّ اللسانُ الذي نزل به القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا. لم يجاوز أبناءُ نزار في أنسابهم وأشعارهم عدنانَ، اقتصروا على مَعَدّ. ولم يذكر عدنانَ جاهليٌّ قط غير لبيد بن ربيعة الكلابي في بيت واحد قاله. قال:

فإن لم تجد من دون عدنان والدًا ودون مَعَدٍّ فلْتَزَعْكَ العواذلُ

وقد رُوِيَ لعباس بن مِرْداس السُّلَميّ بيتٌ في عدنان قال:

وعَكّ بن عدنانَ الذين تلعّبوا بمَذْحِجَ حتى طُرِّدوا كل مَطْرَدِ

والبيت مُريب عند أبي عبد الله، فما فوق عدنان أسماء لم تؤخذ إلا عن الكتب، والله أعلم بها، لم يذكرها عربي قط. وإنما كان مَعَدٌّ بإزاء موسى بن عمران صلى الله عليه أو قبله قليلا، وبين موسى وعاد وثمود الدهر الطويل والأمد البعيد. فنحن لا نُقيم في النسب ما فوق عدنان، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعرًا، فكيف بعاد وثمود؟".

وواضح أن ابن سلام يظن أن عادا وثمود كانتا قبل زمنه بآلاف السنين وأنه لم يبق منهما شيء. لكن ثمود لم يكن يفصل بينها وبين الإسلام فى الواقع أكثر من ألف سنة أو أقل، إذ يعود تاريخ الثموديين إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون، واستمروا بعده فترة، وكانوا يسكنون مدائن صالح وما حولها، وجاء فى القرآن الكريم أنهم قد أخذتهم الرجفة، إلا أنهم رغم هذا قد خلّفوا لنا كثيرا من النقوش فى بلادهم وخارج بلادهم (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ٣٣، ١١١)، مما يدل على أن فهم ابن سلام للآية الكريمة الخاصة باستئصالهم لم يكن فهما سليما. كذلك فاللغة التى كتبوا بها نقوشهم لا تختلف عن العربية الفصحى كما نعرفها، اللهم إلا فيما لا يقدم أو يؤخر

حسبما رأينا. كما أن ثمود على الأقل تتلـو تاريخيـا إسماعيـل بـن إبراهيم ولا تتقدمه كمـا سـبق إلى وهـم عالمنـا الجليـل، إذ إن إبراهيم وإسماعيل إنما سبقا ميلاد السـيد المسـيح بأزمـان طـوال، وليس بقرون قليلة كما هو الحال مع ثمـود حسـبما عرفنـا قبـل قليل، فضلا عن أنه لا يوجد فارق زمنى يُذْكَر بـين ثمـود وموسـى عليه السلام حسبما يقول ابن سلام، فقـد قرأنـا آنفًـا أن ثمـود سبقت عيسى عليه السلام بعدة قرون، وهـو مـا يصـدق علـى سيدنا موسى أيضا. كذلك فإسماعيل لا يمكـن أن يكـون هـو أول من تكلم العربية طبقا لما يقوله ابـن سـلام، الـذى يضـيف مـع ذلك أنه عليه السلام قد نسى لغته الأولى لصـالح لغـة الضـاد، إذ السؤال هو: وكيف ينسى ذلك النبى الكـريم لغتـه ويتخـذ لغـة أخرى إلا إذا كانت هذه اللغة الأخرى لها وجـود آنـذاك، وهـو ما يعنى أنها سابقة على نسيانه للغته؟ وهذه اللغة هـى لغـة زوجتـه العربية. أى أن اللسان العربى كان موجـودا فى ذلـك الحـين، ولم يكن إسماعيل أول من تكلم به كما قال ابـن سـلام، فـالفرد (أىّ فرد) لا يمكنه استحداث لغة لم تكن، لأن اللغـة تحتـاج إلى أزمـان وأزمان، وهى تنمو وتتطور وتتسـع وتتعقـد بالتـدريج لا دفعـة واحدة كما يوحى كلام ابن سلام رحمه الله.

وعلاوة على ذلك فقـد ورد اسـم عـدنان عنـد شـعراءَ آخرين غير الشاعرين اللـذيْن ذكرهمـا عالمنـا الجليـل واللـذيْن

تابعه فيما قاله عنهما د. جـواد علـى فى أول الفصـل الأربعـين بعد المائة (بعنوان "اللسـان العـربى") مـن كتابـه: "المفصَّـل فى تاريخ العرب قبل الإسلام". ومن هـؤلاء الشـعراء المهلـهل بـن ربيعة وليلى العفيفة وأميّة بن أبى الصـلت، الـذين يقولـون علـى التوالى:

يَـومٌ لَنـا كانَت رِئاسَةُ أَهـلِهِ   دونَ القَبـائِلِ مِن بَني عَدنـانِ

***

يا بَني الأَعمـاصِ إِمّا تَقطَعوا   لِبَني عَدنـانَ أَسبـابَ الرَّجا

....

قُل لِعَدنـان: فُديتُـم! شَمِّروا   لِبَني الأَعجـامِ تَشميـرَ الوَحى

***

نَفَـوْا عن أرْضِهِمْ عدْنانَ طُرًّا   وكانـوا للقبـائل قاهِرينـا

وفى "مجمع الأمثال" للميدانى بيـتٌ شـعرىٌّ آخـرُ ورد فيـه اسم "عدنان"، نسبه المؤلف لعبد الله بن همام أحـد بـنى عبـد الله بن غطفان، مضيفا أنه يُنْسَـب للنابغـة أيضـا، وهـو مـا عـزَاه البغدادى فى "خزانة الأدب" لهذا الأخـير فقـط، وإن كـان قـد عاد فذكر أنه يُنْسَـب فى "الفـاخر" (للمفضـل بـن سـلمة) إلى الاثنين جميعا، مع تحديد الغطفـانى بأنـه عبـد الله بـن هُمَـارِق، ونصه:

بما انتهكوا من رب عدنانَ جهرةً   وعوفٌ يناجيهم، وذلكمُ جَـلَلْ

وفى "الإيناس بعلم الأنساب" يورد الـوزير المغـربى هـذين البيتين لسلمة بن قيس العُكْلِىّ:

سَيبلغُ قَـــذْفي نَهْشَلاَ أَنّ مَجْدها قصيـــر وقولي شَتْمُه وقَصائـــدهْ
ويأتي على الفَوْرَين دون مَحَجْر ويَصْعَد في عكّ بن عَدنان ناشدُهْ

وبالإضافة إلى ذلك فقد مر بنا ما قاله عـــدد مـــن البـــاحثين من أن الشعر الجاهلى الذى بـــين أيـــدينا لا يمكـــن أن يكـــون أول ما نظمته العرب من أشعار، بل لا بد أن تكون قـــد ســـبقته أشـــعار أخرى على مدى زمنى طويل حتى اســـتوى الفـــن الشـــعرى علـــى سُوقِه. أما إلى أى مدى يمتـــد هـــذا الـــزمن فى الماضـــى بالضـــبط فعلمه عند الله، إذ لم يستطع حـــتى الآن أىُّ باحـــثٍ الإتيـــانَ بمـــا يَشْفِى ويكفِى فى هذا السبيل.

وهذا كله من شأنه التخفيـــف مـــن مخـــاوف ابـــن ســـلام والتهدئة من شكوكه التى نحترمها رغـــم كـــل شـــىء، إذ لم يكـــن الرجل فى تلك المخاوف ولا فى هذه الشـــكوك صـــاحب هـــوى أو مأرب، بل كان يبغى البحث عن بَرْد اليقين فى مجـــال مـــن مجـــالات العلم، ولم يكن يقصد إحداث ضجيج مقعقع يلفـــت إليـــه الأنظـــار ولا أن يحارب العرب والمسلمين بتشـــكيكهم فى كـــل شـــىء مـــن تراثهم وحضارتهم كما يفعل بعض المستشرقين ومـــن يعـــدو لاهثـــا خلفهم مقلدا لهم فى كل ما يفعلـــون. علـــى أنـــى، كمـــا ســـبق التنبيه، لا أقـــول إن الأشـــعار الـــتى بلغتنـــا عـــن عـــاد وثمـــود وأشباههما لا بد أن تكون صحيحة بالضرورة، بل كـــل مـــا أبغـــى قوله هو أننا ينبغى أن نعيد النظر فيمـــا قيـــل بخصـــوص الشـــك فى الشعر الجاهلى.

وهذه هى النقطة التى أريـــد أن أتناولهـــا الآن. وقـــد كـــان ابن سلام هو أول من فصل القول من القـــدماء فى هـــذه القضـــية، وإليك بعض ما قاله فى هذا الصدد مما أصـــبح منطلَقـــا لمـــن جـــاء بعده (وبخاصة من الــــمُحْدَثين عربـــا ومستشـــرقين) للشـــك فى شعر ما قبل الإسلام: بعضه أو كثير منه أو جُلّـــه أو كُلّـــه. قـــال: "وفى الشعر مصنوع مفتعَـــل موضـــوع كـــثير، لا خـــير فيـــه ولا حجة فى عربية ولا أدب يســـتفاد ولا معـــنى يُسْـــتَخْرَج ولا مثـــل يُضْرَب ولا مديح رائع ولا هجـــاء مقـــذع ولا فخـــر مُعْجِـــب ولا نسيب مستطرَف. وقد تداولـــه قـــوم مـــن كتـــاب إلى كتـــاب، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلمـــاء. ولـــيس لأحـــد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطـــال شـــئ منـــه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صـــحفى. وقـــد اختلـــف العلمـــاء بَعْدُ في بعض الشعر كما اختلفـــت في ســـائر الأشـــياء، فأمـــا مـــا اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه".

ثم مضى مؤكدا أن "للشعر صـــناعة وثقافـــة يعرفهـــا أهـــل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات: منـــها مـــا تَثْقَفـــه العـــين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفـــه اليـــد، ومنـــها مـــا يثقفـــه اللسان. من ذلك اللؤلـــؤ واليـــاقوت، لا تعرفـــه بصـــفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره. ومن ذلـــك الجهبـــذة بالـــدينار والـــدرهم، لا تعرف جودتهما بلونٍ ولا مسٍّ ولا طـــرازٍ ولا وَسْـــمٍ ولا صـــفة،

ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بَهْرَجها وزائفها وسَتوقها ومُفْرَغها. ومنه البصر بغريب النخل، والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده مع تشابه لونه ومسّه وذَرْعه حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه، وكذلك بصر الرقيق فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون جيدة الشطب نقية الثغر حسنة العين والأنف جيدة النهود ظريفة اللسان واردة الشعر، فتكون في هذه الصفة بمئة دينار وبمئتى دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر ولا يجد واصفها مَزيدًا على هذه الصفة. وتوصف الدابة فيقال: خفيف العنان لين الظهر شديد الحافر فَتِيُّ السن نقيٌّ من العيوب فيكون بخمسين دينارا أو نحوها، وتكون أخرى بمئتى دينار وأكثر، وتكون هذه صفتها. ويقال للرجل والمرأة فى القراءة والغناء: إنه لنَديّ الحَلْق طَلّ الصوت طويل النَّفَس مصيب للَّحْن، ويوصف الآخر بهذه الصفة، وبينهما بَوْن بعيد، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له بلا صفة ينتهى إليها ولا علم يُوقَف عليه. وإنّ كثرة المدارسة لتُعْدِي علي العلم به، فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به".

ثم يضرب على ذلك بعض الأمثلة من واقع الحياة الأدبية: "قال محمد: قال خلاد بن يزيد الباهلى لخلف بن حيان أبي محرز، وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله: بأى

شئ تردّ هذه الأشعار التي تُرْوَى؟ قال لـه: هـل فيهـا مـا تعلـم أنت أنه مصنوع لا خير فيه؟ قال: نعـم. قـال: أفـتعلم في النـاس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال: نعم. قال: فـلا تنكـر أن يعلمـوا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت. وقال قائل لخلـف: إذا سمعـت أنـا بالشعر أستحسنه فما أبالى ما قلت أنـت فيـه وأصـحابك! قـال: إذا أخذتَ درهما فاستحسنتَه فقال لك الصـراف إنـه ردئ، فهـل ينفعك استحسانك إياه؟".

ويبدو أن ابن سلام يتصور أن الشـعر الصـحيح لا بـد أن يكون شعرا جيدا مـن الناحيـة الفنيـة والمضـمونية بالضـرورة، وهذا ما يوحى به قوله عما لا يطمئن له مـن شـعر إنـه "لا خـير فيه ولا حجة فى عربية ولا أدب يسـتفاد ولا معـنى يسـتخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقـذع ولا فخـر معجـب ولا نسيب مستطرف"، مـع أنـه لا تـلازم البتـة بـين الشـعر الصحيح من جهة والجودة الفنية والفائـدة الخلقيـة والاجتماعيـة من جهة أخرى، ولا بين الشعر المزيف وتفاهـة الفـن والمضـمون كذلك، وهذا مما يعرفه كل أحد. أما قوله، عـن بعـض مـا كـان يُتَداوَل على أيامه من شعر لا ترتاح نفسه لـه ولا يـرى صـحته، إنه "قد تداوله قوم من كتاب إلى كتـاب، لم يأخـذوه عـن أهـل البادية ولم يعرضوه على العلماء" فقد يمكـن التعقيـب عليـه بـأن الشعر المروىّ عن أهل البادية لا بـد أن ينتـهى هـو أيضـا بعـد

ذلك إلى التقييد فى الــورق، فليســت الكتابــة إذن عــارا علــى النصوص الشعرية ولا على من يأخــذ بهــا، ولا ينبغــى مــن ثم أن تُتَّخَذ تُكَأَةً لرفض شيء مــن تلــك النصــوص إلا إذا قــام دليــل قاطع على أنه زائف مصنوع. كمــا أن روايــة الأعــراب لشــئ من الشعر ليست فى حد ذاتها برهانا على صــحته، إذ البــدو بشــر من البشر فى نهاية المطاف، يجوز عليهم الكــذب والصــدق جميعــا، ويقع منهم التزييف كما يقــع منــهم التحقيــق، وفــيهم الأمــين الذى يُطْمَأَنّ له والخائن الذى يُحْفَل منــه ولا يوثــق بــه. ثم هــل كان العرب كلهم أبناء بادية؟ ألم يكن فــيهم مــن يســكن المــدن؟ ألم يكن بين سكان المدن هؤلاء شعراء؟ بلى كــان بينــهم شــعراء، وابن سلام نفسه قــد أفــرد لشــعراء مكــة ويثــرب والطــائف والبحرين قسما خاصا من كتابه الذى نحن بصــدده، عــلاوة علــى من كان يعيش منهم فى بلاطَي الحيرة والغساســنة، فكيــف نســى عالمنا الجليل هذا حين اشترط أن يكــون الشــعر الصــحيح مــن رواية البدو، والبدو وحدهم؟ وهــذا أكــبر دليــل علــى أن مــا زعمه كليمان هوار من أن المدن العربيــة فى ذلــك الحــين كانــت من شدة الاشتغال بالتجــارة بحيــث لم تكــن هنــاك أيــة فرصــة لترعرع الإبــداع الأدبى فيهــا هــو كــلام لا يؤبــه بــه البتــة (**Clément Huart, A History of Arabic Literature, P.6**). وفوق هذا ألم يكــن بــين العــرب مــن

يعتمد على الكتابة فى رواية الشعر الجاهلى؟ ثم لماذا ننسى أن كثيرا جدا من البدو العرب قد انتقلوا إلى العيش فى أمصار البلاد المفتوحة وأصبحوا بهذا من سكان المدن؟ أفإن تغيرت مساكنهم ينبغى أن يتغير الحكم عليهم ولا يُوثَق عندئذ بما يروونه من شعر الجاهليين؟

أما حديث ابن سلام عن قدرة العلماء المطلقة على فرز صحيح الشعر الجاهلى من زائفه بمجرد النظر فيه ففيه مبالغة كبيرة رغم معرفتنا بقيمة التخصص وضرورته، إذ إن أحكام العلماء التى تكلم عنها ابن سلام هنا لا تزيد عن أن تكون أحكاما انطباعية، ومعروف ما يمكن أن يعترى الأحكام الانطباعية من فساد مهما علت درجة صاحبها فى العلم والخبرة. ومن هنا كان لا بد للعالم من الرجوع إلى القواعد المرعيّة عند أهل كل صناعة، وتعريف القارئ عن طريق التطبيق العملى كيف اعتمد عليها فى الحكم على هذا النص الشعرى أو ذاك، وسَوْق البراهين التى تدل على ما يقول حتى تكون أمام الباحث الفرصة لتمحيص ما يقرأ، ومن ثم قبوله أو رفضه عن بيّنة، وهو ما لم يفعله ابن سلام للأسف فى كثير من الحالات كما فى النص الذى نناقشه الآن والذى ينسب للعلماء قدرات خارقة لا تعرف الفشل، أو لم يوفَّق فيه فى بعض الحالات الأخرى كما رأينا فى حديثه عما ينسب لعاد وثمود من

أشعار. إن كلام ابن سلام هنا ليشبه قول من يرى أن الطبيب ليس فى حاجة إلى تحليلات ولا أشعة ولا إلى الكشف على المريض، بل يكفيه أن يلقى نظرة عليه فيعرف للتوّ ما يعانى منه. وهو ما يتسبب فى وقوع كوارث كان من الممكن تدارك كثير منها وتجنُّب نسبة غير قليلة من حالات الوفاة أو تفاقم المرض لدرجة خارجة عن السيطرة مثلا لو أن الطبيب طامن من غُلَوَائه فى الثقة بعلمه وخبرته بعض الشىء. وكم كان يونس صادقا فى قوله التالى الذى استشهد به ابن سلام: "لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شئ واحد كان ينبغى لقول أبى عمرو بن العلاء فى العربية أن يؤخذ كله. ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك". كما أنه هو نفسه يحكم على خَلَف الأحمر قائلا: "اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لسانا. كنا لا نبالى إذا أخذْنا عنه خبرا أو أنشدَنا شعرا ألا نسمعه من صاحبه"، مع أن خَلَفًا هذا متَّهَم لدى بعض العلماء الآخرين بأنه وضّاع كبير للشعر. فما القول فى هذا؟ أليس هذا دليلا آخر على أن مسألة معرفة العلماء بالشعر الجاهلى ومقدرتهم على تمييز صحيحه من ملفَّقه مسألة نسبية؟ وإلا فلماذا اختلفوا فى الحكم على خَلَف الأحمر إذن إذا كانت أحكامهم لا يخرّ منها الماء كما يريدنا ابن سلام أن نصدّق؟

ليس ذلك فقط، بل ها هو ذا ابن سلام نفسه يخبرنا بأن الاختلاف بين المختصين برواية الشعر الجاهلى كان شديدا، وأن هذا الاختلاف قد دفعه إلى الاقتصار على بعض ذلك الشعر وأصحابه دون البعض الآخر: "وقد اختلف الناس والرواة فيهم فنظر قوم من أهل العلم بالشعر والنفاذ فى كلام العرب والعلم بالعربية إذا اختلفت الرواة فقالوا بآرائهم، وقالت العشائر بأهوائها. ولا يُقْنِع الناسَ مع ذلك إلا الروايةُ عمن تقدم، فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا فألّفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه فوجدناهم عشر طبقات، أربعةُ رهطٍ كلُّ طبقة متكافئين معتدلين". أما قوله عن ابن إسحاق: "وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غُثَاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر. قال الزهرى: لا يزال فى الناس عِلْمٌ ما بقى مولى آل مَخْرَمة. وكان أكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك، فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لى بالشعر. أُتينا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن الرجال. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر. إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ" فأرى أن فيه تجنيا عليه، إذ كيف السبيل

إلى معرفة أن الرجال والنساء المذكورين هنا لم يقولوا شعرا قط؟ الحق أن ذلك أمر يحتاج إلى دليل، وبخاصة أن أمامنا أشعارا تُنْسَب لهم، ونفيها عنهم هو الذى يحتاج إلى برهان، وأين هذا البرهان؟ ثم إن عالمنا الجليل يؤكد أنه قد ضاع من الشعر العربى الكثير والكثير، وهو ما كان ينبغى أن يحجزه عن التسرع فى إطلاق مثل تلك الأحكام! على أننى لا أقصد أن كل ما أورده ابن إسحاق فى السيرة النبوية من أشعار صحيح لا ريب فيه، بل قُصَارَى ما أقول إن الأمر لا ينبغى أن يُقْطَع فيه بتلك السهولة التى ينتحيها ابن سلام. ثم إننى لا أفهم على أى أساس حَكَم على الأشعار المنسوبة فى السيرة لعاد وثمود بأنها مجرد كلام معقود بقواف وليست شعرا. ألم يكن أحرى به أن يورد لنا الحيثيات التى نفى بها عن هذا الشعر الجودة الفنية، بل أنكر بناءً عليها مجرد دخوله ميدان هذا الفن؟ ومرة أخرى هل لا بد أن يكون كل شعرٍ صحيحٍ جيدا من الناحية الفنية؟

وهو يقول إن الشعر الجاهلى كان غزيرا شديد الغزارة، لكن "جاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولَهَتْ عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يَؤُولُوا إلى ديوانٍ مدوَّنٍ ولا كتابٍ مكتوب،

وأَلْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير. وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوانٌ فيه أشعار الفحول وما مُدِح هو وأهل بيته به، صار ذلك إلى بنى مروان أو صار منه. قال يونس: فلما راجعت العربُ روايةَ الشعر وذِكْرَ أيامها ومآثرها استقلَّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قَلَّتْ وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا فى الأشعار التى قيلت. وليس يُشْكِل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولَّدون، وإنما عَضَّل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيُشْكِل ذلك بعض الإشكال. قال ابن سلام: أخبرنى أبو عبيدة أن ابن داوود بن متمِّم بن نُوَيْرَة قَدِم البصرةَ فى بعض ما يَقْدَم له البدوى من الجَلَب والمِيرَة فنزل النحيت، فأتيته أنا وابن نوح العطاردى فسألناه عن شعر أبيه متمم، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته. فلما نَفِدَ شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويصنعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمم، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها. فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله. وكان أوّلَ من جمع أشعار العرب وساق

أحاديثها حمادٌ الراوية، وكان غير موثوق به. وكـــان يَنْحَـــل شـــعر الرجل غيره وينحله غير شـــعره ويزيـــد في الأشـــعار. قـــال ابـــن سلام: أخبرنى أبو عبيدة عن يـــونس، قـــال: قـــدم حمـــاد البصـــرة على بلال بن أبي بردة وهو عليها فقال: ما أطـــرفتنى شـــيئا. فعـــاد إليه فأنشده القصيدة التى في شـــعر الحطيئـــة، مـــديح أبى موســـى. قال: ويحك! يمدح الحطيئةُ أبا موســـى لا أعلـــم بـــه، وأنـــا أروى شعر الحطيئة؟ ولكن دعها تذهب في النـــاس. قـــال ابـــن ســـلام: أخبرنى أبو عبيدة عن عمر بن ســـعيد بـــن وهـــب الثقفـــي، قـــال: كان حماد لى صديقًا مُلْطفًا فعرض عليّ ما قبله يومـــا، فقلـــت لـــه: أَمْلِ عليَّ قصيدة لأخوالى بنى ســـعد بـــن مالـــك لطَرَفـــة. فـــأَمْلَى عليّ:

إن الخليـــــط أجَـــــدّ منتقَلُـــهْ ولـــذاك زُمَّـــتْ غُـــدْوَةً إبِلُـــهْ
عهدى بهم فى النَّقْـــب قد سندوا تَهْـــدِى صِعَـــابَ مَطِيِّهم ذُلُلُهْ

وهي لأعشى همدان. وسمعت يـــونس يقـــول: العجـــب ممـــن يأخذ عن حماد. وكان يَكْذب ويَلْحَن ويَكْسِر".

وكلام ابن سلام عن تشاغل العرب عـــن الشـــعر بالإســـلام والجهاد والفتوح معناه أولا أن العـــرب كـــانوا جميعـــا مجاهـــدين لا يستقر منهم فى بلده ولا بيته أحـــد، وهـــذا بطبيعـــة الحـــال غـــير صحيح. إنما كان بعضـــهم يجاهـــد، وبعضـــهم يتـــاجر، وبعضـــهم يزرع، وبعضهم يصـــنع، وبعضـــهم يرعـــى، وبعضـــهم يعلّـــم أو يتعلم... إلخ كما هو الحال فى أى مجتمـــع آخـــر. ومعنـــاه ثانيـــا

أنهم عادوا لا يقولون الشعر ما داموا لا يروونه، إذ الرواية أسهل وأقل بَعْثًا على الحرج من النَّظْم. لكننا ننظر فنجد أنهم ظلوا يقولون الشعر حتى على أيام النبى عليه السلام، وفى أثناء الفتوح ذاتها. وهناك شعرٌ جِدُّ كثيرٍ قيل فيها كما نعرف جميعا. بل إن الرسول عليه السلام كان يقرّب إليه بعض شعراء المسلمين ويحثهم على قول الشعر فى الذَّبّ عن الدين الجديد ويشجعهم، فكان يقول لحسان: اُهْجُهم (أى القرشيين)، وروح القدس معك. فكيف يقال إذن إن الإسلام قد شغل العرب عن رواية الشعر، حتى إذا انتهَوْا من الفتوح (والكلام هنا بالمناسبة مضطرب، وكأن الجهاد شىء آخر غير الفتوح!) ورجعوا إلى أنفسهم وما كانوا يحفظونه من الأشعار وجدوا أنهم قد نَسُوا نصيبا كبيرا جدا منها؟ وبالنسبة لابن متمم بن نويرة هل يعقل أن يأخذ فى ارتجال تلك الأشعار الكثيرة المتتابعة التى تشبه شعر جده بهذه السهولة كما يُفْهَم من الرواية الخاصة بذلك؟ ثم لماذا يصنع ذلك يا ترى؟ وهل شرط أن يكون شعر متمم على مستوى واحد من المتانة والرُّوَاء؟ أليس من الطبيعى أن يتفاوت شعر الشاعر فيكون بعضه قويا متينا، والآخر دون ذلك، كما هو الحال حتى فى شعر شاعر عبقرى مثل المتنبى، إذ نجد فى ديوانه مقطوعات وقصائد لا ترتفع إلى مستوى شعره الآخر الرائع فى سيف الدولة وكافور وفى التغنى بمفاخره وأحزانه

الذاتية؟ وقل مثل ذلك فى شعر أمير الشعراء أحمد شوقى. وهذان مجرد مثالين اثنين لا غير، وإلا فمعروف عند المشتغلين بالأدب والنقد أن ذلك ينطبق على سائر الشعراء.

أما بالنسبة لحماد وما اشتهر به من كذب ونحل فإنى أتساءل بدورى: إذا كان حماد على هذه الشاكلة من الاشتهار بالنحل والتلفيق، وكذلك باللحن والكسر فوق البيعة بما يعنى أنه من الشعر لا فى العير ولا فى النفير، فما الذى كان يضطرهم إلى اللجوء إليه دائما وسؤاله عما فى جَعْبته من جديد؟ ثم هل من الحتم اللازب أن يعرف بلال بن أبى بردة كل شعر الحطيئة، أو كانت ذاكرته قرصا مدمجا سُجِّل عليه كل شعر الشاعر الهجّاء فلا ينِدّ عنها شاردة ولا واردة من ذلك الشعر؟ كذلك أليس من حقنا أن نسمع رد المتهم على التهمة الموجَّهة إليه؟ لكن للأسف تسكت الرواية عند هذا الحد فلا تعطى المسكين الفرصة لإبداء وجهة نظره! ثم من يا ترى أنبأ الناس بما دار بين بلال وحماد من حوار واتفاقهما فى نهاية الأمر على ترك القصيدة المزيفة تذيع فى الناس؟ إن أيا منهما لا يمكن أن يكون هو من روى القصة، وإلا لكان كمن يحفر قبره بيده. كما أنه لم يكن هناك إلا هما وحدهما كيلا يقول قائل إن شخصا ثالثا هو الذى فضح الأمر. أما لو افترضنا بعد ذلك كله أنْ قد كان هناك شخص ثالث، فإنهما لم يكونا ليجرؤا

على قول هذا الكلام بمسمع منه حتى لا يشوها صورهما فى عينه. وفى "الأغانى" أن المدائنى كان ينسب القصيدة المذكورة للحطيئة فعلا! فما الذى يمكن أن نقوله هنا؟ وهذا هو نص "الأغانى": "وذكر المدائني أن الحطيئة قال هذه القصيدة في أبي موسى، وأنها صحيحة. قالها فيه وقد جمع جيشا للغزو فأنشده: "جمعْتَ من عامرٍ فيه ومن أسدِ"، وذكر البيتين وبينهما هذا البيت وهو:

فما رَضيتَهم حتى رَفَدْتَهمو بوائلٍ رَهْطِ ذي الجدَّيْن بسطامِ"

ثم هل يقدح خطأ حماد فى نسبة قصيدة أعشى همدان لطَرَفة فى أمانته بالضرورة؟ ألا يمكن أن تكون المشكلة مشكلة ذاكرة لا مشكلة ضمير؟ وهل هذا هو النص الشعرى الوحيد الذى أحاط به الخلاف حول نسبته لصاحبه حتى نذهب فنعلق المشنقة لحماد؟ ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام وجهة النظر الخاصة بأحد الطرفين دون الآخر، وكأن حمادا خَرِس فلم يُحِرْ جوابا وسلّم بما قيل فى حقه. وأين هذا؟ وعجيب أن يقال فى حماد إنه كان ينحل شعر الرجل غيره: هكذا دون إبداء الأسباب. ترى لماذا كان يفعل ذلك؟ أكان مصابا بلُوثَةٍ فى عقله تجعله يتبرع من تلقاء نفسه بخداع الناس وإنفاق وقته وجهده فى ذلك "لله فى لله"؟ وأعجب من هذا أن يقال إنه كان يزيد فى الأشعار رغم ما اتُّهِم به فى ذات الوقت من أنه كان

يلحن ويكسر الشعر. يا له من أحمق! لكن ما القول فى الذين كانوا يصرون بعد هذا كله على البحث عنده دائما عن الجديد فى الشعر؟ أليسوا مثله حمقى بل أَعْرَق منه فى الحماقة وأَوْغَل؟ وأعجب من هذا وذاك أن يلقَّب هذا الكذاب الوضاع الخالى من الموهبة الشعرية بـ"الراوية"؟ إن مثل هذا اللقب ليس له فى الواقع من معنى إلا أنهم كانوا يحترمون روايته ويقدرونها حتى إنهم لم يَرَوْا فيه إلا أنه "راوية"! وفى "الأغانى" أن المفضَّل الضَّبِّىّ قد وصفه بأنه "رجل عارف بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يُشْبه به مذهب رجل ويُدْخِله فى شعره ويُحْمَل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء". أى أنه كان عالما بالشعر ذا بصيرة نقدية عجيبة فيه وصاحب موهبة وبراعة فى التقليد ومقدرة على خلط الأمور حتى لتتداخل الأشعار الصحيحة والزائفة على يديه فلا يميز بينها إلا عالمٌ خرِّيت. فمن نصدق يا ترى؟ أنصدق من يرميه بالجهل الفاحش بالشعر وباللحن والكسر فيه، أم نصدق من يصوره بصورة العبقرى الجهبذ الذى لا يعجزه فى هذا الميدان شىء؟

وهناك خبران آخران غريبان عنه فى "الأغانى" مُفَادهما أنه بقى يكذب على الناس ويضع لهم الشعر الجاهلى المنحول على مدى عشرات السنين، على الأقل من أيام الخليفة الأموى

الوليد بن يزيد (الذى نجح فى امتحانٍ عقده لـه كـى يتثبـت أنـه يحفظ فعلا لمن لا يعرفهم من الشـعراء مائـة قصـيدة علـى كـل حرف من حروف الألفباء) حتى عصر المهـدى ثـانى خلفـاء بـنى العباس حين اكتشف تلاعبه فنادى فى النـاس ألا يقبلـوا روايتـه، وكأن الدولة الإسلامية كان مـن مهامّهـا نقـد الأدب والكشـف عن الشعر المنحول! فهل يقبل العقـل أن يظـل الرجـل يضـحك على ذقون العرب كل هاتيـك العشـرات مـن السـنين دون أن يكشفه أحد قبل المهدى العباسى، وكأنـه يتعامـل مـع أمـة مـن الأفدام الأغتام البائسين؟ وأخيرا وليس آخـرا نجـد ابـن سـلام يبدأ كلامه قائلا إن الشعر العربى لم يعرف غـير الروايـة الشـفوية، ليعود فيضيف بعد قليل أنه كان هناك قسط كـبير منـه مقيـد فى ديوان عند النعمان بـن المنـذر وانتـهى مطافـه إلى أيـدى بـنى مروان. وذلك القسـط، حسـب كلامـه، هـو أفضـل الشـعر الجاهلى من الناحية الفنيـة لأنـه شـعر الفحـول ومـن مـدحوا النعمان وأسرته. وهذا تناقض واضح!

كذلك نقرأ فى "تاريخ بغـداد" لأبى بكـر بـن الخطيـب أن أبا عمرو الشيبانى، وهو أيضا راويةٌ كـوفىٌّ كحمـاد، كـان يجمـع شعر القبائل حتى إذا انتهى من شعر إحداها كتـب مصـحفا بخطـه ووضعه فى مسجد الكوفة. ومع هذا فقد كـان خصـومه يتهمونـه بالسَّرَف فى شرب الخمر رغـم إقـرارهم بأنـه ثقـة فى روايتـه.

ويعلق طه حسين قائلا: "وأكبر الظن أنه كان يؤجر نفسه للقبائل، يجمع لكل واحدة منها شعرا يضيفه إلى شعرائها" (طه حسين/ فى الأدب الجاهلى/ ١٧١)، وهو ما يعنى أن من البشر من يظل يقول: "عنزة" ولو طارت، ومنهم طه حسين، فها هو ذا الشيبانى قد اجتمع خصومه وأنصاره على توثيقه، بيد أن طه حسين لا يعجبه العجب، فيتهم الرجل بأنه كان يؤلف الشعر وينسبه إلى شعراء القبائل التى تدفع له. أما من أين أتى طه حسين بهذا الكلام، فينبغى أيها القارئ أن تخرّ على ما يقوله ساجدا موافقا ولا تسأل مثل هذا السؤال. وعجيب أن يسرف طه حسين فى الشك فى الشعر الجاهلى حتى ليزعم أنه كله تقريبا مصنوع صنعا، حاطبا هكذا فى حبل مرجليوث المستشرق البريطانى الخبيث مع بعض التلاوين التى لا تقدم ولا تؤخر، ثم يصدّق دون أدنى تفكير أو محاولة فى التثبت أية رواية تشكك فى علماء المسلمين، بل يخترع لبعضهم الاتهامات اختراعا كما رأينا فى حالة الشيبانى المسكين!

أيا ما يكن الأمر فإن ما قاله ابن سلام، وهو أكثر المؤلفين العرب القدماء شمولا وتفصيلا فى الحديث عن النحل والانتحال فى الشعر الجاهلى، لا يُعَدّ شيئا إلى جانب ما كتبه المستشرق البريطانى ديفيد صمويل مرجليوث فى بحثه الذى نشره فى عدد يوليه ١٩٢٥م من المجلة الآسيوية الملكية بعنوان

"The Origins of Arabic Poetry"، والـــذى انقض فيه على الشعر الجاهلى ينفيه كله نفيا باتــا لا يقبـــل نقضـــا ولا إبراما، ويتهم العلماء العرب فى العصـــر العباســـى بـــأنهم قـــد صنعوا ذلك الشعر صناعة ولفقوا له أسماء شـــعراء فـــوق البيعـــة. وجاء على إثره طه حسين فردد مقولتـــه تلـــك العجيبـــة حَـــذْوَكَ النعل بالنعل، اللهم إلا بعض الخيوط الرفيعـــة الـــتى لا تُـــذْكَر، إذ كل ما هنالك أنه، فى الوقـــت الـــذى يـــزعم فيـــه مرجليـــوث أن "كل" الشعر الجاهلى منحول زائف، فإن طـــه حســـين يحـــاول أن يبدو مستقلا عن متبوعه فيقول: "جُلّـــه، إن لم يكـــن كلـــه". أمـــا فيما عدا ذلك فقد أخذ طـــه حســـين مـــن المستشـــرق البريطـــانى الموتور أدلته واتجاه بحثه. وعبثا يحاول أنصـــار طـــه حســـين تبرئتـــه والادعاء بأنه لم يأخذ شـــيئا مـــن مرجليـــوث، رغـــم أن الـــدلائل والشواهد جميعها تنطق بأقوى لسان بأنه إنمـــا أغـــار علـــى بحـــث مرجليوث إغارة شاملة، وإن وشّاه بـــبعض التزاويـــق والحـــذلقات التى ظن أنها يمكن أن تغطـــى علـــى ســـرقته. بـــل إن مرجليـــوث نفسه قد اشترك فى اللعبة مدافعا عـــن ناهـــب فكرتـــه زاعمـــا أن البحثين قد صدرا تقريبا فى وقت واحـــد، بينمـــا يفصـــل بينـــهما عشرة أشهر كاملة، كما أن طه حسين فى كـــل مـــا كتـــب قبـــل ذلك التاريخ من مقـــالاتٍ وكُتُـــبٍ كـــان يتحـــدث عـــن شـــعر الجاهلية حديث المطمئن له تمام الاطمئنان. بـــل إنـــه فى آخـــر مـــا

كتب فى هذا الموضوع قبل مرجليوث، وكان ذلك فى الفصل الأول من كتابه: "قادة الفكر"، الذى سبق صدوره صدور بحث مرجليوث بشهرين تقريبا (فى إبريل ١٩٢٥م على وجه التحديد)، قد جعل من الجاهلية وأشعارها أساسًا لحضارة الإسلام، مؤكدا أنه لولا هذه الأشعار وأصحابها ما كان الخلفاء والعلماء والقواد المسلمون. وقد ألحَّ على هذه الفكرة إلحاحًا كبيرًا، فى الوقت الذى ذكر معها شكَّ بعض الباحثين الأوربيين المحدَثين فى وجود هوميروس. وهذا نص عبارته: "عَلاَمَ تقوم الحياة العربية فى بداوة العرب وأول عهدهم بالإسلام؟ على الشعر!... هل كانت توجَد الحضارة الإسلامية التى ظهر فيها مَنْ ظهر مِنَ الخلفاء والعلماء وأفذاذ الرجال لو لم توجَد البداوة العربية التى سيطر عليها امرؤ القيس والنابغة والأعشى وغيرهم من الشعراء الذين نبخسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم؟" (قادة الفكر/ ط٩/ دار المعارف بمصر/ ١٠- ١١).
لكنه ما إن ظهر بحث مرجليوث ووصل إلى أيدى الباحثين والعلماء فى مصر حتى رأيناه ينتكس على رأسه وينقلب مائة وثمانين درجة مرددا عكس ما كان يردده طوال تلك السنين التى أربت على الخمس عشرة سنة منذ أول مقال وجدتُه يتناول فيه الكلام عن الشعر الجاهلى كما وضّحتُ فى بحث لى كتبتُه منذ أكثر من سبع عشرة سنة ونشرته على المشباك منذ

عدة سنوات بعنوان "نظرية طه حسين فى الشعر الجاهلى: سرقة أم ملكية صحيحة؟".

وقد عقدتُ لبَحْثَىْ طه حسين ومرجليوث دراسة مستفيضة قارنت فيها بينهما وانتهيت إلى أن الدكتور طه لم يأت بشىء أساسى غير ما قاله المستشرق البريطانى، وهذه الدراسة متاحة لمن يريدها فى كتابى: "معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين": فكلاهما ينفى الشعر الجاهلى كله، وإن تظاهر طه حسين بأن من الممكن أن يكون بعض ذلك الشعر صحيحا. لكنها صحة نظرية لأنه فى ذات الوقت يحرص على إثارة الريبة فى ذلك الشعر جميعه متحججا بأنه يجرى فى ذلك على الشك المنهجى الذى يُنْسَب للفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت، وهو ما بينت أنه لا أساس له من الصحة، إذ إن طه حسين لم يفهم تلك الفلسفة ولا نجح فى تطبيقها على موضوعه، فقد دخل الساحة وفى ذهنه التشكيك فى الشعر الجاهلى لا لشىء إلا لأن مرجليوث قد شكك فيه، فكان لا بد له بدوره من الشك والتشكيك فى كل ما يتعلق بذلك الشعر كأنه صدى صوت المستشرق البريطانى أو بُوقُ فَمِه، مع الاطمئنان فى نفس الوقت إلى كل نص آخر ما دام يمكن الالتواء به لخدمة فكرته التى سرقها من مرجليوث بمباركة صاحبها كما رأينا. ولو كان يفهم فعلا ذلك الشك المنهجى،

أو على الأقل: لو كان مخلصًا وجادًا فى تطبيقه على بحثه، لوقف من كل النصوص التى بين يديه موقف الاحتراز والارتياب إلى أن يظهر له أنها تستحق الاطمئنان حقا.

كما أن كليهما يهاجم الرواة الشفويين الذين يقول مؤرخو الأدب العربى بوجه عام إنهم هم الذين حفظوا للأجيال التالية أشعار الجاهلية، ويشكك فى مقدرتهم على أداء تلك المهمة. وفى الوقت ذاته ينفى كلاهما أن يكون العرب فى ذلك الوقت على معرفة بالكتابة بحيث يستطيعون أن يسجلوا ذلك الشعر لو كان له فعلا وجود، كى يحفظوه من الضياع. وبالمثل فكل منهما يعتمد فى نفيه لذلك الشعر على اختفاء اللهجات القبلية من قصائده ومجيئه كله فى قالب فصيح مما يشير إلى أن العرب كانوا ينظمون شعرهم قبل الإسلام بلغة واحدة هى اللغة الفصحى، وهذا ما يرفضه كلاهما ويرى أن الفصحى قبل الإسلام لم يكن لها وجود. كما يعتمد كل منهما على خلوّ ذلك الشعر من الموضوعات الدينية، اللهم إلا ما فيه من بعض العقائد والشعائر الإسلامية، وهو ما يدل على أنه إنما صُنِع بعد الإسلام صُنْعًا (انظر د. إبراهيم عوض/ معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين/ مطبعة الفجر الجديد/ القاهرة/ ١٩٨٧م/ ٥٦- ٧٧).

ومع هذا كله يأتي أحمد عبد المعطى حجازى فيفسر شك طه حسين فى الشعر الجاهلى على النحو التالى الذى لا أفهم كيف توصل إليه: "وإذا كان الرواة العرب ينسبون القصائد المعلقات لشعراءَ أفرادٍ كامرئ القيس وطَرَفة بن العبد وعنترة فقد ذهب عميد الأدب إلي أن الشعر الجاهلي منحول، أو هو بعبارة أدق نتاج جماعي يصور حياة الجماعة العربية البدوية ويجسد أخلاقها ويعبر عن نظرتها الخاصة للوجود بلغة طقسية قريبة من لغة الشعائر الدينية التي تصبح فيها الجماعة كيانا واحدا يتوحد فيه الأفراد وتتصل الأجيال"، وهو كلام لم يَدُرْ فى خاطر طه حسين ولا حتى فى الأحلام! إنما هو من أوهام حجازى المضحكة! (انظر مقاله فى "أهرام" الأربعاء ١١ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ - ٧ يونيه ٢٠٠٦م بعنوان "الشعر في حياتنا - الشعر ليس امتيازا خاصا").

ويجد القارئ ردا مفصلا وتفنيدا تاما لكل ما هَرَف به مرجليوث فى الدراسة المطولة التى ألحقتها بترجمتى لبحث ذلك المستشرق (ديفيد صمويل مرجليوث/ أصول الشعر العربى/ ترجمة وتعليق ودراسة د. إبراهيم عوض/ ط٢/ دار الفكر العربى/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م/ ١١٥- ١٦٢). وفى تلك الدراسة بينت أن دعوى مرجليوث القائلة بأن الشعر الجاهلى لم يكن له وجود وأن العرب لم يعرفوا نظم الشعر قبل العصر

الأموى هى دعوى متهافتــة، ويكفــى أن نقــرأ فى ذلــك الشــعر الأموى نفسه الذى لا يشــك فيــه مرجليــوث لحيظــةً إشــارات متكررةً إلى شعراء الجاهليــة بوصــفهم المثــل الأعلــى لشــعراء العصر الأموى، علاوة على حديث القرآن الكــريم المتكــرر عــن الشعر والشعراء، وهو الحديث الــذى لا يمكــن أن يكــون معنــاه الكهانة والكهان كما يزعم مرجليــوث علــى غــير أســاس كــى ينفى معرفة العــرب للشــعر فى ذلــك الوقــت، إذ تحــديت أى إنسان أن يأتينا بأى نــص قــديم يقــول إن كلمــة "الشــعراء" فى ذلك الوقت كانت تعــنى "الكهــان". عــلاوة علــى أن وقــائع التاريخ ورواياته تقول إن الشعراء كــانوا موجــودين بكــل يقــين قبل الإسلام وفى عصر الرسول عليــه الســلام علــى عكــس مــا يريد مرجليوث منا أن نقتنع. وبالمناسبة فقد ســبقه كليمــان هــوار فربط على نحوٍ ما بين الشاعر من جهــة والكــاهن والســاحر مــن جهــة أخــرى (انظــر: **A History of Arabic Literature, PP.7-8**). ثم يزيد الطينَ بِلّــةً أن يــردد أحمــد حسن الزيات هذا السخف، وأن يكون ترديــده لــه فــوق ذلــك ترديد الواثق المطمئن الذى لا يرى فى الأمــر أيــة غرابــة. بــل إن الطريقة التى ردده بها لَتُوهِم من لا يعــرف خبيئــة الأمــر أن هــذا الكلام هو رأيه هو، توصَّل إليه من تلقــاء نفســه. وفضــلا عــن هذا فإنه لم يقدم لنا ما يدل على صحة مــا يقــول (انظــر كتابــه:

"تـــاريخ الأدب العـــربى"/ ٢٨- ٢٩). وعـــودةً إلى مرجليـــوث نقول إنه لمن العجيب أن يأتى باحث فى الشـــعر الجـــاهلى هـــو د. كريم الوائلى فيـــزعم أن المستشـــرق البريطـــانى لا ينكـــر وجـــود ذلك الشعر، بل يؤكد أنه كان موجودا، وكـــل مـــا هنالـــك أنـــه يشك فى الطريقة التى وصل بها إلينـــا، وهـــو مـــا يقلـــب كـــلام مرجليوث رأسا على عقـــب (انظـــر الفصـــل المســـمى: "توثيـــق الشعر الجاهلى" من كتابه: "الشعر الجـــاهلي- قضـــاياه وظـــواهره الفنية" المنشور على المشـــباك). ولا أدرى مـــن أيـــن لـــه بـــذلك الفهم الغريب! أما مسألة اللهجات الـــتى يطـــنطن بهـــا كـــل مـــن مرجليوث وتابعه المصـــرى المتفـــانى فى تعقـــب خطواتـــه الطائشـــة الهائشة الفائشة فيكفى هنـــا فى إدحـــاض مـــا زعمـــاه بشـــألها أن نقول إن القرآن قد ذكر فى أكثر من آية أنه نـــزل بلســـان عـــربى، لا بلهجة قريش أو الحجاز مثلا، مما يبرهن أصـــلب برهـــان علـــى أنه كانت هناك لغة واحدة للعرب جميعا بخلاف مـــا ادعـــاه الاثنـــان بهتانًا ومَيْنًا من أن اللغة العربيـــة لم تصـــبح لســـانا لمـــن نســـميهم بـــــ"العرب" إلا بعد قيام الدولـــة الإســـلامية بـــدءا مـــن عصـــر الرسول صلى الله عليه وسلم. كما أننا لم نسـمع بتاتـــا أن العـــرب فى الجاهلية أو قبل قيام الدولـــة الجديـــدة بعـــد ذلـــك فى عصـــر المبعث كانوا يحتاجون إلى تراجمة بـــين بعضـــهم وبعـــض أو قامـــت عقبة تحول دون تفاهمهم. ثم إننا مـــا زلنـــا حـــتى الآن نســـتعمل فى

حياتنا اليومية لهجات متعددة تختلف عن الفصحى فى أشياء ليست بالهينة، لكننا حين نكتب أو نبدع نترك عادةً هذه اللهجات وراء ظهورنا ونلجأ إلى المستوى الفصيح، فما المشكلة فى هذا؟ بل إنى لأذهب إلى عكس ما يقول به كثير من الباحثين من أن العرب قبل الإسلام بقليل من الوقت نسبيا قد انتهوا إلى اصطناع لهجة قريش فى إبداعاتهم واتخاذها من ثم لغة أدبية لهم جميعا، إذ أرى أن الفصحى كانت موجودة منذ زمن طويل ينحو الخطباء والشعراء منهم نحوها تاركين عندئذ لهجاتهم المختلفة التى كانوا يخصصونها لموضوعات الحياة العادية كما هو الحال فى كل اللغات، وإلا فلو أخذنا بنظرية ارتقاء لهجة قريش عشية بزوغ الإسلام إلى احتلال موقع اللغة القومية للعرب كلهم لكان معنى هذا أن العرب قبل ذلك كانوا يصطنعون لغات مختلفة بعدد قبائلهم، وهو ما يقتضى أن كل قبيلة منهم كانت تمثل دولة مستقلة لها حدودها وقوميتها بحيث لا تتداخل مع أية قبيلة أخرى. وأين ذلك، وكيف، وهم لم يكونوا يستقرون فى موضع واحد قط، بل كانوا دائمى السعى وراء العشب والماء طول العام، والاختلاط من ثم فى كل أرجاء البادية؟ أو أنهم كانت لهم لغة أخرى غير العربية يستعملون فى أمورهم المعيشية لهجاتها المختلفة، تلك اللهجات التى أخذت لهجةُ قريشٍ منها موقعَ الصدارة قرب مجىء الإسلام وأضحت

بذلك لغتهم القومية بدلا من لغتهم الأولى. فهل كان للعرب لغة أخرى غير هذه التى بين أيدينا؟ فما هى تلك اللغة يا ترى؟ وما اسمها؟ وما الدليل على وجودها؟ وفوق هذا فإن أيا من مؤرخيهم أو خطبائهم أو شعرائهم لم يتحدث فى هذا الموضوع بتاتا، بل لم يشر إليه أى باحث مجرد إشارة.

وتبقى مسألة الدين، وفى الشعر الجاهلى إشارات متكررة إلى عدد من مظاهره وشعائره وقتذاك. وأقصى ما قد يمكن أن يقال فى هذا الصدد هو أن الشعر الجاهلى يخلو من القول المفصل فى أمور الدين، وهو ما يمكن أن يفسَّر بأن كثيرا من ذلك الشعر قد ضاع وأن المسلمين لم يجدوا فى أنفسهم ميلا إلى حفظه وترديده. وينبغى ألا ننسى أيضا أن خطب العرب وأمثالهم تخلو مثل الشعر، وربما أكثر من الشعر، من الحديث فى أمور الدين. أما القول بأن ذلك دليل على أنه مصنوع فى الإسلام فنتيجة غير لازمة ولا مسلَّمة، فضلا عن أن القول بها يستلزم أن تكون أمة العرب والمسلمين كلها على بكرة أبيها أمة من المزيِّفين والمتواطئين معهم، أو أمة من الكذابين الوضّاعين من جهة، ومن الأغبياء المغفلين من جهة أخرى حتى ليجوز أن يخترع المخترعون منها شعر عصر كامل وشعراءه فجأة، وكأن الأمة نامت ذات ليلة دون أن يكون هناك شعر جاهلى ولا شعراء جاهليون ثم استيقظت من مرقدها فإذا بين

يديها ذلك الشعر وشعراؤه، ورغم هذا لا يجد هؤلاء المخترعون المزيِّفون من يعقّب على صنيعهم. ثم إن العرب قبل ذلك كله كانوا يعتمدون على ذاكرتهم اعتمادا أساسيا حتى أضحت الذاكرة العربية من كثرة الاستعمال والثقة بها حادة الرهافة. أما الاتهامات التى وُجِّهت إلى بعض الرواة فمن الممكن أن تكون كلاما مرسلا، بل لقد وجدنا بعضها لا يقوم على أساس، أو لا يقوم على الأقل على أساس متين. كما أن قول القرآن الكريم فى خطابه للكافرين: "أم لكم كتاب فيه تدرسون* إن لكم فيه لَمَا تَخَيَّرون؟" (القلم/ ٣٧) ليس معناه أن العرب لم يكونوا يعرفون شيئا عن القراءة والكتابة حسبما زعم مرجليوث بجهله وبهلوانيته، بل الكلام فيه موجه إلى القرشيين وحدهم لا إلى العرب كلهم، إذ كان أهل مكة يسخرون من الجنة ومن المؤمنين بها قائلين إنه إن كان ثمة جنة ونعيم فلسوف يتمتعون رغم ذلك بما فيها من خيرات ولذائذ، فأنكر عليهم القرآن قولهم ذلك متسائلا: أوَفى أيديهم كتاب سماوى يقول بأنهم يوم القيامة سيتمتعون كما يزعمون بنعيم الجنة كالمؤمنين المتقين؟ ولقد أثبت الباحثون من عرب ومستشرقين معرفة العرب للكتابة والقراءة ولجوءهم إليها فى عملية تسجيل الشعر فى غير قليل من الأحيان (انظر فى ذلك مقال كرنكوف: "استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربى القديم"/

من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى"/ ٢٩٢- ٣٠٤، والفصل المطول المستفيض الذى عقده لذلك الموضوع ودعَمه بالشواهد الكثيرة والأدلة القوية د. ناصر الدين الأسد فى كتابه القيم: "مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية"/ دار المعارف/ ١٩٥٦م)... إلخ.

وقد انتهى الأمر بدراستَىْ مرجليوث وطه حسين عند الباحثين المحترمين إلى الانزواء فى دائرة النبذ والإهمال حتى فى نطاق المستشرقين أنفسهم الذين انقض بعضهم على بحث مرجليوث المتهافت السخيف فمزقوا أوصاله وأبرزوا ما فيه من تفكك ومجافاة للمنطق وأصول البحث العلمى، وهو نفس المصير الذى لاقاه كتاب طه حسين رغم القعقعات التى يحاول بعض من يُحْسَبون على الثقافة العربية أن يُحْدِثوها بين الحين والحين تلميعا له جاهلين أن ذلك الكتاب قد مات وشبع موتا منذ ثمانين عاما إثر تتالى الضربات القاضية عليه من أقلام العلماء الأثبات التى كشفت عواره وفضحت ما فيه من خَوَرٍ فكرىّ وركاكةٍ علمية وتسرعٍ أهوجَ إلى نتائج مقررة سلفا لا تؤدى إليها المقدمات التى ساقها صاحبه، وأن ما مات لا يعود للحياة إلا يوم الدين. وبالمناسبة فكثير من النصوص الشعرية التى شكك فيها طه حسين فى كتابه: "فى الشعر الجاهلى" ثم فى

خَلَفه: "فى الأدب الجاهلى" ليست نصوصا جاهليـــة بـــل إســـلامية، وهذا مـــن أعجـــب العجـــب! علـــى أن قولنـــا إن المستشـــرقين الآخرين قد هاجموا نظرِيـــة مرجليـــوث الرعنـــاء فى نفـــى الشـــعر الجاهلى كله لا يعنى أنهم لا يشكون أى شـــك فى ذلـــك الشـــعر. إنهم يشكون، بَيْدَ أن شكهم لا ينسحب على ذلـــك الشـــعر كلـــه، بل على أشياء فيه لا تجعلـــهم يطمئنـــون تمـــام الاطمئنـــان إلى مـــا وصل إلينا منه رغم غربلة علمائنا القـــدامى لنصوصـــه، بـــل رغـــم تنطُّس هؤلاء العلماء فى تلك الغربلة أحيانا أكثر ممـــا ينبغـــى كمـــا أشرت إلى بعض ذلك فيما مضـــى. ويســـتطيع القـــارئ أن يقـــرأ عددا من أبحاث هؤلاء المستشـــرقين فى هـــذا المجـــال فى الكتـــاب الذى صدر للدكتور عبـــد الـــرحمن بـــدوى للمـــرة الأولى عـــام ١٩٧٩م عن دار العلـــم للملايـــين بـــبيروت بعنـــوان "دراســـات المستشرقين حول صحة الشـــعر الجـــاهلى" والـــذى يضـــم ترجمـــة عشرة من أبحـــاث كبـــارهم فى ذلـــك الموضـــوع مثـــل نيلدكـــه وشبرنجر وبلاشير، وقد مرت الإشارة إليه قبل قليل.

ولعل أهم ما تناولوه ووقفـــوا عنـــده مليًّـــا الطريقـــةُ الـــتى كان يُرْوَى بها الشعر الجاهلى عادة، وهـــى الطريقـــة الشـــفوية، إذ فسروا فى ضوئها ما لـــوحظ علـــى نصـــوص ذلـــك الشـــعر مـــن اختلاف فى روايتها تقـــديما وتـــأخيرا وتغـــييرا لكلمـــة أو عبـــارة بكلمة أو عبارة أخرى، أو اختلافٍ فى نسبة نـــص معـــين إلى أكثـــر

من شاعر، أو تداخُل نَصّ لشاعرٍ ما مع نص لشاعر آخر يشترك معه فى الوزن والقافية ويقترب منه فى الموضوع الذى يعالجه... على أساس أن الذاكرة البشرية مهما كانت قوتها لا بد أن يصيبها الوهن والنسيان من حين لآخر، وهو ما يوافق ما قاله هاملتون جيب فى هذا الصدد فى كتابه: " **Arabic Literature,**" (**Oxford University Press, 1974, P.20**). ولا شك أن فى بعض ما قالوه فى هذا السبيل شيئا من الوجاهة، إلا أنه لا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن اختلاف روايات الشعر الجاهلى لا يرجع كله إلى خيانة الذاكرة بالضرورة، بل ربما وردت أكثر من رواية لكثير من نصوصه عن الشاعر نفسه تبعا لاختلاف الأزمنة والظروف التى كان الشاعر يلقى فيها على الجمهور قصائده، إذ من المعروف أن المبدع لا يكف عن معاودة النظر فى إبداعاته والعمل على صقلها كلما واتته الفرصة. وأية فرصة أعظم من أن أشعاره لم يكن يتم تثبيتها كتابة إلا فى أحيان قليلة؟ وإذن فالفرصة مفتوحة له على مصراعيها كى يُدْخِل أى تغيير يريده فى الوقت الذى يشاء. وأنا أفعل ذلك فى مقالاتى ودراساتى المنشورة على المشباك ولم تُثَبَّت بَعْدُ على الورق، إذ بإمكانى كلما أعدت نشر ما كنت قد نشرته فى موقع آخر غير الموقع الأول أن أُدْخِل فيه من التغييرات والتصحيحات ما أشاء

وبمنتهى السهولة. بل إننا، حتى بعد أن يتم تثبيت نص أى كتاب لنا على الأوراق، نستطيع أن نعيد النظر فيه عند التفكير فى طبعه مرة أخرى. فإذا كان هذا يحدث فى أعمالنا المكتوبة، فما بالنا بإبداعات الشعراء الجاهليين التى لم تكن تُكْتَب فى العادة كما قلنا؟ (انظر فى هذا الصدد دراسة هـ. آلفرت: "ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة"/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه المذكور/ ٤١- ٨٦، ودراسة ف. كرنكوف: "استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربى القديم"/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى نفس الكتاب/ ٢٩٢- ٣٠٤، وبحث جيمس مونرو (James Monroe): "Oral Composition in Pre-Islamic Poetry" المنشور فى "Journal of Arabic Literature"/ ١٩٧٢م/ ٣/ ١- ٧، وترجمته العربية لفضل بن عمار العمارى بعنوان "النظم الشفوى فى الشعر الجاهلى"/ دار الأصالة/ الرياض/ ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).

وبطبيعة الحال فإن ضعف الذاكرة وألاعيبها ليست وحدها السبب فيما اعترى الشعر الجاهلى من تغييرات، فلست أحسب أن كل الرواة الذين أدَّوْا إلينا ذلك الشعر كانوا مخلصين أو حريصين على أن يقوموا بواجبهم على النحو

المطلوب، لأنهم فى نهاية المطاف بشر من البشر. وعلى دارس الشعر الجاهلى أن ينظر فى كل قصيدة على حدة وألا يرفضها إلا إذا قام فى نفسه من بواعث الشك ما لا يستطيع الرد عليه، كأن تكون القصيدة إسلامية حقا بحيث لا يمكن توجيهها بأى حال، أو أن يكون فيها من اضطراب التاريخ ما لا يستقيم معه أمرها البتّة. ومن يُرِدْ أن يرى كيف طَبَّقْتُ هذا الاختبار فى دراساتى فباستطاعته مراجعة الفصلين الخاصين بذلك من كتابيَّ: "عنترة بن شداد– قضايا إنسانية وفنية"، و"النابغة الجعدى وشعره". كذلك على الدارس أن يحصر شكه فيما يقبل الشك منها فلا يعمم ذلك الشك دون مسوّغ. وهناك قصائد منسوبة إلى آدم مثلا، ولا أظن عاقلا يصدق أن آدم كان يتكلم فى ذلك الزمن الموغل فى القدم بلسان العرب. صحيح أننا لا نعرف متى بدأ ظهور اللغة العربية ولا متى أضحت لغة لنظم الشعر، إلا أن هذا لا يعنى أن نصدق الشعر المنسوب لأبى البشر بتلك اللغة، فاللغات لا تظهر كاملة مرة واحدة، وآدم إنما يمثل أول فرد فى أول جيل من أجيال البشر على الأرض، فلا يعقل إذن أن تظهر العربية على يديه كاملة الفن وطرائق التعبير وكأنها نزلت من السماء لا ينقصها شىء. إن هذا ضد طبيعة الحياة كما نعرفها، وذلك إن صدّقنا أن

ذلك الجد البعيد كان يتحدث لغـة مـن اللغـات الـتى نعرفهـا أصلا!

أعود فأُبَلْوِر مـوقفى مـن قضـية النحـل والانتحـال فى الشعر الجاهلى فأقول إن هناك بلا شك شـعرا جاهليـا منحـولا، إلا أننى لا أتوسع فى ذلك ولا حـتى توسـع ابـن سـلام، الـذى يبدو (بالقياس لبعض البـاحثين المحـدثين) مـن المعتـدلين إلى حـد بعيد. ذلك أن الأسباب التى استند إليهـا البـاحثون فى الشـك فى الشعر الجاهلى ليسـت دائمـا بالأسـباب القويـة الـتى تجعلـنى أتشكك فى هذا الشعر على ذلك النطـاق الواسـع الـذى يريـده طه حسين مثلا، أو حتى على النطاق الذى كان يتحـرك فيـه ابـن سلام حسبما وضحتُ فيما سبق من هذا الفصل. ومـن هنـا فـإنى أميل إلى القول بأن باحثا كبيرا كالدكتور شـوقى ضـيف لم يقـدم دائما المسوغات الكافيـة فى رفـض عـدد مـن قصـائد الشـعر الجاهلى، وأن السبب فى ذلك هو امـتلاء نفسـه بهـاجس النحـل والانتحال رغم وقوفه فى ذات الوقت فى وجه مـن يريـدون إثـارة عواصف الارتياب وأعاصيره فى ذلك الشعر: فمـثلا نـراه، رحمـه الله، يشك شكا شديدا فى قصيدة النابغة الـذبيانى: "بانـت سـعاد وأمسى حبلها انجذما" لأنها، كمـا يقـول، "نسـيب خـالص ولأن بها روحا إسلامية تتضح فى قوله مخاطبا صاحبته:

حيّاكِ ربى؛ فإنا لا يحل لنـا … لهو النساء، وإن الدين قد عَزَما
مشمِّرِيـن على خُوصٍ مزنَّمةٍ … نرجو الإله ونرجو البر والطُّعَما

رغم أنها من رواية الأصمعى كما ذكر هو نفسه (العصر الجاهلى/ ٢٧٨). ولست أشاطر الأستاذ الدكتور شكه الشديد فى القصيدة، فإن مجيئها نسيبا خالصا لا يُعَدّ مسوِّغا لرفض نسبتها إلى الشاعر ضربة لازب، وإلا فهل عنده دليل على أن النابغة لا يمكن أن يقول شعرا خالصا فى النسيب؟ كما أن البيتين اللذين يصفهما بأنهما ذوا روح إسلامية لا يتّسمان فى حقيقة الأمر بشىء إسلامى حَصْرًا، إذ الكلام فيهما عن الإله والدين بعامة، وهو كلام يصدق على كثير من الأديان. وحتى لو كانا إسلاميين حقا وصدقا، فإن ذلك ليس بالسبب الكافى لرفض القصيدة كلها، بل لرفض البيتين فحسب. وهو نفسه لم يردّ بيتين لزهير بن أبى سلمى يؤمن فيهما باليوم الآخر والحساب ويؤكد معرفة الله تعالى بغيب النفوس واطلاعه المطلق على كل شىء (المرجع السابق/ ٣٠٣)، فهذا من هذا. ولا ننس أن النابغة كان يتردد على بلاط الحيرة والغساسنة، وكان ملوكهما نصارى. بل إن فى شعره، كما نعرف، كلاما عن بعض الأعياد والاحتفالات النصرانية.

وبالمثل نجد الأستاذ الدكتور ينكر صحة قصيدة الأعشى الدالية التى تقول كتب الأدب إنه كان قد أعدها لمدح الرسول عليه السلام قبل أن تلقاه قريش وتصده عن الذهاب إليه وإعلان الإيمان به، والتى تتضمن بعض التعاليم الإسلامية

والعبارات القرآنية، بحجة أنها "لا تتفق فى شىء ونفسية الأعشى"، وأنه لا يمكن أن "يؤمن بتعاليم القرآن على هذا النحو ثم ينصرف عن الرسول وهديه" حسب تعبيره (السابق/ ٣٤٢). يشير الاستاذ الدكتور إلى ما تحكيه كتب الأدب من أن الأعشى أعد العدة للوفادة على النبى عليه السلام وهو لا يزال فى مكة وجهّز فى مدحه قصيدة يقولها عند لقائه، إلا أن قريشا ما إن علمت بهذا الذى كان ينتويه حتى سارعت بمقابلته وعملت على تنفيره من الدين الجديد وصاحبه، فرجع من طريقه دون أن يفد عليه صلى الله عليه وسلم، ثم تتابعت الحوادث حتى مات ولم يدخل فى الإسلام. لكنْ من قال إن الأعشى كان فى خاطره الانصراف عن الرسول انصرافا نهائيا؟ ربما انصاع لكلام القرشيين ريثما تتاح له فرصة أخرى، أو ربما ضعف أمام ما أعطَوْه من مال فأخذه وانصرف مؤقتا انتظارا لظروف أفضل يستطيع أن يعلن فيها إسلامه دون خوف من ضغط أو إحراج. والناس ليسوا سواء فى قوة التمسك بما يؤمنون به، ولا كُلّهم على استعداد للبذل والتضحية العنيفة، ولا من طبيعتهم جميعا المسارعة إلى تنفيذ ما ينوون عمله. وعندى أن تفسير موقف الأعشى بذلك أقوى فى الإقناع من إنكار نسبة القصيدة له والقول بأنها منحولة. وثمة أمثلة أخرى كثيرة يسارع فيها الدكتور شوقى إلى إعلان شكه فى هذه

القصـــيدة أو تلـــك دون أن تكـــون التســـويغات الـــتى يســـوقها مُرْضيةً للعقل، ولكنى أكتفـــى بهـــذين المـــثلين دلـــيلا علـــى أنـــه، ككثير من الباحثين العـــرب، قـــد امـــتلأ قلبـــه بهـــاجس النحـــل والانتحال أكثر مما يصح رغم أنه قد رد هجـــوم مرجليـــوث وطـــه حسين وبلاشير على الشعر الجاهلى وبـــيّن مـــا فى ذلـــك الهجـــوم من مغالاة لا تستقيم ومنطـــق الأشـــياء (الســـابق/ ١٦٦- ١٧٥)، وإن لم يَعْنِ هذا بطبيعة الحـــال أن كـــل القصـــائد الـــتى ردهـــا أو أبدى شكه فيها لا تستحق هذا الشك أو ذلـــك الـــرد. خلاصـــة القول إن فى الشعر الجـــاهلى شـــعرًا صـــحيحًا، وهـــو الأغلبيـــة الكبيرة، وفيه إلى جانب هذا شعر منحـــول أيضـــا، إلا أن المنحـــول ليس بالكثرة ولا الاتساع الذى تـــوحى بـــه عـــادةً كتابـــاتُ مـــن كتبوا فى ذلك الموضوع.

هذا، ويلفت النظر فى الشـــعر الجـــاهلى أن عـــدد شـــعرائه كبير هائل: منهم المشهور الطائر الشهرة كـــامرئ القـــيس وعنتـــرة والأعشى وزُهَيْر بن أبى سُـــلْمَى والنابغـــة الـــذُّبْيَانى وعمـــرو بـــن كلثوم وطَرَفة بن العبد وزرقاء اليمامـــة، ومنـــهم مـــن لا يحظَـــوْن بشىء من الشهرة كأبى حذيفة وأعصر بـــن ســـعد وأوس الهجيمـــى وجناب بن منقذ وســـبيع التميمـــى وأرطـــأة الفـــزارى وابنـــة أبى الجدعاء وكسرة بنت دوشن وجمـــل الســـلمية وزهـــراء الكلابيـــة وسُعْدَى الأسدية، ومنهم من كان بين ذلك قَوَامًا مثـــل عَبِيـــد بـــن

الأبرص والمهلهل بن ربيعة وعلقمة الفحل والمرقش الأكبر ولَقِيط بن يَعْمُر وعروة بن الورد وتأبَّطَ شرًّا والشَّنْفَرَى وعمرو بن قميئة وسلامة بن جندل وعبد يَغُوث الحارثى وكعب بن الأشرف النَّضَرىّ وجليلة بنت مُرَّة وليلى العفيفة. ومنهم أصحاب المطوَّلات، ومنهم من لم يصلنا عنهم إلا مقطوعاتٌ أو نُتَفٌ أو أبياتٌ مفردة. ومنهم كذلك أصحاب الدواوين، ومنهم من لهم عدد صغير من القصائد والمقطوعات، ومنهم من ليس لهم إلا بعض أبيات أو أقل من ذلك. ومنهم من كان يَنْظِم فى أناةٍ ورَيْثٍ ويعيد النظر فى ما ينظمه قبل أن يذيعه فى الناس حتى ليقول ابن قتيبة فى "الشعر والشعراء" إن زهيرا كان ينفق فى إبداع القصيدة الواحدة وقتا طويلا، وإن الحُطَيْئَة (من الشعراء المخضرمين)، وسُوَيْد بن كُرَاع وعَدىّ بن الرقاع (من شعراء بنى أمية) كانوا يتخذونه مثلا لهم يحتذون طريقته وينقّحون شعرهم قبل أن يذيعوه تنقيحا شديدا كما كان يصنع. ومنهم فى المقابل من لم يكن يعكف كل هذا الوقت الطويل على تهذيب ما ينظم بل كانوا يميلون إلى إذاعة ما يبدعون من شعر على الجمهور بمجرد ما يفرغون من نظمه، وهؤلاء يُسَمَّوْن: "أصحاب الطبع"، وهو ما تناوله الجاحظ فى كتابه: "البيان والتبيين"... وهكذا. ومن أولئك الشعراء من كان ملكا أو أميرا أو شيخ قبيلة كامرئ القيس والمهلهل

والأفوه الأودى وأبى قيس بن الأسلت وحاتم الطائى، ومن كان فارسا كسلامة بن جندل وعلقمة الفحل وقيس بن الخطيم وعبدة بن الطبيب وأُحَيْحَة بن الجلاح، ومن كان حكيما كأميّة بن أبى الصلت وقس بن ساعدة، ومن كان صعلوكا كتأبَّطَ شَرًّا والسُّلَيْك بن السُّلَكة، ومن كان عبدا كعنترة بن شداد وسُحَيْم عبد بنى الحسحاس (وهو جاهلى إسلامى)، ومن كان يتخذ من المديح مرتزَقا كالنابغة والأعشى والمنخَّل اليشكرى وأبى زبيد الطائى...

ولم يترك شعراء الجاهلية موضوعا من الموضوعات إلا ونظموا فيه، فشَعَروا فى المدح والفخر والهجاء والرثاء والحماسة والوصف والخمر والنسيب والغزل والأطلال والرحلة والقصة والتمرّد على أعراف القبيلة والتجارب الشخصية والحكمة ومفارقات الحياة. أى أنهم قد نظموا أشعارهم فى الأمور الاجتماعية والشخصية على السواء، وذلك على عكس ما يردده بعض الدارسين من أن الشعر الجاهلى كان شعرا غَيْرِيًّا لا يعدو الشاعر فيه أن يكون ناطقا بلسان الجماعة، وكأن شخصيته قد أُلغِيَتْ إلغاءً (ممن تناول هذه المسألة وقال بذلك القول المستشرق البريطانى جب فى كتابه: "Arabic Literature", P.28)، إذ زعم أن غالبية شعراء الجاهلية كانوا يعبرون عن الأفكار والمشاعر الجماعية

أكثر مما يعبرون عن شخصياتهم الفردية. وقد ردد كذلك هذا القول د. عبده بدوى فى كتابه: "الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى"/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ١٩٨٨م/ ٣٩). وعلى هذا فقد صور لنا شعراء الجاهلية فى قصائدهم ومقطوعاتهم المجتمع العربى فى زمنهم، فذكروا الأماكن التى كانوا يترددون بينها أو يُلِمّون بها من مدن أو عيون ماء أو جبال وتلال أو بوادٍ، كما أوردوا أسماء قبائلهم ومشاهير الرجال بينهم، سواء كانت شهرتهم بسبب فروسيتهم وشجاعتهم فى الحروب أو بسبب كرمهم وأَرْيَحيَّتهم أو بسبب بخلهم أو بسبب استبدادهم أو بسبب حكمتهم أو بسبب ما اشتهروا به من شعرٍ أو خُطَب... وبالمثل تحدثوا عن كثير من الأحداث المهمة فى تاريخهم القريب والبعيد، وتناولوا بالذكر أنسابهم، وأوردوا بعض طقوس دينهم وأسماء أصنامهم، ورسموا كثيرا من عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ومثلهم العليا، وتحدثوا عن مناخ بلادهم من حَرّ وبَرْد وبَرَد ومطر وسيول وريح وغمام، ووصفوا أشجارها ونباتاتها وينابيع مياهها وحيواناتها وطيورها الوحشية والإنسية، وقدموا لنا كثيرا من التفاصيل عن الأوهام التى كانوا يتوهمونها والمهن التى كانوا يمتهنونها والهوايات التى كانوا يمارسونها ويقضون بها وقت فراغهم من حجامة وكهانة وزراعة ورعى وصيد وحدادة وتجارة ولعب

ولهو، كما تتضمن أشعارهم كثيرا جدا من أسماء الأعلام لديهم ذكرانا وإناثا.

وهذا يجرّنا إلى ما ادعاه د. طه حسين تسرعًا ودون تثبُّت فى كتابه: "فى الأدب الجاهلى" من أن الشعر العربى المنسوب إلى الجاهلية لا يصور الحياة العربية قبل الإسلام، وأننا إذا أردنا التماس تلك الحياة فعلينا بالقرآن، أما الشعر الجاهلى فهو شعر مزيف موضوع بعد الإسلام وَضْعًا، ومن ثم فإنه لا يفيدنا بشىء فى هذا المجال (فى الأدب الجاهلى/ ٧٠- ٨٠، وفى مواضع أخرى متناثرة من الكتاب). إنه يقول مثلا إن الشعر الجاهلى يخلو من الحديث عن النصرانية، مع أن هناك كلاما متكررا عن الرهبان والصلبان وبعض المناسبات النصرانية مما ينقض كلامه نقضا. كذلك يزعم الدكتور طه أن شعراء الجاهلية سكتوا فلم يذكروا الروم والفرس بشىء، بينما هناك مثلا قصيدة امرئ القيس الرائية التى يتحدث فيها عن رحلته إلى القسطنطينية وبعض المواطن التى مر بها هو ورفيقه، وكذلك قصيدة لقيط بن يعمر التى يحذر فيها قومه والعرب كلهم مما يدبره لهم كسرى من جيش يجهزه لغزو بلادهم واستذلالهم، وقصيدة الأعشى التى يتغنى فيها بانتصار العرب على الفرس فى يوم ذى قار. وعلى نفس الشاكلة يمضى طه حسين فيقول إن ما نظن أنه شعر جاهلى لم يتناول المشكلة

الطبقية، فى الوقت الذى يتضمن هذا الشعر فعلا صفحات كثيرة سطرها الشعراء الصعاليك، وهم الشعراء الذين خرجوا على قبائلهم وكونوا فى منقطعات البادية عصابات تغير على القوافل والأغنياء ثم يوزعون ما يحرزونه بهذه الطريقة على أنفسهم بالسويّة. كما أن تمدُّح الشعراء الأغنياء آنذاك بما كانوا يُسْدُونه إلى الفقراء والبائسين من حولهم هو لون آخر من تصوير هذا الجانب الذى يزعم طه حسين أننا نفتقده فى شعر الجاهلية. أما أن ذلك الشعر لا يُفيض فى القول إلا حين يتناول البادية، بخلاف حياة المدن التى لم يمسها إلا مَسًّا رفيقا كما يقول، فهذا أمر طبيعى. ذلك أن بلاد العرب أوانذاك كانت تغلب عليها البداوة غلبة عنيفة، إذ إن معظم أرضها، كما هو معروف، صحراء قاحلة. وثمة دراسات كثيرة يتناول كل منها هذا الجانب أو ذاك من جوانب الحياة الجاهلية بما يكذّب مقالة طه حسين، الذى كان لا يزال حديث عهد بالعودة من فرنسا حين كتب ما كتب فى هذه القضية، فكان يظن أنه جمع العلم من كل أطرافه رغم أنه لم يتخصص فى فرنسا فى الأدب العربى، بل فى تاريخ الإغريق والرومان، علاوة على أن الدكتوريّة التى أحرزها هناك إنما هى دكتورية السلك الثالث لا دكتورية الدولة التى تُعَدّ دكتوريّة حقيقية كاملة.

ومن هذه الدراسات تلك الأبحاث الرصينة التى رد بها العلماء الكبار على طه حسين لدى صدور كتابه الخديج: "فى الشعر الجاهلى" من أمثال مصطفى صادق الرافعى ومحمد لطفى جمعة ومحمد فريد وجدى ومحمد الخضر حسين ومحمد أحمد الغمراوى، وكذلك سلسلة المقالات التى كتبها د. أحمد أمين فى مجلة "الثقافة" تحت عنوان "جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى" وأكد فيها أن الأدب الجاهلى هو فى الواقع صورة صادقة لحياة العرب فى الجاهلية. ومنها أيضا الفصول التى خصصها كل من السباعى بيومى ود. شوقى ضيف ود. على الجندى، وعبد الله عبد الجبار مع محمد عبد المنعم خفاجى، لهذا الموضوع فيما وضعوه من كتب عن العصر الجاهلى، وكتابا د. أحمد الحوفى عن الحياة والمرأة فى شعر الجاهلية، وكتاب د. يوسف خليف عن شعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى، وكتاب د. سيد حنفى حسنين عن الفروسية فى ذلك العصر أيضا، فضلا عن الكتب والفصول الأخرى التى خصصها أصحابها للحديث عن الحكمة أو الحرب أو النسيب أو الحيوان أو النجوم أو الأنواء أو الخمر أو السُّود فى الشعر الجاهلى... إلخ. وقبل ذلك لدينا كتاب "الأصنام" لابن الكلبى، وهو يضم عددا غير قليل من الشواهد الشعرية المتعلقة بالأصنام وبيوتها وعبادة العرب لها، و"الأغانى" لأبى الفرج

الأصفهانى، الذى يتضمن كثيرا جدا من أخبار العرب فى الجاهلية ووقائعهم وحكاياهم مرفقةً بما يرتبط بها ويصورها من أشعار. وفى "معجم البلدان" وأشباهه من المعاجم ثروة شعرية هائلة تفوق الحصر فى وصف المواطن المختلفة فى جزيرة العرب من وديان وجبال وشعاب ومياه وقرى وذكْر أسمائها وتحديد مواقعها. وصدق جرجى زيدان إذ يقول إن عرب الجاهلية قد صوروا "عاداهم وحيواناهم وأدواهم فى أشعارهم كما صورها المصريون والأشوريون واليونان والرومان على قصورهم ومعابدهم. وكما استخرج علماء الآثار عادات تلك الأمم وأخلاقها من آثارها المنقوشة أو المحفورة فالباحث فى شعر الجاهلية يستخرج منه عادات العرب وآداهم وأخلاقهم وطبائعهم وسائر أحوالهم. ولذلك قال ابن خلدون إن الشعر ديوان علوم العرب وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلٌ يرجعون إليه فى الكثير من علومهم وحكمهم. ونزيد على ذلك أنه مستودع عاداهم وأخلاقهم وأدواهم وصنائعهم" (جرجى زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقى ضيف/ دار الهلال/ ١/ ٨١). وهذا هو نيكلسون يقول مثلا إن الشعر الجاهلى يفيض بالدراسات الدقيقة التى تتعلق بعالم الحيوان، ومن الممكن وصفه بأنه عبارة عن نقد للحياة والفكر

عند العـــرب قبـــل الإســـلام (انظـــر كتابـــه: **A History of Arabic Literature, PP.78- 79**).

ومن القضايا المهمة التى تتعلق بالشعر الجـــاهلى أيضـــا بنـــاء القصيدة. ولعل أول من افتـــتح الكتابـــة فى هـــذا الموضـــوع مـــن مؤرخى الأدب ونقاده هو ابـــن قتيبـــة، الـــذى قـــال فى كتابـــه: "الشعر والشعراء": "سمعت بعض أهـــل الأدب يـــذكر أن مُقَصِّـــد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِّمَن والآثـــار، فبكـــى وشـــكا وخاطب الرَّبْع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك ســـببًا لـــذكر أهلـــها الظاعنين عنها، إذ كان نازلـــةُ العَمَـــد في الحلـــول والظعـــن علـــى خلاف ما عليه نازلة المَدَر لانتقالهم عن مـــاءٍ إلى مـــاءٍ وانتجـــاعهم الكلأ وتتبعهم مســـاقط الغيـــث حيـــث كـــان. ثم وصـــل ذلـــك بالنسيب، فشـــكا شـــدة الوجـــد وألم الفـــراق وفـــرط الصـــبابة والشوق ليُميل نحوه القلوب ويصرف إليـــه الوجـــوه وليســـتدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريـــبٌ مـــن النفـــوس لائـــطٌ بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبـــة الغـــزل وإلـــف النساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقًـــا منـــه بســـببٍ، وضاربًا فيه بسهمٍ حلالٍ أو حرامٍ. فإذا علم أنه قـــد اســـتوثق مـــن الإصغاء إليه والاستماع لـــه عقَّـــب بإيجـــاب الحقـــوق فرحـــل في شعره وشكا النَّصَب والسهر وسُرَى الليل وحَـــرّ الهجـــير وإنضـــاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قـــد أوجـــب علـــى صـــاحبه حـــق

الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزّه للسَّمَاح وفضّله على الأشباه وصغّر في قدره الجزيل. فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعَدَل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر، ولم يُطِل فيُمِلّ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأٌ إلى المزيد... وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزلٍ عامرٍ أو يبكي عند مَشِيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي، أو يرحل على حمارٍ أو بغلٍ ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يَرِد على المياه العِذَاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جَرَوْا على قطع منابت الشيح والحَنْوة والعَرَارة".

وأول ما ينبغي التنبيه إليه هو أن الملاحظة السابقة ليست من بُنَيّات عقل ابن قتيبة على عكس ما هو شائع، إذ هو مجرد حاكٍ لها كما جاء فى بداية كلامه، وإن كان يُفْهَم من نهاية النص أن الرأى الذى يقول بأنه لا يحق للمتأخر من الشعراء أن يخرج على ما قرره السابقون منهم هو رأيه هو. فإن كان الأمر كذلك فمعناه أنه قد وقع دون أن يدرى فى شىء من التناقض، فقد قال فى مقدمة كتابه ذاك فى سياق الحديث عن الشعراء

الذين ترجم لهم فيه والأساس الذى استند إليه فى الحكم على مرتبة كل منهم: "ولم أسلك، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارًا له، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره. ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدُّمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخُّره. بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كُلاً حظه، ووفَّرتُ عليه حقه. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيَّره، ويرذِّل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله! ولم يَقْصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خصّ به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثًا في عصره، وكل شريف خارجيةً في أوله. فقد كان جريرٌ والفرزدق والأخطل وأمثالهم يُعَدّون مُحْدَثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المُحْدَث وحَسُن حتى لقد هممت بروايته. ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون مَنْ بعدهم لِمَنْ بعدنا كالخُرَيْميّ والعتّابي والحسن بن هانئ وأشباههم. فكل من أتى بحَسَنٍ من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه، ولم يَضَعْه عندنا تأخُّر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه. كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه". ومعنى

هذا أنه لا فضل للمتقدمين من الشعراء على التالين لهم، فلماذا يحرّم ابن قتيبة على هؤلاء إذن أن يخرجوا على ما قرره أولئك ونهجوا سبيله إذا كان الفريقان موهوبين كلاهما ولا يتفاضلان بهذا الاعتبار؟ كما أن الحياة لا تعترف بهذا التضييق الذى يريد بعض الناس أن يلزموا أنفسهم وغيرهم أيضا به، بل تتسع لألوان كثيرة مختلفة من الأذواق والمعايير، وبخاصة فى ميدان الفنون والآداب. وما دام الله سبحانه لم يجعل العقل والذوق والوجدان والإبداع قصرا على قوم دون قوم ولا على جيل دون جيل ولا على أمة دون أمة، فلماذا اشترط ابن قتيبة على اللاحقين من الشعراء أن يلغوا شخصياتهم الفنية ويحطبوا فى حبل من تقدمهم من نظرائهم؟

على أن الذى يهمنا من هذا النص حقا هو ما جاء فيه من أن تلك هى السبيل التى كان ينتهجها دائما أصحاب القصائد، وهو ما لا يوافقه الواقع، إذ هناك قصائد جاهلية كثيرة جدا لم يجر فيها ناظموها على هذه الخطة، بل تراهم يدخلون فى موضوعهم مباشرة، أو يستهلون شعرهم بشىء آخر غير الوقوف على الأطلال: كالنسيب مثلا كما فى قول المسيّب بن عَلَس:

كَلِفْتُ بِلَيْــلَى خَدِينِ الشبــا ... بِ وَعالَجْتُ منها زَمانًا خَبَالا

أو الحديث عن فراق الحبيبة لانتقالها مع قبيلتها إلى منزل آخر كما فى قصيدة بشامة بن الغدير التى مطلعها:

إن الخليط أجَدّ البَيْن فابتكروا لنيّة ثم ما عاجوا وما انتظروا

(وهو ما يمكن تسميته بـ"مقدمة الفراق" أو "المقدمة الفراقية")، أو بالحديث عن السهاد ومراعاة النجوم ومقاساة الأرق والقلق (وهو ما أُطْلِق عليه: "المقدمة السُّهْدِيّة")، ومنه قصيدة النابغة المشهورة: "كلينى لهمٍّ يا أُمَيْمَـةُ ناصب" وقصيدة عروة بن الورد: "أرِقْتُ وصُحْبَتِى بمَضِيقِ عمقٍ" وقصيدة الممزق العبدى:

أَرِقْتُ فَلَم تَخْدَع بِعَيْنَيَّ وَسْنَةٌ وَمَن يَلقَ ما لاقَيْتُ لا بُدَّ يَأْرَقِ

أو بالرد على عتاب زوجته له على ما يهينه من مال على الفقراء والمساكين مما ترى أن البيت أولى به كما هو الحال فى بعض قصائد حاتم الطائى، أو على تركه بيته وأسرته والانطلاق فى الأرض كما فى بعض أشعار عروة بن الورد، أو على احتفاظه بفرسه رغم حاجة البيت إلى ثمنه كما فى قصيدة ابن المضلّل:

باتَت تَلُومُ عَلى ثادِقٍ لِيُشْرَى فَقَدْ جَدَّ عِصيانُها

(وهو ما نستطيع أن نَسمه مثلا بـ"المقدمة العتابية")، أو بوصف الخمر مثلما هو الأمر فى معلقة عمرو بن كلثوم التى يبدؤها بالحديث عن الخمر ثم يخرج منه إلى الفخر بنفسه وبقومه والتحدى للملك الحِيرىّ الذى ظن أن بمكنته النيل من

كرامة الشاعر وأمه فكان فى ذلك حتفه الـوَحيّ، ثم لا شـىء فى القصيدة بعد ذلـك، أو بالتحسـر علـى أيـام الشـباب الـتى انصرمت ولم يعد لها من رجوع كما فى قصيدة علقمـة بـن عبـدة التميمى: "طَحَا بكَ قلبٌ فى الحِسَان طَرُوبُ"... وغـير ذلـك مـن الابتداءات، وإن كان افتتاح القصـيدة بـالوقوف علـى الطلـل أشهر من غيره من الافتتاحات.

وحتى إذا وقف الشعراء على الأطلال فـإن كـثيرا منـهم لا يعقبون ذلك بالرحلة لا للممـدوح ولا لأى شـخص آخـر، بـل كثيرا ما لا يكون هناك ممدوح البتة، كما هـو الوضـع فى معلقـة عنترة والملك الضِّلِّيل مثلا. كـذلك فكـثير مـن هـذا الشـعر لا يزيد على أن يكون تصويرا لتجربة ذاتيـة حقيقيـة أو متوهَّمـة لا صلة بينها بتاتا وبين الأغراض الشعرية التقليديـة ولا البنـاء الفـنى الذى تحدث عنه ابن قتيبة بأى حال، ومـن ذلـك بعـض أشـعار الشَّنْفَرى التى يصف فيها لقاءه بـالغول وعراكـه معهـا. واضـحٌ إذن أن ما قاله ابن قتيبة لا يقتصر على شعر المـديح، بـل يقـع فى شعر المديح وفى غيره. وحتى فى شعر المـديح فإنـه لا يقـع عليـه كله بل على بعضه فقط. أى أن مـا يحسـبه كـثير مـن البـاحثين نظاما صارما يتبعه الجاهليون والقدماء عمومـا فى بنـاء القصـيدة لم يكن فى الحقيقة كذلك، بل كان يراعَى فى بعـض قصـائد المـديح وحَسْب، لكنه لا يقتصر عليها بل يَشْـرَكها فى ذلـك كـثير مـن

القصائد غير المدحية أيضا كمعلقة امرئ القيس التي يتناول فيها مغامراته اللاهية مع النساء ويصف الحصان والسحاب والسيل، وكمعلقة طرفة التي يستهلها بالوقوف على أطلال خَوْلة رغم أنها ليست في المديح ولا حتى في الهجاء أو الرثاء أو أي موضوع من موضوعات الشعر التقليدية، بل في التعبير عن التمرد على التقاليد والحيرة في فهم الحياة، وكمعلّقة عنترة بن شداد التي يفخر فيها بشجاعته وفروسيته أمام حبيبته ويرسم صورة حانية لأدْهَمه الذي اشتكى له حَرّ القتال وود لو يستطيع أن يرفع صوته بالكلام الواضح المبين كما يفعل البشر لولا عجزه عن التعبير اللغوي المقصور على أولئك البشر... وقد كان د. شوقي ضيف أكثر دقة وحذرا في حديثه في هذا السياق عن أسلوب الشعراء الجاهليين في نظم قصائدهم، إذ قرر أنهم "كانوا يحرصون في كثير من مطولاتهم منذ العصر الجاهلي على أسلوب موروث فيها، إذ نراها تبتدئ عادة بوصف الأطلال وبكاء الدِّمَن ثم تنتقل إلى وصف رحلات الشاعر في الصحراء، وحينئذ يصف ناقته التي تملأ حسه ونفسه وصفا دقيقا فيه حذق ومهارة، ثم يخرج من ذلك إلى الموضوع المعين من مدح وهجاء أو غيرها. واستقرت تلك "الطريقة التقليدية" وثبتت أصولها في مطولاته الكبرى على مر العصور" (د. شوقي ضيف/ الفن ومذاهبه في الشعر العربي/ ط٨/ دار

المعارف/ ١٨). فهو، كما نرى، يقول إنهم كانوا يفعلون ذلك فى كثير من مطوّلاتهم لا فيها كلها ولا فى المدائح منها فحسب. وهذا أقرب إلى الواقع (كما أشرنا قبل قليل) مما جاء فى نص ابن قتيبة آنفا، هذا النص الذى فهمه نيكلسون على حرفيته فأساء الفهم والتقدير، إذ كتب زاعما أن الشاعر الجاهلى لم يكن أمامه أى اختيار فيما يخص النظام الموسيقى للقصيدة العربية أو فى اختيار موضوعاته وأسلوب معالجتها، ولم يكن يجرؤ من ثم على الخروج على شيء من ذلك، وإن عاد فاستثنى بعض الحالات من هذه "التقاليد الجامدة" على حد تعبيره (انظر كتابه: **A History of Arabic Literature, PP.77-78**).

ومن القضايا المتعلقة بالشعر الجاهلى كذلك ما قيل عن مكانة الشاعر فى ذلك العصر، فقد ذكر ابن رشيق فى "باب احتماء القبائل بشعرائها" من كتابه: "العمدة فى محاسن الشعر وآدابه": "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائلُ فهنأتها، وصُنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان لأنه حمايةٌ لأعراضهم، وذَبٌّ عن أحسابهم، وتخليدٌ لمآثرهم، وإشادةٌ بذكرهم. وكانوا لا يهنئون إلا بغلامٍ يولَد أو شاعرٍ ينبغ فيهم أو فرس تُنْتَج". وقد أخذ مؤرخو الأدب العربى يستشهدون

بهذه العبارة على أنها أمر مفروغ منه وأن ما ورد فيهـــا إنمـــا كـــان يقع حرفيا. ومن هؤلاء جلال الدين الســـيوطى (المُزْهِـــر فى علـــوم اللغـــة والأدب/ القـــاهرة/ ١٣٣٥هـــــ/ ٢/ ٢٩٣)، وجرجـــى زيـــدان (تـــاريخ آداب اللغـــة العربيـــة/ ٨٣)، والشـــيخ أحمـــد الإسكندرى والشيخ أحمـــد العنـــانى (الوســـيط فى الأدب العـــربى وتاريخـــه/ ٥٩)، ورينولـــد نيكلســـون (A History of Arabic Literature, P. 71)، وأحمـــد حســـن الزيـــات (تاريخ الأدب العـــربى/ ٤٤)، والســـباعى بيـــومى (تـــاريخ الأدب العربى- فى العصر الجـــاهلى/ مكتبـــة الأنجلـــو المصـــرية/ ١٤٢)، ود. على الجنـــدى (فى تـــاريخ الشـــعر الجـــاهلى/ دار المعـــارف/ ٢٧٤)، وك. أ. فـــارق (K. A. Fariq, History of Arabic Literature,Vikas Publications, Delhi- Bombay- Bangalore- Kanpur- London, P.43)... إلخ. علـــى أنى، رغـــم ذلـــك كلـــه، لا أحسب أن هذا كان يقع حرفيا كما جـــاء فى كـــلام ابـــن رشـــيق، بل المقصود أن العرب كانوا يتفاخرون بشـــعرائهم كمـــا يتفـــاخر أى منا بما تمتاز به أسرته أو قريته أو مدينتـــه أو جامعتـــه أو وطنـــه أو أمته، لا أن الحفلات كانت تقام فعلا ويلعـــب النســـاء بـــالآلات الموسيقية وما إلى ذلك، إذ لم يقابلنا خبر واحـــد عـــن قبيلـــة معينـــة احتفلت بأحد شعرائها على هذا النحـــو، إنمـــا هـــو كـــلام عـــام مرسل، علاوة على أن أحدا لم يقل هذا القول قبـــل ابـــن رشـــيق،

وهو متأخر، إذ هو من أهل القرن الرابع الهجرى، فأين كان ذلك الكلام قبله؟ لقد كانت مكانة الشاعر الجاهلى بين قبيلته مكانة كبيرة بلا شك، وهذا كل ما أفهمه من نص ابن رشيق لا أكثر، إذ كان هو المحامى عن أعراضها والمذيع لمفاخرها والمالئ وقت فراغها بما ينشدها من شعر معجب يسليها ويمتعها والمحرك لمشاعرها والعازف على أوتار قلبها والمعزّى لها فى أوقات الملمات والمثير لحماستها عند الحروب والمُشْعِل نار الانتقام فى نفوسها... وهكذا، وإن لم يعن هذا أن الشعراء جميعا كانوا يفعلون كل ذلك، وفى كل الظروف والأوقات، بل كان هناك شعراء لا يتغنَّوْن إلا بما يجدونه فى قلوبهم بوصفهم أفرادا فى دنيا البشر لا أعضاء فى قبيلة معينة، كما كان هناك أيضا شعراء متمردون يشذون عن قبيلتهم فتخلعهم كما هو الشأن مثلا فى شعراء الصعاليك. هذا ما أفهمه من كلام ابن رشيق، أما الاحتفال بنبوغ الشعراء فى العصر الجاهلى فلا أدرى كيف يمكن تحديد الوقت الذى ينبغ فيه شاعر ما: أبأول شعر يقوله؟ لكن هذا ليس ما يُفْهَم من كلمة "نبوغ"! أم يكون بانتشار شهرته؟ لكن أمن الممكن تحديد وقت معين لذلك؟ أم يرجع الأمر إلى لجنة تعلن أنه بلغ النبوغ الشعرى؟ لكن متى كان الجاهليون يعرفون نظاما كهذا؟ الواقع أننا كيفما قلبنا تلك العبارة فلن نصل منها إلى شىء محدد يريح البال. ولهذا

كله أرى أن المقصود بها هو معناها الرمـــزى الـــذى أشـــرت إليـــه آنفا، وهو أن الشاعر الجاهلى كان بوجـــه عـــام ذا مكانـــة عاليـــة بين قومه للأسباب التى ذكرناها.

أما قول نيلدكه إن الشاعر الجاهلى كان "نبى قبيلته وزعيمهـــا فى السلم وبطلها فى الحرب، تَطْلُب الرأى عنده فى البحث عن مَرَاعٍ جديدة، وبكلمته وحدها تُضْرَب الخيام وتُحَلّ، كما كان يحدو الرحالة العطاش فى التنقيب عن الماء" (انظر حنا الفـــاخورى/ تـــاريخ الأدب العربى/ ٥٩) فكلام غير صحيح، إذ ها هم أولاء شعراء الجاهلية بين أيدينا، وقد قرأنا أشعارهم وتراجمهم فلم نجد شيئا مما يزعمه نيلدكـــه. إنما كانت قيادة القبيلة لشيخها، فإن تصادف أن كان شـــاعرا فبهـــا ونِعْمَتْ كما هو الوضع فى حال كُلَيْب بن رَبيعـــة والفنْـــد الزِّمّـــانى وعمرو بن كلثوم وأُحَيْحَة بن الجَلاّح ودُرَيْد بن الصِّمّة، وإلا فالشاعر فرد من أفراد القبيلة يسمع ما انتهى إليه قرارها ويلتزم به كما يلتـــزم غيره، مع رعاية مكانته المتميزة كما قلنا. وإلا فقد كان عنترة شاعرا، وشاعرا كبيرا، فهل كان قبيلته تتبع خطاه وترى ما يراه؟ كما كـــان طرفة أيضا شاعرا، ولم تكن قبيلته تعيره أدنى اهتمام من جهة الرياســـة والرأى، إذ كان شابا لاهيا عابثا يصطدم بها ولا ينسجم مع أوضاعها حتى لِيمَ على تمرده لوما شديدا سجله هو نفسه فى معلقتـــه. ولـــدينا الأعشى وزهير والنابغة وحسان، وغيرهم كثيرون من شعراء الجاهلية، ولم نقرأ أن أيا منهم كان سيد قبيلته يوما. ثم لقد كان هناك شـــعراء

رحالة ينتجعون الممدوحين، فهل كان على قبائلهم إذا ما ألمت بها مُلِمّةٌ أن تنتظرهم حتى يؤوبوا من أسفارهم فيشيروا عليها بما ينبغى أن تصنعه؟ كما أن القبيلة الواحدة كثيرا ما كان لها أكثر من شاعر، فمن منهم يا ترى كان هو السيد المطاع الذى تأخذ برأيه وتنصاع لمشورته؟ أم هل كان لكل قبيلة شيوخٌ عِدّة؟ وما القول فى الشعراء المتمردين على قبائلهم؟ أكانت تلك القبائل تتخذ منهم شيوخا لها رغم ذلك؟ وأخيرا متى كانت الموهبة الشعرية والشخصية الحكيمة المهيبة التى تعنو لها رقاب الآخرين صِنْوَيْن متلازمين حتى يكون كل شاعر جاهلى سيدا لقبيلته بالضرورة؟ ألا ما أكثر ما يشيع فى دنيا الأدب العربى من مقولات (وبخاصة ما كان منها صادرا عن المستشرقين) إذا ما تحراها الدارس أو وقف إزاءها وقفة المتسائل فسرعان ما ينكشف زيفها وما فيها من مجافاة للمنطق ووقائع الحياة!

القَصَص

ينقل د. أحمد أمين فى كتابه: "فجر الإسلام" (ط١٢/ مكتبة النهضة المصرية/ ١٩٧٨م/ ٣٦) عن المستشرق البريطانى ديلاسى أوليرى (De Lacy O'Leary) فى كتابه: "Arabia Before Muhammad":

أن العربى ضعيف الخيال جامد العواطف، لكنه يعقب على ذلك بأن الناظر فى شعر العرب، وإن كان لا يرى فيه أثرا للشعر القصصى أو التمثيلى أو الملاحم الطويلة التى تُشيد بذِكْر مفاخر الأمة كـ"إلياذة" هوميروس و"شاهنامة" الفردوسى، يلاحظ رغم ذلك براعة الشاعر العربى فى فن الفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز، وهو مظهر من مظاهر الخيال. كما أن بكاء ذلك الشاعر للأطلال والديار، وذِكْره للأيام والحوادث، ووَصْفه لشعوره ووجدانه، وتصويره لالتياعه وهيامه، كل ذلك دليل على تمتعه بالعواطف الحية.

ويردد أحمد حسن الزيات شيئا قريبا مما نقله أحمد أمين عن أوليرى، وإن اختلفت مسوِّغاته، إذ من رأيه أن مزاولة هذا الفن تقتضى الروِيّة والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال، كما تتطلب الإلمام بطبائع الناس، وهم قد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم، فضلا عن احتياجها إلى التحليل والتطويل، على حين أنهم أشد الناس اختصارًا للقول، وأقلهم تعمقًا في البحث،

مع قلة تعرضهم للأسـفار البعيـدة، والأخطـار الشـديدة. ثم إن هذا الفن هو نوع من أنواع النثر، والنثـر الفـني ظـل في حكـم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حـتى آخـر الدولـة الأمويـة حين وضع ابن المقفع الفارسي منـاهج النثـر، وفكّـر في تـدوين شيء من القصص (أحمد حسـن الزيـات/ تـاريخ الأدب العـربي/ ٣١، ٣٩٣).

بَيْدَ أن عددا مـن كبـار النقـاد ومـؤرخي الأدب عنـدنا تولّى تفنيد هذه التهمة المتسرعة: ومـن هـؤلاء الـدكاترة زكـي مبارك، الذى أكـد أن العـرب "كجميـع الأمـم لهـم قصـص وأحاديث وخرافـات وأسـاطير يقضـون بهـا أوقـات الفـراغ ويصورون بهـا عـاداتهم وطبـاعهم وغرائـزهم مـن حيـث لا يقصدون" (د. زكى مبارك/ النثـر الفـنى فى القـرن الرابـع/ دار الكتب المصرية/ ١٩٣٤م/ ١/ ١٩٧). كمـا رد عمـر الدسـوقى باستفاضـة فى كتابـه: "فى الأدب العـربى الحـديث" (مطبعـة الرسالة/ ١٩٤٨م/ ٣٣١- ٣٤٧) على هـذه الفِرْيـة العنصـرية وأدحضها على أساسٍ علميّ وفلسفيّ مبينا أن مـا كتبـه العـرب وما ترجموه من قصصٍ فى القـديم والحـديث ينبـئ بجـلاء عمـا يتمتعون به من خيال ومهارة فنية فى هـذا السـبيل. بـل يـذهب أحمد أمين أيضا إلى أنه كانت هنـاك صـلة بـين عـرب الجاهليـة وآداب غيرهم من الأمـم كـالإغريق والفـرس تمثلـت فى أنهـم

أخذوا بعض القَصَص فاحتفظوا به يروونه ويتسامرون به على الحال التى نقلوه عليها دون تبديل، أو صاغوه فى قالب يتفق وذوقهم، علاوة على قصصهم الأصيل الذى لم يأخذوه عن غيرهم مما نجده فى "أيام العرب" وما يسميه بـ"أحاديث الهوى" (انظر د. أحمد أمين/ فجر الإسلام/ ٦٦- ٦٨).

ويقول محمود تيمور فى كتابه: "محاضرات فى القصص فى أدب العرب: ماضيه وحاضره" (معهد الدراسات العربية العالية/ القاهرة/ ١٩٥٨م/ ٢٦): "سارعنا إلى الإنكار على الأدب العربى أن فيه قصة، وما كان ذلك الإنكار إلا لأننا وضعنا نُصْبَ أعيننا القصةَ الغربيةَ فى صياغتها الخاصة بها وإطارها المرسوم لها ورجعنا نتخذها المقياس والميزان، وفتشنا عن أمثالها فى أدبنا العربى فإذا هو خِلْوٌ منها أو يكاد. وشَدَّ ما أخطأنا فى هذا الوزن والقياس، فللأدب العربى قَصَصٌ ذو صِبْغةٍ خاصة به وإطارٍ مرسومٍ له، وهو يصور نفسية المجتمع العربى وخلاله فلا يقصّر فى التصوير. وإننا لنشهد فيه ملامحنا وسماتنا وضّاحة، وكأننا لم نفقد فى مجتمعنا العربى حتى اليوم ما يكشف عنه ذلك القَصَص من ملامحَ وسِماتٍ على الرغم من تعاقب العصور وتطاول الآماد. وهو فى جَوهره وثيق الصلة بالوشائج الإنسانية التى هى جوهر القَصَص الفنى، وإنْ تباينت الصياغة واختلف الإطار". ومن الطريف أن تيمور كان يرى

عكس هذا الرأى قبلا زاعمـا أن البيئـات الصـحراوية ينقصـها الخيال وأن ما تركه لنا العرب فى هـذا الميـدان شـىء ضـئيل لا قيمة له، وإنْ صنّف هذا التراث رغم ذلـك إلى قَصَـصٍ عـاطفى وقَصَصٍ حربىّ وبطولىّ وقَصَـصٍ علمـىّ فلسـفىّ (انظـر محمـود تيمـور/ نشـوء القصـة وتطورهـا/ المجلـة الجديـدة/ سـبتمبر ١٩٣٦م/ ٥٢، ٥٤- ٥٦، ٦١، ومقدمتـه لمجموعـة "الشـيخ سيد العبيط"/ المطبعة السلفية/ القاهرة/ ١٩٢٦م/ ٤١).

وفى ذات السياق يبدى محمد مفيـد الشوباشـى اسـتنكاره من أنه "لا يزال بيننا أناس ينكـرون علـى العـرب كـل ميـزة حضارية وينظرون بعـين الاسـتهانة والازدراء إلى آيـاتهم البـاهرة فى ميـادين الأدب والفـن والعلـم. وقـد شملـت اسـتهانتهم وزرايتهم، فيما شملتا، القصةَ العربيـة القديمـة! وسَـندهم فى هـذا أن قصَص العـرب كانـت إمـا أخبـارا أو حكايـات أو شـعرا روائيا، فهى لا تشبه القصة الحديثة الـتى نعرفهـا بحـال، وعلـى ذلك لا تستحق أن تسمى: قصَصًـا" (محمـد مفيـد الشوباشـى/ القصـة العربيـة القديمـة/ سلسـلة "المكتبـة الثقافيـة"/ إبريـل ١٩٦٤م/ ٣). وبحـقّ يقـرر د. محمـد حسـين هيكـل أن فـن القصص قد عرفته جميع الأمم القديمـة والحديثـة، وأن "القصـة"، كما نعرفها اليوم، ليست إلا شكلا مـن الأشـكال الـتى اتخـذها هذا الفن على مدى تاريخه الطويـل، وأن هـذا الشـكل سـوف

يتطور ولا شك فى المستقبل إلى صور وألوان أخرى. أما بالنسبة إلى الأدب العربى القديم فهو يؤكد حُفُوله بالأعمال القصصية المعبرة عن أوضاعِ العصور التى ظهرت فيها وملامحها شعرا ونثرا (انظر د. محمد حسين هيكل/ ثورة الأدب/ ط٣/ مكتبة النهضة المصرية/ ١٩٦٥م/ ٦٧- ٧٣. وانظر كذلك مقاله: "رأى فى القصة العربية"/ الهلال/ أغسطس ١٩٤٨م/ ١١٦).

ويفيض د. محمود ذهنى، على مدى عشرات الصفحات من كتابه: "القصة فى الأدب العربى القديم"، فى مناقشة دعوى افتقار الذهن العربى إلى الخيال وخلو أدبنا القديم من الفن القصصى، مقدما عددا من الأدلة العقلية والنصوصية: منها مثلا ما ورد فى كتب التاريخ والحديث والتفسير من روايات عن النضر بن الحارث، الذى كان يحارب دعوة الرسول عليه السلام من خلال جلوسه مجلسه صلى الله عليه وسلم بين مشركى قريش وتلاوته عليهم حكايات الأكاسرة وقُوّادهم ورجال دولتهم بغية صرف قلوبهم عن الدين الجديد ومحاولة تخليصهم من تأثير كتابه المعجز. ومنها ورود كلمات "قَصّ" و"يقُصّ" و"قصة" و"قَصَص" فى لغة العرب وكتاباتهم مما يدل على معرفتهم بهذا اللون من الأدب. ومنها ما يقوله المؤرخون من أنه كان لمعاوية رجال موكَّلون بالكتب التى تتحدث عن

أخبار العرب وسياسات الملوك الماضين يقرؤونها عليه كل ليلة. ومنها امتلاء كتب الأدب العربى بالحكايات والنوادر والقصص التى تدور حول عاداتهم وأحوال معيشتهم ومعاركهم وأساطيرهم، أو حول أخبار العجم وملوكهم وسيرتهم فى رعاياهم، أو حول المغامرات والمكايد التى يحيكها البشر بعضهم لبعض... إلخ (انظر كتابه: "القصة فى الأدب العربى القديم"/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ١٩٧٣م/ ٥٣- ١٤٤). والواقع أن ما قاله د. ذهنى صحيح مائة فى المائة، فمن يرجع إلى كتب الأدب العربى القديم سوف يهوله المقدار الضخم للقصَص التى تتضمنها تلك الكتب، وكثير منها يعود إلى العصر الجاهلى أبطالاً وموضوعاتٍ وتواريخ. ومن يُرِدْ أن يتحقق من هذا يمكنه مثلا النظر فى كتاب "قصص العرب" لمحمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى بأجزائه الثلاثة، وهذا الكتاب يحتوى على مئات من القصص يخصّ العصرَ الجاهليَّ منها قدرٌ غير قليل، وإنْ لزم القول بأنه لا يتضمن مع ذلك جميع القصص العربية ولا معظمها بل عيّنات منها فحَسْب، كما أنه لا يتعرض للقصص الطويلة بحال، بل يجتزئ بالقصص ذات الحجم الصغير، تلك القصص التى ينطبق على عدد غير قليل منها شرائط القصة القصيرة كما نعرفها الآن. وهذا مجرد مثال ليس إلا.

وعلى أساسٍ مما مــر ينبغــى أن نقــرأ مــا كتبــه فــاروق خورشيد من أن "العلماء مُجْمِعون علــى أن العــرب فى الجاهليــة كانت لهم قصص كثيرة ومتعددة، فقد كــانوا مشــغوفين بالتــاريخ والحكايات التى تــدور حــول أجــدادهم وملــوكهم وفرســانهم وشعرائهم. وكتــاب "الأغــانى" لأبى الفــرج الأصــفهانى يكــاد يكون ذخيرة كاملة مــن القَصَــص الــذى تتناقلــه النــاس عــن شعرائهم ومجالسهم وملوكهم... ولــيس كتــاب "الأغــانى" هــو المرجع الوحيد فى هــذا، بــل إن المكتبــة العربيــة غنيــة بأمثــال "الأمــالى" و"صــبح الأعشــى" و"العِقْــد الفريــد" و"الشــعر والشعراء" وكتب التراجم والطبقات بما لا يــدع مجــالا للشــك فى أن الفن القصصى قد تناول الحياة الجاهليــة فى كــل مظاهرهــا، إلا أن الدارسين المــُحْدَثين رفضوا بكــل بســاطة أن يعتــبروا هــذه القصص فنا نثريا مميزا له أصــوله الجاهليــة، واعتمــدوا فى هــذا على أن كل هذه الكتب إنما دُوِّنــتْ فى العصــر العباســى الــذى يبعد بعدا زمنيا كبيرا عــن العصــر الجــاهلى". ويمضــى فــاروق خورشيد مبينا أن الذين قاموا بتدوين أخبــار الجــاهليين فى العصــر العباسى قد اعتمدوا، إلى جانب الرواية والحفظ، علــى مــا خلفتــه الجاهلية من كتابــات ومــدوَّنات، إذ كــان التــدوين والكِتَــاب معروفين عند الجاهليين، "فقد يكون مــن المعقــول" كمــا يقــول "أن ينقل الراوى قصيدة شعر، أما أحداث تــاريخ وحكايــة حيــاة

فهذه تحتاج إلى تدوين فى نقلها" (فاروق خورشيد/ فى الرواية العربية/ ط٣/ دار الشروق/ ١٤٠٣هـ- ١٩٨٢م/ ٢٧-٢٨). بل إنه ليرى أنّ "الفن الجاهلى الأول كان هو القصة والرواية، أما ما عدا هذا من صُوَرٍ كالخطابة والسجع فلا تعدو أن تكون استجابة لحاجة مؤقتة من حاجات الحياة، ودَرْسُها أقرب إلى دَرْس اللغة منه إلى دَرْس الأدب" (المرجع السابق/ ٧٤). ومن كلام خورشيد هذا نخرج بأن عرب الجاهلية لم يكونوا يعتمدون فى حفظ قصصهم على الذاكرة فقط بل على الكتابة فى المقام الأول.

فإذا جئنا إلى الدكتور شوقى ضيف وما أثبته فى كتاب "العصر الجاهلى" فى هذا الصدد ألفيناه يؤكد أن عرب الجاهلية "كانوا يشغفون بالقصص شغفا شديدا، وساعدهم على هذا أوقات فراغهم الواسعة فى الصحراء، فكانوا حين يُرْخِى الليلُ سدولَه يجتمعون للسمر، وما يبدأ أحدهم فى مضرب من مضارب خيامهم بقوله: "كان وكان" حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه، وقد يشترك بعضهم معه فى الحديث. وشباب الحى وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدَّرات وراء الأخبية، كل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة"، بَيْدَ أنه يستمر قائلا إنهم لم يكونوا يدونون قَصَصهم، بل يتناقلونه شفاها، إلى أن تم تدوينه فى العصر العباسى، ومن ثم لم يصلنا كما كان الجاهليون

يروونه. وهذا نص كلامه: "ليس بين أيـديناً شـيء مـن أصـول هذا القصص الذى كان يدور بينـهم، غـير أن اللغـويين والـرواة فى العصر العباسى دوّنوا لنا ما انتـهى إلـيهم منـه. وطبيعـى أن تتغير وتتحرّف أصوله فى أثناء هذه الرحلة الطويلـة الـتى قطعتـها من العصر الجاهلى إلى القرن الثانى الهجرى، وإن كـان مـن الحـق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القـديم وظلـت تنـبض بروحه وحيويتـه" (العصـر الجـاهلى/ ٣٩٩). فعنـدنا إذن مـن يقول إن الجاهليين كـانوا يـدونون تـاريخهم وقصصـهم كتابـة، ومن يقول إنهم لم يكونوا يصـنعون شـيئا مـن ذلـك. وصـاحب هذا الرأى الأخير، وهـو الـدكتور شـوقى ضـيف، لا يكتفـى بذلك بل يردّ ما جاء عن هشام بن محمد الكلـبى مـن أنـه رأى فى بِيَع الحيرة بعض مدوَّنات اسـتخرج منـها تـاريخ العـرب، لأنـه متهم فى كثير مما يرويه على حد تعبيره. وهـو مـا لا يُعَـدّ دلـيلا كافيا، إذ حتى لو كان هذا الاتهام صحيحا فليس معنـاه أنـه كـان يكذب فى كل شيء ولا يقول الصدق أبدا، وبخاصـة أن مـا قالـه عن مدوَّنات الحيرة لا يدخل فى بـاب الخرافـات الـتى لا يقبلـها العقل، فقد كان من العرب من يكتب حسـبما هـو معـروف لنـا جميعا، وبالذات فى مملكة الحـيرة الـتى كانـت تتبـع إمبراطوريـة الفُرْس أصحاب الكتابة والسجلات والدواوين.

وقد أوردنا فى الفصل الخاص بالشعر الجاهلى من هذا الكتاب أنه كان لدى ملوك الحيرة ديوان يضم أشعار فحول الجاهلية ومدائح من مدحهم من شعرائها، وهو يظاهر ما قاله ابن الكلبى ويعضّده. أما قول الأستاذ الدكتور عقب ذلك إنه "حتى لو صحت روايته فأغلب الظن أن ما شاهده من تلك المدوَّنات لم يكن مكتوبا بالعربية، إنما كان مكتوبا بالسريانية، التى كانت شائعة فى الحيرة قبل الإسلام" فهو مصادرة على المطلوب، إذ معنى كلامه هذا أن كلام ابن الكلبى ليس صحيحا لأنه ليس صحيحا. كيف؟ إنه، بعد أن يفترض أن ما قاله ذلك العالم المسلم صحيح، يعود فيقول إنه لا يمكن أن تكون الكتابات التى رآها عربية بل سريانية. وهو ما يفيد أنه لا يزال يكذب لأنه إنما كان يقصد أنه قرأ ذلك بالعربية، إذ لم يكن يعرف السريانية، وإلا لعُرِف ذلك عنه أو لقال إنه استعان فى الاطلاع على ما فيها بمن يعرف السريانية. كما أن سياق الكلام يدل على أن المراد كتابات عربية. ومعنى هذا أنه يقول إنه قرأ الكتابات المذكورة بالعربية، على حين يقول واقع الأمر إنها كانت مكتوبة بالسريانية التى لم يكن يعرفها. أى أنه لم يقرأها على هذا الاحتمال أيضا، وأنه قد كذب هنا كذلك! لكن هل يمكن أن يكون ما قاله د. شوقى فى حق ابن الكلبى سليما؟ أما أنا فلست أستطيع أن أوافق أستاذى الذى أكن له

كل الاحترام لأن الذى أعرفه أن مملكة الحيرة كانت مملكة عربية، فلماذا تتحدث مملكة كهذه بلسان السريان لا بلسان العرب؟ كما أن الشعراء العرب الكبار فى الجاهلية كانوا يقصدون ملوكها ويمدحونهم أيضا بالعربية لا بالسريانية، والأستاذ الدكتور لا ينكر هذا بل يثبته فى كتبه التى تتعرض لشعر تلك الحقبة ككتابه الذى بين أيدينا وكتابه عن "الفن ومذاهبه فى الشعر العربى" مثلا. وفوق هذا فإن أسماء ملوكها أسماء عربية لا سريانية. أما إن ثبت مثلا (أقول: مثلا!) أن السريانية كانت تستعمَل فى بعض الطقوس الدينية فهذا شىء آخر غير ما نحن بصدده. إذن فلماذا يجب أن يكون القصص المذكور مكتوبا هو بالذات بالسريانية؟

وثمة خبر كذلك أورده المسعودى فى "مروج الذهب" عن معاوية يدل على أنه كان هناك منذ خلافته على الأقل تدوينٌ كتابىٌّ لما كان الجاهليون يروونه من قصص وحكايات وأسمار، وأن هذا التدوين من ثَمَّ لم ينتظر حتى مجىء العصر العباسى كما يقول د. شوقى ضيف. وهذا هو النص المذكور، وقد ورد فى سياق كلام المسعودى عن المنهج الذى كان معاوية يتبعه فى إنفاق ساعات يومه نهارا وليلا، وهو خاص بسماع العاهل الأموى أخبار العرب وأيامها فى الجاهلية: "ويستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها والعجم

وملوكها وسياستها لرعيتها وسِيَر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطُّرَفُ الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتَّبون، وقد وُكِّلوا بحفظها وقراءتها، فتمرّ بسَمْعه كلُّ ليلة جُمَلٌ من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم". ولدينا أيضا كتاب "أخبار عَبِيد بن شَرِيَّة الجُرْهُمِيّ في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"، الذى سجل فيه مؤلفه ما كان يقع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان من حوارات تاريخية، وكان معاوية قد استقدمه ليستمع منه إلى أخبار ملوك اليمن. ويذكر ابن النديم أن عَبِيدًا وَفَد على معاوية فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأَمْر افتراق الناس في البلاد، وكان قد استحضره من صنعاء اليمن، فأجابه إلى ما سأل، فأمر معاوية أن يدوَّن ذلك ويُنْسَب إلى عبيد. وهو الكتاب الذى يؤكد المسعودى أن صاحبه هو الوحيد الذى صح وفوده على معاوية من رواة أخبار الجاهلية. قال: "ولم يصحّ عند كثير من الأخباريين من أخبار من وَفَد على معاوية من أهل الدراية

بأخبار الماضين وسير الغابرين العرب وغيرهم مـــن المتقـــدمين فيهـــا إلا خبر عَبيد بن شَرِيّة وإخباره إياه عما ســـلف مـــن الأيـــام ومـــا كان فيها من الكوائن والحـــوادث وتشـــعُّب الأنســـاب. وكتـــاب عَبيد بن شريّة متداوَل في أيدي الناس مشهور".

ترى هل بإمكاننا القول بـــأن تـــدوين القصـــص الجـــاهلى لم يتأخر به الزمن إلى عصر العباسيين على عكـــس مـــا يقـــول بـــه د. شوقى ضيف؟ ذلك أننا هنا أمام دليـــل مكتـــوب يقـــول إن هـــذا التدوين قد بدأ منذ أول العصـــر الأمـــوى، وإن كنـــا لا نســـتطيع الجزم على وجه اليقين كما صنع فـــاروق خورشـــيد بـــأن ذلـــك التدوين قد بدأ فى الجاهليـــة فعـــلا، بالضـــبط مثلمـــا لا نســـتطيع الجزم بعكسه أيضا. لكن إلى أى مدى نســـتطيع القـــول بـــأن مـــا كتبه عَبيد بن شَرِيّة هو قصص جاهلى فعـــلا؟ إنـــه يتحـــدث مـــثلا عن قوم عاد وما أنزله الله بهم بســـبب عصـــيانهم وكفـــرهم كمـــا نقرأ فى القرآن المجيد، فهل كـــان الجـــاهليون يعرفـــون مـــا أورده القرآن فى هذا الصدد من تفصـــيلات زادتهـــا القصـــة تفصـــيلات أخرى كثيرة لم ترد فى الكتاب المجيـــد؟ وهـــل كـــانوا يعرفـــون فى ذلك الصدد مثل التعبير التالى: "سبع ليـــال وثمانيـــة أيـــام حســـوما حتى تركتهم كأنهم أعجاز نخـــل خاويـــة" حســـبما ورد فى كتـــاب عبيد، وهو تعبير قرآنى ورد فى سورة "الحاقّة" عنـــد روايـــة المـــولى سبحانه قصة هلاكهم؟ ومن ثَمّ فهل نَعُـــدّ مـــا تركـــه لنـــا عبيـــد

قَصَصًا جاهليًّا أضاف هو إليه تفصيلات إسلامية؟ أم هل نعده قصصا إسلاميا تام الإسلامية على أساس أن الجاهليين، وإن كانوا قد سمعوا بعاد، لم يكن عندهم علم بما وقع بهم تفصيلا من مصائبَ جَرّاءَ كفرهم وتمردهم؟ هذا أمر من الصعب البَتُّ فيه. كذلك لا بد من الإشارة إلى أن القَصَص الجاهلى لم يكن نثرا فحسب، بل كان شعرا أيضا. كما أن كثيرا من القصص العربى المأثور عن الجاهلية أو الذى يتخذ من الجاهلية موضوعا له يختلط فيه الشعر والنثر، وليس نثرا صافيا.

وأول شيء نتعرض له الآن هو: ما مدى تطابق هذه النصوص القصصية مع ما تركه لنا الجاهليون من تلك النصوص؟ فأما النصوص القصصية الشعرية فيغلب على الظن أنها أقرب إلى ما تركه العرب فعلا، على أساس أن الشعر سهل الحفظ بسبب ما يقوم عليه من تركيز ونغم موسيقى، اللهم إلا إذا ثبت أن ثمة تزييفا أو تلاعبا فى النص. وأما النصوص النثرية فحتى لو قبلنا ما تقوله بعض الروايات من أنه كان هناك قصص جاهلى مكتوب فإن هذا لا يسوغ أبدا إطلاق مثل ذلك القول وتعميمه على كل القصص، إذ كانت الكتابة فى الجاهلية محصورة فى نطاق ضيق مما يستبعد الدارس معه التوسع فى كتابة مثل تلك النصوص التى لا علاقة لها بالمعاهدات أو الرسائل الرسمية وما أشبه، وبخاصة إذا علمنا أن مواد الكتابة لدى

العرب آنذاك كانت نادرة وبدائية فى غالب الأمـــر. كـــذلك قـــد يقال إن الأسلوب الذى صيغت به تلـــك النصـــوص القصصـــية لا ينسجم بوجه عام مع ما نعرفه مـــن النصـــوص النثريـــة الجاهليـــة على قلتها من خطبٍ وأمثـــالٍ وأســـجاعِ كهـــان، بـــل ينســـجم بالأحرى مع الكتابة العربيـــة بعـــد تطورهـــا فى العصـــر العباســـى الذى دقت فيه الأفكار ولانت فيـــه الأســـاليب ورقـــت وتلونـــت ووضح فيها روح التحضر، إلا أنه يمكـــن مـــع هـــذا الـــرد بـــأن أسلوب القصص بطبيعتـــه أســـلوب بســـيط منســـاب لا يعـــرف الوعورة ولا الاحتفـــال اللـــذين نجـــدهما فى كـــثير مـــن الأشـــعار والخطب الجاهلية أو غير الجاهليـــة. لكـــن إلى أى مـــدى ابتعـــدت تلك النصوص عن الروايات الأصلية الـــتى كـــان يتـــداولها أهـــل الجاهلية؟ الواقع أنه يصـــعب جـــدا، بـــل يســـتحيل فى الظـــروف الحالية القطع بشيء من هـــذا، وإن كنـــا نتصـــور أن الموضـــوعات قد بقيت كما هى أو ظلت قريبة مما كانت عليـــه فى الأصـــل. أمـــا سبب القطع بأن تلك النصوص قد نالها قدر مـــن التحـــوير فـــذلك راجع إلى أنها نصوص نثرية لا تعلـــق بالـــذاكرة علـــوق الشـــعر، الذى رأينا فى الفصل الخاص به أنه هو أيضـــا لم يســـلم تمامـــا مـــن التغييرات الراجعة إلى ما يعترى الذاكرة البشـــرية مـــن ضـــعف أو التباس على الأقل. كما أنه لم يكـــن هنـــاك مـــا يـــدعو إلى بـــذل الجهد والاهتمام فى حفظ النصوص القصصـــية مثلمـــا هـــو الحـــال

فى القرآن الكريم، وكذلك حديث النبى عليه السلام ولكن بدرجة أقل، ولا كانت النصوص القصصية مسجوعة كمواعظ الحنفاء وأحاديث الكهان، أو قصيرة موقَّعة كالأمثال. وفضلا عن هذا فإن القَصَص الجاهلى لا يرتبط بشخص بعينه قد ألّفه على عكس الشعر الذى يُنْسَب، إلا فى الشاذ النادر، إلى هذا الشخص أو ذاك، أما القصَص فإنها فى الأغلب نتاج جماعى، والجماعة لا تهتم بالتدقيق فى حفظ إبداعها قدر اهتمام الأفراد بإنتاجهم كما هو معروف. بل إنى لأؤكد أن القصاصين أنفسهم هم أول من أدخل التحويرات والتغييرات فى تلك النصوص طبقا لما هو معروف من حكايتهم لها كل مرة بطريقة مختلفة قليلا أو كثيرا عن المرة السابقة بحكم ضعف الذاكرة البشرية والحالة النفسية التى يكونون عليها والجو الذى يحيط بهم أثناء قيامهم بعملية القص... إلخ. فإذا كان هذا هو حال المبدع نفسه، فما بالنا براوى هذا الإبداع؟ ويبقى البناء الفنى لهذا القصص الجاهلى، ولا أظننا بقادرين على البت فى السؤال الخاص بمدى بقاء ما وصلنا من قصص جاهلى على حالته الفنية التى خلّفها لنا قُصّاص الجاهلية. ذلك أننا لا نملك أى مستندات كتابية تصور لنا ما لحقه من تطور رغم ما قيل من أنه كانت هناك بعض الوثائق القصصية المكتوبة التى تركها لنا

الجاهليون فى هذا الفن يوما، إذ العبرة بما فى اليد الآن لا بما كان فى أيدى القدماء.

والآن إلى الموضوعات التى تناولتها القصة الجاهلية. ولسوف نسترشد بما اشتمل عليه كتاب "قَصَص العرب" الذى سلفت الإشارة إليه على رغم علمنا بأنه لا يقتصر على القصص الجاهلى وحده. ذلك أن ما يصدق على قصص العرب فى الإسلام من هذه الناحية يصدق أيضا بوجه عام على قصصهم قبله، اللهم إلا ما كان مختصا بهذا أو ذاك دون قَسيمه، وهو أمر من السهل معرفته فى معظم الأحيان لأول وهلة. ومن ينظر فى فهرس الكتاب الذى نحن بصدده يجد أن أصحابه قد قسموا القصص العربية إلى: قصَصٍ تستبين بها مظاهرُ حياقم وأسبابُ مدنيتهم بذكر أسواقهم وأجلاب تجارقم والمساكن التى كانت تؤويهم وسائر ما كان على عهدهم من دلائل الحضارة ووسائل العيش، وقصَصٍ تتضمن معتقداقم وأخبار كهافم وكواهنهم وتبسط ما كانوا يعرفون من حقائق التوحيد والبعث والدار الآخرة وما كانوا يتوسلون به من إقامة الأوثان وتعهدها بألوان الزُّلْفَى والقربان، وقصص تجلو علومهم ومعارفهم وتتوضَّح منها ثقافتهم وما كان متداوَلا بينهم من مسائل العقل والنقل التى هدقم إليها فطرهم أو أهتها إليهم تجاربهم، وقصص يُرَى منها ما كانوا يتغَنَّوْن به من المكارم

والمفاخر وما كانوا يتذمّمون به من المناقص والمعَرّات سواء أكان ذلك يتصل بكل منهم فى نفسه أم فيما يتصل بالأقربين من ذَوِيه أم فيما يضم أهل قبيلته أم فيما يشمل الناس جميعا، وقصص تعدد غرائزهم وخصالهم فتكشف ما طُبِعوا عليه من وفرة العقل وحدة الذكاء وصدق الفراسة وقوة النفس وما أهّلتهم له طبيعة بلادهم وأسلوب حياقم من شريف السجايا وممدوح الخصال، وقصص تشرح ما أُثِر عنهم من عادات وشمائل فى الأسباب الدائرة بينهم وتبين ما انتهجوه فى مواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وأعراسهم مما يمثل حياقم الاجتماعية أصدق تمثيل، وقصص تمثل أحوال المرأة العربية وما تجرى عليه فى تربية أطفالها ومعاشرتها زوجها ومعاونتها له فى الحياتين الاجتماعية والمدنية بالسعى فى سبيل الرزق والاشتراك فى خوض معامع الحروب والأخذ بقسط من الثقافة الأدبية السائدة فى ذلك العهد، وقصص تمثل ذلاقة لساهم وحكمة منطقهم وما ينضاف إلى ذلك من فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى وجمال الأسلوب وحسن التصرف فى الإبانة والتعبير، وقصص تَسْرُد بارع مُلَحهم ورائع طُرَفهم فى جواباقم المُسْكِتة وتصرفاقم الحكيمة وتخلصاقم اللبقة مما يدل على حضور الذهن وسرعة البديهة وشدة العارضة، وقصص تعرب عما يقع بين العامة والملوك والقواد والرؤساء والقضاة ومن إليهم من

كل ذى صلة بالحكم والحكّام ممــا يتنــاول حِيَلــهم فى المنازعــات والخصومات ويوضح طرائقم فى رفع الظُّلامــات ورَجْــع الحقــوق وما يجرى هذا المجــرى، وقصــص تصــور احتفــاظهم بأنســابهم واعتزازهم بقبائلهم وتمجيدهم للأســلاف وتعديــدهم مــا تركــوا من مآثر وما أدى إليه ذلــك مــن مفــاخر ومنــافرات، وقصــص تنقل ما كانوا يتفكهون بــه مــن أسمــار ومطايبــات ومناقــدات وأفاكيه مما نال به المحدِّثون والندماء سَــنِىَّ الجــوائز والخِلَــع مــن الخلفاء والوزراء وما ارتفعت به مكانتهم عنــد الســادة والوجــوه فى المجتمعات والمنتديات، وقصص تؤرخ مــذكور أيــامهم وتفصّــل مشهور وقائعهم ومقتل كــبرائهم وتصــف الحــروب والمنازعــات التى كانت تدور بــين قبائلــهم أخــذا بالثــأر وحمايــة للــذّمَار، وقصص تحكى ما كان للجند من أحــداث وأحاديــث فى الغــارات والغــزوات والفتــوح مصــوِّرةً نفســياتهم وأحــوالهم واصــفةً تطوراتهم العقلية والخلقية بنشأة الدولة العربيــة وانفســاح رقعتــها مفصِّلةً عُدَدهم وآلاتهم وأســلحتهم فى حيــاتهم الجديــدة. ومــن الواضح مثلا أن العناوين التى يرد فيها ذكــر الخلفــاء أو الــوزراء أو الدولة العربية وحياتهم الجديدة هى من القصــص الــتى تنتمــى إلى تــاريخهم الإســلامى لا الجــاهلى. ومــن الواضــح أيضــا أن واضعى الكتاب قد ركــزوا فى تلــك العنــاوين علــى الجوانــب الطيبة فى الشخصية العربية تعصبا منهم للعــرب، وكــأن العــرب

كانوا بلا عيوب، وهو ما يكذبه الواقع ومنطق الحياة، بل يكذبه قبل ذلك كله ما نقرؤه فى تلك القصص نفسها التى بين أيدينا، وإن كنا نتفهم الدوافع التى حَدَتْ بالمؤلفين إلى انتهاج تلك الخطة، إذ كانوا يرَوْن الهجوم الظالم الذى يشنه على أمة العرب أعداؤها الخارجيون وأذنابهم من بين أَظْهُرنا فى الداخل، فأرادوا أن يقولوا إن العرب لم يكونوا يوما بهذا السوء الذى يصورهم به هؤلاء وهؤلاء، بل كانت لهم دائما حسناتهم الباهرة وإنجازاتهم الرائعة المعجبة التى يضارعون بها كثيرا من الأمم الأخرى، إن لم يتفوقوا فيها عليهم.

وقد رجع واضعو الكتاب إلى عشرات الكتب التراثية كى ينقلوا منها ما ضمّنوه كتابهم من قصص. والناظر فى عناوين المراجع والمصادر المذكورة فى فهارس ذلك الكتاب يجد أن بعض تلك الكتب تاريخى، وبعضها أدبى، وبعضها قصصى، وبعضها يتعلق بسيرة هذا الشخص أو ذاك، وبعضها من كتب الأمالى، وبعضها من الكتب التى تشرح الأمثال، وبعضها من كتب الموسوعات، وبعضها من كتب الطرائف، وبعضها من دواوين الشعر ومجموعاته وشروحه، وبعضها من كتب التراجم العامة أو الخاصة، وبعضها من كتب السياسة، وبعضها من كتب الشواهد اللغوية... إلخ. ولعل من المستحسن أن نورد هنا بعض أسماء تلك الكتب: فمنها مثلا "أخبار الأذكياء" لابن

الجوزى، و"الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى، و"الأمالى" للشريف الرضى، و"الأوراق" للصُّولى، و"بلاغات النساء" لأحمد بن أبى طاهر، و"جمهرة أشعار العرب" لأبى زيد الخطابى، و"الحيوان" للجاحظ، و"زهر الآداب" للحصرى، و"صبح الأعشى" للقلقشندى، و"العقد الفريد" لابن عبد ربه، و"الكامل فى الأدب" للمبرِّد، و"الكامل فى التاريخ" لابن الأثير، و"المحاسن والمساوئ" للبيهقى، و"المستطرَف من كل فن مستظرَف" للأبشيهى، و"معجم الأدباء" لياقوت الحموى، و"نقائض جرير والفرزدق" لأبى عبيدة، و"نهاية الأَرَب" للنويرى... وهلمّ جَرًّا.

والآن إلى شواهد من القَصَص الجاهلى الذى أوردته لنا كتب الأدب ودواوين الشعر: ونبدأ بقصيدتَىْ تأبَّطَ شَرًّا فى لقائه بالغول حيث يتحدث عن ذلك الوحش الخرافى حديث المصدِّق بوجوده، إذ كان الإيمان بالغول واحدا من الاعتقادات الجاهلية. وقد يكون تأبط شرا توهَّم رؤية الغول فعلا ثم أضاف إلى وهمه بعض التفاصيل والتحابيش، أو يكون قد اخترع القصة كلها اختراعا، وقد...، وقد... إلا أن الأبيات مع ذلك تصور اعتقادا كان سائدا بين الجاهليين كما ذكرنا، أو فلنقل: إنها تصور خرافة من خرافاتهم. ومعروف أن أهل الريف فى بلادنا إلى وقت قريب كانوا هم أيضا يؤمنون بالغول، وأذكر

أننى كنت فى طفولتى أرتعب مـــن ذكـــر تلـــك الغـــول، إذ كـــان اعتقادنا أنها تنبش القبور وتأكل جثـــث المـــوتى، فكنـــت أتخـــيلنى وقد مِتّ ووُسِّدْتُ الثـــرى فى القـــبر وتـــركنى أهلـــى ومضَـــوْا إلى بيوتهم لتنفرد بى الغول فى الظـــلام تأكـــل لحمـــى أكـــلا وتنـــهش عظامى نهشا، وأنا من العجز فى حالة تامـــة! وبطبيعـــة الحـــال فـــإن مثل هذا الاعتقاد قد تقلص إلى حد بعيـــد ولم أعـــد أسمـــع بشـــىء من ذلك مع انتشار التعليم ودخول الكهرباء القريـــة. وربمـــا كـــان تكرُّر حديث شاعرنا فى قصيدتين على الأقل عـــن الغـــول راجعـــا إلى أنه كان كـــثيرا مـــا يجـــوب الصـــحراء فى الظـــلام الـــدامس وحيدا، إذ كان صعلوكا متمـــردا لا يـــأوى إلى المجتمعـــات، بـــل كان يشكل، مع أمثالـــه مـــن الصـــعاليك المتمـــردين، عصـــابات لقطع الطريق، فكانت حيـــاتهم قلقـــا وخوفـــا وتشـــردا مســـتمرا. فإذا أضفنا الجهل الذى كان سائدا آنذاك فى المجتمـــع العـــربى تـــبين لنا أن انتشار مثل تلك الخرافة بين الجـــاهليين أمـــر طبيعـــى تمامـــا، وبخاصة فى ظروف شخص كتأبَّطَ شَرًّا.

وقد تكرر ذكر "الغول" فى شعر العرب قبـــل الإســـلام بمـــا يدل على أن هذه الخرافة كانت تســـكن عقـــول الجـــاهليين كمـــا قلنا: فمن ذلك قول طارقـــة الشـــاعرة الجاهليـــة، حـــين اقتـــرن زوجها بامرأة أخرى، إنه قد اتخذ بدلا منها "هوجـــاء مقّـــاء كشـــبْه

الغول". ومنه قول امرئ القيس تهكما بغريم له كان يهدده بالقتل:

أَيَقتُلُني وَالمَشْرَفِيُّ مُضاجِعي وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ؟

وقول زهير بن أبي سلمى يصف ناقته:

تُبادرُ أَغوالَ العَشيِّ وَتَتَّقي عُلالَةَ مَلويٍّ منَ القدِّ مُحصَدِ

والآن إلى القصيدتين اللتين قص فيهما تأبَّطَ شرًّا حكايته مع الغول، وفيهما يتبدى قصاصا بارع التصوير والتشويق والفكاهة والمقدرة على إجراء الحوار والتحول من السرد إلى الحديث بين بَطَلَيْ قصته فى اقتدار ومهارة، إلى جانب انتقاله فى القصيدة الأولى من الفعل الماضى إلى التعبير بالفعل المضارع عما مضى من وقائع بينه وبين الغول بما يجعلنا نشعر أننا نشاهد حوادث تقع الآن تحت أعيننا لا أمورا مضت وانقضت، كما فى قوله: "فشَدَّت... فأَهْوَى لها كَفِّى... فأَضْربُها... فخَرَّتْ":

أَلاَ مَنْ مُبْلِـغٌ فِتْيَـانَ فَهْـمٍ بِمَا لاَقَيْتُ عِنْـدَ رَحَى بِطَـانِ

بِأَنِّي قَـدْ لَقِيتُ الغُـولَ تَهْـوِي بِشُهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَـانِ

فَقُلْتُ لَهَا: كِلاَنَـا نِضْـوُ أَيْـنٍ أَخُـو سَفَـرٍ فَخَلِّـي لِي مَكَانِي

فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْـوِي فَأَهْـوَى لَهَـا كَفِّـي بِمَصْقُـولٍ يَمَـانِي

فَأَضْرِبُـهَا بِلاَ دَهَـشٍ فَخَـرَّتْ صَرِيعًـا لِلْيَدَيْـنِ وَلِلْجِـرَانِ

فَقَالَتْ: عُدْ، فَقُلْتُ لَهَا: رُوَيْـدًا مَكَانَـكِ إِنَّنِي ثَبْـتُ الْجَنَـانِ

فَلَـمْ أَنْفَـكَّ مُتَّكِـئًا عَلَيْهَـا لأَنْظُـرَ مُصْبِـحًا مَـاذَا أَتَانِـي

إِذَا عَيْنَـانِ فِـي رَأْسٍ قَبِيـحٍ كَرَأْسِ الْهِـرِّ مَشْقُـوقِ اللِّسَانِ

وَسَاقَا مُخْدَجٍ وَشَوَاةُ كَلْبٍ   وَثَوْبٌ مِنْ عَبَاءٍ أَوْ شِنَانِ؟

***

وأدهمَ قد جُبتُ جلبابَهُ   كَمَا اجْتَابَت الْكَاعِبُ الْخَيْعَلاَ
إلَى أَنْ حَدَا الصُّبْحُ أَثْنَاءَهُ   وَمَزَّقَ جلْبَابَهُ الأَلْيَلاَ
عَلَى شَيْمِ نَارٍ تَنَوَّرْتُهَا   فَبِتُّ لَهَا مُدْبِرًا مُقْبِلاَ
فَأَصْبَحْتُ وَالْغُولُ لِي جَارَةٌ   فَيَا جَارَتَا، أَنْت مَا أَهْوَلاَ
وَطَالَبْتُهَا بُضْعَهَا فَالْتَوَتْ   بِوَجْهٍ تَهَوَّلَ فَاسْتَغْوَلاَ
فقلتُ لها: يا انظري كي تَرَيْ   فولّت، فكنتُ لها أَغْوَلا
فطارَ بقحفِ ابنة الجـ   ـنّ ذوسفَاسِقَ قَدْ أخلقَ الْمحْملاَ
إذا كَلَّ أمهيتُهُ بالصَّفا   فَحَدَّ وَلَمْ أُرِهِ صَيْقَلاَ
عظَاءَةُ قَفْرٍ لَهَا حُلَّتَا   نِ مِنْ وَرَقِ الطَّلْحِ لَمْ تُغْزلاَ
فمن سالَ: أين ثوت جاريَ؟   فإنَّ لها باللّوى منزلا

وأما الشاهد الثانى فمن شعر للنابغة الذبيانى يصف فيه مطاردة الكلاب للثور الوحشى حين يطلقها صاحبها عليه أثناء اصطياده لها. ومثل تلك القصة التى تتكرر كثيرا فى الشعر الجاهلى تدل على شيوع صيد الثور الوحشى فى بلاد العرب قبل الإسلام. والأبيات مأخوذة من معلقة الشاعر المشهورة، ولا ينبغى أن يفوتنا ما تتميز به تلك الأبيات من وصف مفعم بالحيوية والدقة فى التشبيه والتنبه للتفصيلات الموحية. ولا بد من التنبيه ثانية إلى أن القصة التى نحن بصدد الكلام عنها لا

تستقل بقصيدة كاملة، بل تشكل فقط جزءا من قصيدة أكبر، شأنها فى ذلك كشأن أغلب القصص الجاهلى الشعرى:

كأنّ رَحْلي، وقد زالَ النّهارُ بنا ... يومَ الجليلِ على مُستأنسٍ وحِدِ
من وحشِ وجرةَ موشيٍّ أكارعهُ ... طاوي المصيرِ كسيفِ الصّيقل الفَرَدِ
سرتْ عليه من الجوزاءِ سارية ... تُزجي الشّمالُ عليه جامدَ البَرَدِ
فارتاعَ من صوتِ كلاّبٍ فباتَ له ... طوعَ الشّوامتِ من خوفٍ ومن صَرد
فبثّهنّ عليه واستمرّ بِهِ ... صُمْعُ الكُعوبِ بريئاتٌ من الحَرَدِ
وكان ضُمْرانُ منه حيثُ يُوزِعُهُ ... طَعْنَ المُعارِكِ عند المُحْجَرِ النّجُدِ
شكَّ الفَريصةَ بالمِدْرى فأنفَذَها ... طَعْنَ المُبَيطِرِ إذ يَشفي من العَضَدِ
كأنّه، خارجا من جنبِ صَفْحَتَه ... سَفّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عندَ مُفْتأدِ
فظَلّ يَعجمُ أعلى الرَّوْقِ مُنقبضًا ... في حالكِ اللونِ صدقٍ غيرِ ذي أودِ
لما رأى واشقٌ إقعاصَ صاحبه ... ولا سَبيلَ إلى عَقلٍ ولا قَوَدِ
قالت له النفسُ : إني لا أرى طمعًا ... وإنّ مولاكَ لم يسلمْ ولم يصدِ

كذلك تصور الأبيات التالية، وهى لامرئ القيس، واقعة من وقائع الصيد، إلا أن الفريسة هنا أرنبٌ بَرّىّ لا ثورٌ وحشى، ثم تنتهى بالحديث عن تناول الطعام بعد انتهاء المطاردة بالنجاح، فهى إذن قصة من قصص القنص واللهو:

كَأنّ غُلامي إذْ عَلا حَالَ مَتْنِهِ ... عَلى ظَهْرِ بَازٍ في السّماءِ مُحلّقِ
رَأى أرْنَبًا فانقَضّ يَهْوِي أمَامَهُ ... إلَيْهَا وَجَلاّهَا بِطَرْفٍ مُلَقْلَقِ
فقُلتُ لَهُ:صَوّبْ وَلا تَجْهَدَنّهُ ... فيذرك من أعلى القطاة فتَزْلَقِ
فأدبرنَ كالجَزْعِ المفصَّل بينه ... بجِيدِ الغُلام ذِي القميصِ المُطوَّقِ
وَأدرَكَهُنّ ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ ... كغيثِ العَشِيّ الأقهبِ المتودّقِ
فصاد لنا عَيْرًا وثورًا وخاضبًا ... عِداءً وَلمْ يَنضَحْ بماءٍ فيَغرَقِ

وَظَلَّ غُلامي يُضْجِعُ الرُّمحَ حَوْلَه ... لِكُلِّ مَهَاةٍ أوْ لأَحْقَبَ سَهْوَقِ
وقام طوال الشخص إذ يخضبونه ... قِيَامَ العَزِيزِ الفَارِسيِّ المُنَطَّقِ
فَقُلنَا: ألا قَد كانَ صَيْدٌ لِقَانِصٍ ... فخَبّوا عَلَينا كُلَّ ثَوْبٍ مُزَوَّقِ
وَظَلَّ صِحَابي يَشْتَوُون بنَعْمَةٍ ... يصفّون غارًا باللكيكِ الموشّقِ

أما الأبيات التى نحن مقبلون عليها الآن، وهى للمَلِك الضِّلِّيل أيضا، فتوسع فى الحديث عن نزوله هو وأصحابه فى بعض الطريق بغية الأكل والاستراحة حيث نصبوا لأنفسهم ما يشبه الخيمة يستترون بها، ثم راحوا بعد ذلك يتناولون ما أعدوه من شواء لم يجدوا بدا حين انتهوا منه من مسح أيديهم فى أعراف خيولهم لعدم وجود مناديل معهم. كذلك لم يَفُت الشاعرَ التلفتُ حوله وتسجيلُ ما كان يراه من حيوان وحشى يقف على مقربة منهم ويتطلع إليهم بعيونه التى تشبه حبات الجَزْع غير المثقوب كما يقول، والجَزْع حجر كريم تُتَّخَذ منه العقود التى تزين نحور الجميلات، وهو تشبيه عجيب. وهناك كلمة ليست شائعة الاستعمال فى الأدب العربى حتى فى القديم منه هى كلمة "نَمُشّ"، ولها علوق بالقلب رغم ذلك. وهى قريبة من "نَمَسّ"، وإن لم يقتصر معناها على مجرد المس، بل تضم إليه أيضا معنى مسح اليد فى شىء خشن بغية إزالة ما علق بها من دسم. وهذه هى الأبيات:

وقلت لفتيانٍ كرامٍ: ألا انزلوا ... فعَالَوْا علينا فَضْل ثوب مطنَّبِ
وأوتاده مازِيَّةٌ، وعِمَاده ... رُدَيْنِيَّةٌ فيها أسنّةُ قُعْضُبِ

وأطنـــابه أشطان خُوص نجـــائب	وصهـــوته من أَتْحَميّ مُشَـــرْعَب
فَلَمّا دَخَلنـــاهُ أَضَفـــنا ظُهـــورَنا	إلى كُلّ حـــاريّ جَديـــد مُشَطَّب
فظـــلّ لنا يـــوم لذيـــذ ونعمـــة	فقُـــلْ في مَقيل نَحْســـه متغـــيِّب
كأنّ عيـــون الوحش حول خبائنا	وأرحُلنا الَجـْــزعُ الذي لم يثقّـــب
نَمُشّ بأعـــراف الجيـــاد أكُفّنـــا	إذا نحن قمـــنا عن شـــواء مضَهّب
إلى أن تروّحْنـــــا بـــلا متعنّت	عليـــه كسيد الردهـــة المتـــأوِّب

ونظل مع امرئ القيس فى لهوه، ولكن فى غير ميدان القنص، أو قل: إنه فى ميدان القنص أيضا، إلا أنه قنص من نوع آخر، قنص المرأة لا قنص الحيوان. وفى الأبيات التى سنوردها من فَوْرنـــا يـــروى لنـــا الشاعر، صدقًا أو كذبًا، بعض مغامراته فى دنيا النساء حيث يتبـــدى شخصا عابثا فاجرا لا يرعوى عن فاحشة، بل يباهى بما يجترحه مـــن عدوان على الحرمات والأعراض حين يتسلل فى جنح الليل البهيم إلى حيث اتَّعَد مع إحدى صواحبه فى الخلاء، أو إلى حيث يقـــتحم علـــى أخرى خباءها، وهى تناشده أن يتركها ولا يفضحها، إلا أنها مناشدة غير صادقة فيما يبدو، وإلا ما استجابت له رغم ذلك وتمادت معـــه فيما أراده منها... إلخ. وهو فى كل ذلك يصف حبيباته وصفًا حيًّـــا عجيبًا ويحكى ما وقع منهن ومنه غير متحرج من شىء، مُوردًا كـــثيرا من التفصيلات الدالة التى تعيد لنا المنظر والحدث كأنهما ابنا اللحظة، مشهِّرًا بهن لما مَرَد عليه من استهتار، إذ كان ابنَ مَلِك لا يبالى بما يأتى أو يَدَع. وعجيب أنه، حين يصور ما يقع من النساء من تصـــرفات أو

ما يصدرِ عنهن من كلام، قادر على تقمصهن فكأن امرأة هى التى تتكلم أمامنا أو تتصرف لا أننا نقرأ شعرا:

ويوم دخلتُ الخِدْرَ خدر عُنَيْزَةٍ   فقالت: لك الويلات إنكَ مُرجِلي

تقولُ وقد مالَ الغَبيطُ بنا معًا: عَقَرْتَ بعيري يا امرأ القيس، فانزلِ

فقُلتُ لها: سيري وأرْخي زِمامَهُ   ولا تُبعديني من جَنَاك المعلَّلِ

فمِثْلكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ   فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ

إذا ما بكى من خلفها انْصَرَفَتْ لهُ   بشِقٍّ، وَتحتي شِقُّها لم يُحَوَّلِ

ويومًا على ظهر الكثيبِ تعذَّرت   عَليّ وَآلَتْ حَلْفَةً لم تَحَلَّلِ

أفاطِمُ، مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ   وإن كنتِ قد أزمعت صَرْمي فأجملي

وَإنْ تكُ قد ساءتكِ مني خَليقَةٌ   فسُلّي ثيابي من ثيابكِ تَنْسُلِ

أغَرّكِ مني أنّ حُبّكِ قاتلي   وأنكِ مهما تأمري القلب يفعلِ؟

ومَا ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلا لتَضْربي   بسَهْمَيكِ في أعشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خباؤها   تَمَتّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعجَلِ

تجاوزتُ أحْراسًا إلَيها ومَعْشَرًا   عليّ حِراصًا لو يُسِرّون مقتلي

إذا ما الثريا في السماء تعرضت   تعرُّضَ أثناء الوشاح المفصَّلِ

فجِئتُ وقد نَضَّتْ لنَومٍ ثيابَها   لدى السِّترِ إلاّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ

فقالت: يمين الله ما لكَ حيلةٌ   وما إن أرى عنك الغوايةَ تنجلي

خَرَجْتُ بها أمشي تَجُرّ وَراءَنا   على أثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

فلما أجزْنا ساحةَ الحيّ وانتحى   بنا بطنُ خَبْتٍ ذي حِقافٍ عَقَنْقَلِ

هصرتُ بِفَوْدَيْ رأسها فتمايلت   عليّ هضيمَ الكَشحِ رَيّا المُخلخَلِ

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ   ترائبها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ

كبِكْرِ المُقاناةِ البَياضِ بصُفْرَةٍ   غذاها نميرُ الماء غيرَ المحلَّلِ

تصدّ وتُبْدِي عن أسيلٍ وتتّقي ... بناظرَةٍ من وَحْش وَجْرَةَ مُطْفِلِ
وجِيد كجِيد الرئم ليس بفاحِش ... إذا هيَ نصّتْهُ وَلا بمُعَطّلِ
وفرعٍ يُغَشّي المتنَ أسودَ فاحم ... أثيتٍ كقِنْو النخلةِ المتعثكلِ
غدائرهُ مستشزِراتٌ إلى العُلَى ... تضِلّ المدارِي في مُثَنًّى ومُرْسَلِ
وكَشْحٍ لطيفٍ كالجديل مخصّرٍ ... وساقٍ كأنبوبِ السّقِيّ المُذلّلِ
وَتَعْطو برَخصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنّهُ ... أساريعُ ظبي أو مساويكُ إسْحلِ
تُضيء الظلامَ بالعشاء كأنها ... منارةُ مُمْسَى راهبٍ متبتّلِ
وتُضْحي فَتِيتُ المِسكِ فوق فراشها ... نؤومُ الضُحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفضُّلِ
إلى مثلها يرنو الحليمُ صبابةً ... إذا ما اسبكَرّتْ بينَ درْعٍ ومِجْوَلِ
تسلّتْ عَمايات الرجالِ عن الصِّبا ... وليسَ صِبايَ عن هواها بمُنْسَلِ
ألا رُبّ خَصْمٍ فيكِ ألْوَى رَدَدتُه ... نصيحٍ على تَعْذَالِه غير مُؤْتَلِ

وتبقى الأبيات التالية، وهى لسلامة بن جندل، وفيها يصور انتصار قومه على أعدائهم ساردا ما وقع لكل واحد من كبار محاربى أولئك الأعداء: فمنهم من صُرِع فى التراب، ومنهم من نجّاه الفرار من الهلاك، إذ نالته طعنة كان من شأنها أن تُرْدِيَه قتيلا لولا أن أجله لم يحن بعد، ومنهم من وقع أسيرا فى أيديهم فاقتادوه إلى مضاربهم مكبلا بالأغلال تتفرج عليه نساء القبيلة ويشمتن به وبقومه. وكما نرى فهو يطلعنا فى كل لوحة على صورة من صُوَر تلك الهزيمة التى مُنِيَ بها هؤلاء الأعداء. والملاحظ أنها مجرد سرد ووصف لا حوار فيها ولا

توسع فى التفاصيل، إلا أن الروح القصصية ظاهرة فيها رغم ذلك:

ومَن كانَ لا تُعتَدُّ أيّامُهُ لَهُ ... فأيّامُنَا عَنَّا تُجَلِّي وتُغْرِب

جَعلَنا لَهمْ ما بَينَ كُتلةَ رَوْحَةً ... إلى حيثُ أوفى صوَّتيه مثقَّبُ

غداةَ تركنا في الغبار ابن جحدرٍ ... صَرِيعًا، وأطرافُ العَوالي تَصبَّبُ

لَقُوا مِثلَ ما لاقَى اللُّجَيْمِيُّ قَبلَهُ ... قتادة لَمّا جاءنا وهو يطلبُ

فآبَ إل حجرٍ، وقد فضَّ جمعهُ ... بأخبثِ ما يأتِي به متأوِّبُ

وقد نالَ حدُّ السيفِ منْ حُرّ وجههِ ... إلى حيثُ ساوى أنفهُ المتنقِّبُ

وجشَّامةُ الذُّهليُّ قد وسجتْ به ... إلى أهلِنا مَخزومةٌ، وهْوَ مُحْقَبُ

تَعرَّفُهُ وسْطَ البُيوتِ مُكَبَّلاً ... ربائبُ من أحسابِ شيبانَ تثقبُ

وهوذةَ نجّى بعدَ ما مالَ رأسهُ ... يَمانٍ إذا ما خالَطَ العَظمَ مخذَبُ

فأمسَكَهُ مِن بَعدِ ما مال رأسُهُ ... حِزامٌ على ظَهرِ الأغَرِّ وقَيقَبُ

غداةَ كأنَّ ابني لجيمِ ويشكرًا ... نعامٌ بصحراءِ الكديدينِ هُرَّبُ

ونتقل إلى القصص النثرى الجاهلى، وهأنذا أورد بعضا من نماذجه المبثوثة فى كتب الأدب المختلفة، ونبدأ بكتاب "أخبار النساء" لابن الجوزى الذى نقرأ فيه القصة التالية، وهى قصة من قصص العشق والمؤامرات تتمتع بمستوى فنى راق: ففيها العقدة، وفيها التشويق، وفيها الرسم المتقن للشخصيات، وفيها الحوار المحكم الموجز المنْبى عن طبيعة المتحدثين، وفيها النهاية التى تجمع بين المفاجأة وعدم مصادمة منطق الحياة فى نفس الآن. وهى ترينا أن الطبيعة البشرية، مهما يكن من علوّ

نفس صاحبها، لا تسلم عادةً من بعض العيوب التى قد تكون عيوبا مخيفة كما هو الحال فى أمر النعمان بن المنذر. كما تقوم العقدة فيها على المكر وأخذ الآخرين بالحيلة الخفية الدقيقة التى تخدع المحتال عليه وتوهمه أنها تبغى مصلحته، ليكتشف فى النهاية بعد أن تقع الفأس فى الرأس، أنه كان ضحية حيلة مزعجة حيكت بمهارة شديدة فلم يتبين له ساعتَها وجهُ الحق فيها. ولا ينبغى أن يفوتنا هنا النص على اختلاط النثر والشعر فى القصة، وإن اقتصر العنصر الشعرى هنا على بيت واحد فى النهاية. ولنلاحظْ كيف رُوِيَت القصة كما كانت تُرْوَى الأحاديث النبوية والأخبار التاريخية وكثير من حكايات العرب وأقوالهم، وذلك باتباع أسلوب العَنْعَنَة، إذ بدأت على النحو التالى: "حكى الهيثم بن عَديّ عن الكَلْبيّ قال: كان مُلْك النعمان بن المنذر أربعين سنةً لم يُرَ منه في مُلْكه سقطة غير هذه: وذلك أنّه ركب يومًا فنظر إلى امرأة خارجة من الكنيسة فأعجبه جمالها وحسنها وهيئتها، فقال: عليَّ بعَديّ بن زيد، وكان كاتبَه وخاصّتَه. فقال له: يا عَديّ، قد رأيت امرأةً لئن لم أظفر بها إنّه هو الموت. فلا بدّ في أن تتلطّف في الجمع بيني وبينها. قال: ومن هي؟ قال: قد سألتُ عنها فقيل لي: امرأة حَكَم بن عوف، رجلٌ من أشراف أهل الحيرة. قال: فهل أَعْلَمْتَ بذلك أحدًا؟ قال: لا. قال: فاكتمه. فإذا أصبحتَ

فجُدْ بكلّ كرامةٍ لنزيلك. يريـــد حَكَـــم بـــن عـــوف. فلمّـــا أذن للنّاس بدأ به وأكرمه وأجلسه معه على ســـريره، فأَعْجَـــب النّـــاسَ حالُه وتحدّثوا به. فلمّا أمســـى فـــأذن للنّـــاس بـــدأ بـــه فأكرمـــه وأجلسه معه وكساه وجمّله، ففعل بـــه ذلـــك أيّامًـــا. ثمّ قـــال لـــه عدي: أيّها الملك، عندك عشر نسوة، فطلّقْ أقلّهـــنّ عنـــك منزلـــةً ثمّ قل له: فليتزوّجها. ففعل، فلمّا دخل عليه قال لـــه: يـــا حكـــم، إنّي قد طلّقت فلانةً لك فتزوَّجْها. فقال حكم لعـــدي: مـــا صـــنع الملك بأحد ما صنع بي، ولا أدري بم أكافئـــه. فقـــال لـــه عـــدي: طلّق امرأتك كما طلّق امرأته. ففعـــل، وحَظِـــيَ عـــدي بهـــا عنـــد الملك، وعلم الرّجل أنّه مَكَر به في امرأتـــه. وفيهـــا يقـــول بعـــض أهل الحيرة:

ما في البريّة من أنثى تعـــادلها إلاّ التي أخذ النّعمان من حَكَمِ"

أما القصة التالية، وهى مأخوذة مـــن كتـــاب "الأغـــانى" لأبى الفرج الأصفهانى، فبطلها كُلَيْب بـــن ربيعـــة، وهـــو شـــيخ قبيلـــة مستبد لا يبالى بكرامـــة أحـــد ولا بحقوقـــه، بـــل يعامـــل الجميـــع بعَسْفٍ وتعالٍ واحتقار لا يُعْفِى أحدا من ذلك ولـــو كـــان صـــهرا له، مما أدى فى النهاية إلى أن قتلـــه أخـــو زوجتـــه واضـــعًا بـــذلك أخته فى كرب عظيم، إذ كانت بين نارين: نار الحـــزن علـــى مقتـــل زوجها، ونار الخوف من انتقام أهله من أخيها. يقـــول أبـــو الفـــرج فى ذلك:

"وكان السبب في قتل كليب بن ربيعة... أن كُلَيْبًا كان قد عَزّ وساد في ربيعة فبَغَى بَغْيًا شديدًا. وكان هو الذي يُنْزِلهم منازلهم ويرحِّلهم، ولا يترلون ولا يرحلون إلا بأمره. فبلغ من عزه وبَغْيه أنه اتخذ جَرْو كلب، فكان إذا نزل مترلاً به كَلأٌ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه. وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يَرِدُها أحد إلا بإذنه أو مَنْ آذَنَ بحرب، فضُرب به المثل في العز فقيل: أعزّ من كُلَيْب وائل. وكان يحمي الصيد ويقول: صيد ناحية كذا وكذا في جواري، فلا يصيد أحد منه شيئًا. وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس، ولا يحتبي أحد في مجلسه غيره، فقتله جساس بن مرة... وكان كليب بن ربيعة ليس على الأرض بَكْريٌّ ولا تَغْلبيٌّ أجار رجلاً ولا بعيرًا إلا بإذنه، ولا يحمي حمًى إلا بأمره، وكان إذا حمى حمًى لا يُقْرَب. وكان لمُرّة بن ذُهْل بن شيبان بن ثعلبة عشرة بنين جسّاسٌ أصغرهم، وكانت أختهم عند كليب. وخالة جساس البَسُوسُ، فجاءت فترلت على ابن أختها جساس فكانت جارةً لبني مُرّة، ومعها ابن لها، ولهم ناقة خوّارة من نَعَم بني سعد، ومعها فَصيل. أخبرني علي بن سليمان قال: قال أبو برزة: وقد كان كليب قبل ذلك قال لصاحبته أخت جساس: هل تعلمين على الأرض عربيًّا أمنع مني ذمّةً؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية فسكتت، ثم أعاد عليها الثالثة

فقالت: نعم أخي جساس ونَدْمانه ابن عمه عمرو المزدلف بن أبي ربيعة بن ذُهْل بن شيبان. وزَعَم مقاتل أن امرأته كانت أخت جساس. فبينا هي تغسل رأس كليب وتسرّحه ذات يوم إذ قال: مَنْ أعَزُّ وائل؟ فصمتت، فأعاد عليها. فلما أكثر عليها قالت: أخواي جساس وهمام! فنزع رأسه من يدها وأخذ القوس فرمى فصيل ناقة البسوس خالة جساس وجارة بني مُرّة فقتله، فأغمضوا على ما فيه وسكتوا على ذلك. ثم لقي كليبٌ ابنَ البسوس فقال: ما فعل فصيل ناقتكم؟ قال: قتلتَه وأخليتَ لنا لبن أمه. فأغمضوا على هذه أيضًا. ثم إن كليبا أعاد على امرأته فقال: من أعز وائل؟ فقالت: أخواي. فأضمرها وأسرّها في نفسه وسكت حتى مرت به إبل جساس فرأى الناقة فأنكرها، فقال: ما هذه الناقة؟ قالوا: لخالة جساس. قال: أوقد بلغ من أمر ابن السعدية أن يُجِير عليَّ بغير إذني؟ ارم ضرعها يا غلام. قال فراس: فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة فاختلط دمها بلبنها، وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر، فقال: احلبوا لها مكيالَيْ لبنٍ بمحلبها، ولا تذكروا لها من هذا شيئًا. ثم أغمضوا عليها أيضًا. قال مقاتل: حتى أصابتهم سماء، فغدا في غِبّها يتمطر. وركب جساس بن مرة وابن عمه عمرو بن الحارث بن ذهل، وقال أبو برزة: بل عمرو بن أبي ربيعة، وطعن عمرو كليبًا فحطم صلبه. وقال أبو برزة: فسكت

جساس حتى ظعن ابنا وائل، فمرت بكر بن وائل على نِهْيٍ يقال له: شبيث، فنفاهم كليب عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على نِهْيٍ آخر يقال له: الأحصّ، فنفاهم عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على بطن الجَرِيب فمنعهم إياه فمضَوْا حتى نزلوا الذنائب، واتّبعهم كليب وحَيُّه حتى نزلوا عليه. ثم مر عليه جساس وهو واقف على غدير الذنائب فقال: طردتَ أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا! فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون. فمضى جساس ومعه ابن عمه المزدلف. وقال بعضهم: بل جساس ناداه فقال: هذا كفعلك بناقة خالتي. فقال له: أَوَقَدْ ذَكَرْتَهَا؟ أما إني لو وجدتها في غير إبل مُرّة لاستحللت تلك الإبل بها. فعطف عليه جساس فرسه فطعنه برمح فأنفذ حضنيه، فلما تداءمه الموت قال: يا جساس، اسقني من الماء. قال: ما عَقَلْتَ استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه؟ قال أبو برزة: فعطف عليه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة فاحتزّ رأسه".

والآن أود من القارئ أن يطالع القصة التالية التى تختلف عما مر بنا حتى الآن من قصص، إذ هى قصة رمزية بعضُ أبطالها من الحيوان الذى يتكلم كما يتكلم الآدميون، ويشعر كما يشعر الآدميون، ويجادل كما يجادل الآدميون، وعنده الحكمة والحذر كما عند الآدميين. جاء فى كتاب "الأمثال"

للمفضَّل الضَّبِّيّ: "زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما فأجدبت بلادهما، وكان قريبًا منهما وادٍ فيه حية قد حمته من كل واحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو أني أتيت هذا الوادي المُكْلِئ فرعيْتُ فيه إبلي وأصلحتها، فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية. ألا ترى أن أحدًا لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكتْه؟ قال: فوالله لأهبطنّ. فهبط ذلك الوادي فرعى إبله به زمانًا، ثم إن الحية لدغته، فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبنّ الحية فأقتلها أو لأتبعنّ أخي. فهبط ذلك الوادي فطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أني قتلتُ أخاك؟ فهل لك في الصلح فأَدَعَك بهذا الوادي فتكون به وأعطيك ما بقيت دينارًا في كل يوم؟ قال: أفاعلةٌ أنتِ؟ قالت: نعم. قال: فإني أفعل. فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضيرها، وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثر ماله ونمت إبله حتى كان من أحسن الناس حالًا. ثم ذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟ فعمد إلى فأس فأَحَدّها ثم قعد لها فمرت به فتبعها فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها فأثر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه، فلما رأى ذلك وتخوف شرّها نَدِم وقال لها: هل لكِ في أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: كيف

أعاودك وهذا أثر فأسك، وأنت فاجر لا تبالي العهد؟ فكان حديث الحية والفأس مثلاً مشهورًا من أمثال العرب".

ومن هذا النص يتبين لنا أن قَصَص الحيوان فى الأدب العربى لم ينتظر حتى يضع ابن المقفع كتابه: "كليلة ودمنة"، إذ ها هم أولاء الجاهليون يجعلون من الحيوانات أبطالا لقصصهم، ويُنْطقونهم بذات اللغة التى يتحدثونها، ويُضْفُون عليهم سائر الخلال البشرية كما سلف القول. وهناك قصَصٌ جاهليةٌ أخرى عن الحيوان: منها قصة قيام الضَّبّ بالقضاء فى الخصومة التى كانت بين الأرنب والثعلب، وقصة الضب والضفدع، وقصة الغراب الذى أراد أن يقلد العصفور، وقصة النعامة التى ذهبت تطلب قرنين، وقصة برّ الهدهد بأمه، وقصة الرَّخَم الحكيم. وكذلك قصة الغراب والديك، وفيها أن الديك كان نديما للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمّار ولم يعطياه شيئا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن بعد أن رهن صديقه عند الخمار، لكنه غدر به فبقى فى الحبس. وهناك أيضا قصة الضبع والذئب، وملخَّصها أن الضبع وجدت تمرة فاختلسها الذئب فلطمته فتحاكما إلى الضب، فقالت: يا أبا الحَسِيل. قال: سميعًا دعوت. قالت: جئناك نحتكم إليك. قال: في بيته يُؤْتَى الحَكَم. قالت: إني التقطت تمرة. قال: حُلْوًا جنيت. قالت: إن الثعلب أخذها. قال: حَظٌّ نفسه بَغَى. قالت: لطمتُه. قال:

أشفَيْتِ، والبادي أظلم. قالت: فلطمني. قال: حُرٌّ انتصر لنفسه. قالت: اقْضِ بيننا. قال: قضيت"... وغير ذلك مما يجده القارئ فى "الحيوان" للجاحظ و"الشعر والشعراء" لابن قتيبة و"الأذكياء" لابن الجوزى و"خزانة الأدب" للبغدادى وغيرها.

وأترك هنا القارئ مع القصة التالية، وأبطالها من الملوك ورجال البلاط، وتدور حول ضعف البشر أمام نداء قلوبهم حتى لو عرفوا أن فى ذلك حتفهم. وهى قصة الزَّبَّاء وجَذِيمة الأبرش المشهورة، وقد أخذناها من كتاب ابن الجوزى: "الأذكياء": "قال هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كان جَذِيمة بن مالك ملكًا على الحيرة وما حولها من السواد. مَلَكَ ستين سنة، وكان به وَضَح، وكان شديد السلطان يخافه القريب ويهابه البعيد، فنُهِيَت العرب أن يقولوا: الأبرص، فقالوا: الأبرش. فغزا مليحَ بن البرء، وكان ملكًا على الحضر، وهو الحاجز بين الروم والفرس، وهو الذي ذكره عَدِيّ بن زيد في قصيدة منها هذا البيت:

وأخو الحضْر إذ بناه وإذ دجلة تُجْبَى إليه والخابور

فقتله جذيمة وطرد الزباء إلى الشام فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان حسنة البيان شديدة السلطان كبيرة الهمة. قال ابن الكلبي: لم يكن في نساء عصرها أجمل منها. وكان اسمها فارغة، وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها، وإذا نشرته جلَّلها فسُمِّيَتْ: الزباء.

قال الكلبي: وبُعِث عيسى بن مريم عليه السلام بعد قتل أبيها فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديار أبيها ومَلَكَتْها، فأزالت جذيمةَ الأبرش عنها وابتنت على الفرات مدينتين متقابلتين من شرقي الفرات ومن غربيه وجعلت بينهما نفقًا تحت الفرات. وكان إذا راهقها الأعداء أوت إليه وتحصنت به. وكانت قد اعتزلت الرجال فهي عذراء، وكان بينها وبين جذيمة بعد الحرب مهادنة. فحدَّث جذيمة نفسَه بخِطْبتها فجمع خاصّته فشاورهم في ذلك، وكان له عبد يقال له: قصير بن سعد، وكان عاقلاً لبيبًا، وكان خازنَه وصاحبَ أمره وعميدَ دولته. فسكت القوم وتكلم قصير فقال: أَبَيْتَ اللعن أيها الملك، إن الزباء امرأة قد حرَّمت الرجال فهي عذراء لا ترغب في مال ولا جمال، ولها عندك ثأر، والدم لا ينام. وإنما هي تاركتك رهبةً وحذارَ دولة. الحقد دفين في سويداء القلب له كُمُون ككُمُون النار في الحَجَر، إن اقتدحتَه أَوْرَى، وإن تركته توارى. وللمَلك في بنات الملوك الأكْفاء متَّسع، ولهن فيه منتفَع. وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك وعظَّم شأنك، فما أحد فوقك. فقال جذيمة: يا قصير، الرأي ما رأيتَ، والحزم فيما قلتَه، ولكن النفس تواقة إلى ما تحب وتهوَى، ولكل امرئ قَدَرٌ لا مفر له منه ولا وَزَر. فوجَّه إليها خاطبًا وقال: ائت الزباء فاذكر لها ما يرغِّبها فيه وتصبو إليه. فجاءها خِطْبته، فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له: انْعَمْ بك عَيْنًا وبما جئتَ به وله. وأظهرتْ له السرور به والرغبة فيه

وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه، وقالت: قد كنتُ أضربتُ عن هذا الأمر خوفًا أن لا أجد كفؤًا. والملك فوق قدري، وأنــا دون قــدره، وقد أجبتُ إلى ما سألَ ورغبتُ فيما قال. ولولا أن السعي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرتُ إليه ونزلتُ عليه. وأهدتْ إليه هديةً سَنِيَّة: ساقت العبيد والإماء والكُرَاع والسلاح والأموال والإبــل والغــنم، وحملتْ من الثياب والعَيْن والوَرِق. فلما رجع إليه خطيبه أعجبه مــا سمع من الجواب وأبهجه ما رأى من اللطف وظن أن ذلــك لحصــول رغبة، فأعجبته نفسه وسار من فوره فيمن يثق به من خاصته وأهــل مملكته، وفيهم قصيرٌ خازنه، واستخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عَديّ اللَّخْميّ، وهو أول ملوك الحِيرة من لخم. وكان مُلْكه عشــرين ومائة سنة، وهو الذي اختطفته الجن وهو صبي، وردَّته وقــد شــب ونبر. فقالت أمه: أَلْبِسوه الطوق. فقال خاله جذيمة: شب عمرو عــن الطوق، فصارت مثلاً. فاستخلفه وسار إلى الزباء فلما صار ببقَّة نزل وتصيد وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأي من أصحابه فســكت القوم وافتتح الكلامَ قصيرُ بن سعد، قال: أيها الملك، كل عزم لا يؤيَّد بحزم فما يكون. فلا تثق بزخرف قول لا حصول له، ولا تعتقد الرأي بالهوى فَيَفْسُد، ولا الحزم بالمنى فَيَبْعُد. والــرأي عنــدي للملــك أن يعتقب أمره بالتثبت ويأخذ حذره بالتيقظ، ولولا أن الأمــور تجــري بالمقدور لعزمتُ على الملك عزمًا بَتًّا ألاّ يفعل. فأقبــل جذيمــة علــى الجماعة فقال: ما عندكم أنتم في هذا الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا

من رغبته في ذلك وصوّبوا رأيه وقوّوْا عزمه. فقال جذيمة: الرأي للجماعة، والصواب ما رأيتم. فقال قصير: أرى القدَر يسابق الحذَر، ولا يطاع لقصير أمر. فأرسلها مثلاً. وسار جذيمة، فلما قرب من ديار الزباء نزل وأرسل إليها يعلمها بمجيئه، فرحبت وقربت وأظهرت السرور به والرغبة فيه، وأمرت أن يُحْمَل إليه الأنزال والعلوفات، وقالت لجندها وخاصة أهل مملكتها وعامة أهل دولتها ورعيتها: تلقَّوْا سيدكم ومَلك دولتكم. وعاد الرسول إليه بالجواب بما رأى وسمع، فلما أراد جذيمة أن يسير دعا قصيرًا فقال: أنت على رأيك؟ قال: نعم، قد زادت بصيرتي فيه. أفأنت على عزمك؟ قال: نعم، وقد زادت رغبتي فيه. قال قصير: ليس للأمور بصاحب، من لم ينظر في العواقب. وقد يُسْتَدْرَك الأمر قبل فواته. وفي يد المَلك بقية هو بها مسلَّط على استدراك الصواب، فإن وثقتَ بأنك ذو مُلْك وعشيرة ومكان فإنك قد نزعت يدك من سلطانك وفارقت عشيرتك ومكانك وألقيتَها في يَدَيْ من لست آمَنُ عليك مكره وغدره. فإن كنتَ ولا بد فاعلاً لهواك تابعًا فإن القوم إن تلقَّوْك غدًا فِرَقًا وساروا أمامك وجاء قوم وذهب قوم فالأمر بَعْدُ في يدك، والرأي فيه إليك. وإن تلقَّوْك رَزْدَقًا واحدًا وأقاموا لك صفين حتى إذا توسطتهم انقضوا عليك من كل جانب فأحدقوا بك فقد ملكوك وصرتَ في قبضتهم. وهذه العصا لا يُشَقّ غبارها. وكانت لجذيمة فرس تسبق الطير وتجاري الريح يقال لها العصا. فإذا كان كذلك فتملَّكْ ظهرها، فهي ناجية بك إن ملكت

ناصيتها. فسمع جذيمة ولم يردّ جوابًا، وسار. وكانت الزباء لما رجع رسول جذيمة من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمة غدًا فتلقَّوْه بأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وشماله، فإذا توسط جمعكم فتعرّضوا عليه من كل جانب حتى تُحْدقوا به، وإياكم أن يفوتكم. وسار جذيمة وقصير عن يمينه، فلما لقيه القوم رزدقًا واحدًا أقاموا له صفين، فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانب انقضاض الأجدل على فريسته فأحدقوا به، وعلم أنهم قد ملكوه. وكان قصير يسايره فأقبل عليه وقال: صدقتَ يا قصير. فقال قصير: أيها الملك، أبطأتَ بالجواب حتى فات الصواب. فأرسله مثلاً. فقال: كيف الرأي الآن؟ قال: هذه العصا، فدُونَكَها لعلك تنجو بها. فأنفَ جذيمة من ذلك وسارت به الجيوش. فلما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأسر وأيقن بالقتل جمع نفسه فصار على ظهر العصا وأعطاها عنانها وزجرها، فذهبت تَهْوِي به هُوِيّ الريح. فنظر إليه جذيمة وهي تطاول به، وأشرفت الزباء من قصرها فقالت: ما أحسنكَ من عروس تُجْلَى عليّ وتُزَفّ إليّ، حتى دخلوا به إلى الزباء ولم يكن معها في قصرها إلا جَوَارٍ أبكارٍ أتراب. وكانت جالسة على سريرها وحولها ألف وصيفة كل واحدة لا تشبه صاحبتها في خلق ولا زي، وهي بينهن كأنها قمرٌ قد حفّت به النجوم تزهو. فأمرت بالأنطاع فبُسِطَتْ، وقالت لوصائفها: خذوا بيد سيّدكن وبَعْل مولاتكنّ. فأخذن بيده فأَجْلَسْنه على الأنطاع بحيث يراها وتراه وتسمع كلامه ويسمع كلامها، ثم

أمرت الجواري فقطعن رواهشه، ووضعت الطَّسْت تحت يده، فجعلت تشخب في الطست، فقطرت قطرة على النِّطْع، فقالت لجواريها: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: لا يحزنك دم أراقه أهله. فلما مات قالت: والله ما وَهَى دمُك ولا شَفَى قتلُك، ولكنه غَيْضٌ من فَيْض. ثم أمرت به فدُفن. وكان جذيمة قد استخلف على مملكته ابن أخته عَمْرَ بن عدي، وكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر ويقتفي الأثر عن خاله، فخرج ذات يوم فنظر إلى فارس قد أقبل يهوي به فرسه هُوِيَّ الريح، فقال: أما الفرس ففرس جذيمة، وأما الراكب فكالهيمة. لأمر ما جاءت العصا. فأشرف عليهم قصير فقالوا: ما وراءك؟ قال سعى المقدَّر بالملك إلى حتفه، على الرغم من أنفي وأنفه، فاطلب بثأرك من الزباء. فقال عمرو: وأي ثأر يُطْلَب من الزباء، وهي أمنع من عُقَاب الجو؟ فقال قصير: قد علمتَ نصحي كان لخالك، وكان الأجل رائده. والله لا أَنِي عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس أو أُدْرِك به ثأرًا أو تُخْتَرَم نفسي فأُعْذَر. ثم إنه عمد إلى أنفه فجدعه ثم لحق بالزباء على صورة كأنه هارب من عمرو بن عدي. قيل لها: هذا قصير بن سعد عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد جاءك. فأذنت له فقالت: ما الذي جاءك إلينا يا قصير، وبيننا وبينك دم عظيم الخطر؟ فقال: يا ابنة الملوك العظام، لقد أتيتُ فيما يُؤْتَى مِثْلُك في مثله. ولقد كان دم الملك يطلبه حتى أدركه. وقد جئتك مستجيرًا بك من عمرو بن عدي، فإنه اتهمني بخاله وبمشورتي عليه

بالمسير إليك، فجدع أنفي وأخذ مالي وحال بيني وبين عيالي وتَهَدَّدني بالقتل. وإني خَشيتُ على نفسي فهربت منه إليك. أنا مستجير بـــك ومستند إلى كهف عزك. فقالت: أهلاً وسهلاً، لك حق الجوار وذمـــة المستجير. وأمرتْ به فأُنزِل، وأَجْرَتْ له الأنزال ووصـــلته وكسَـــتْه وأخدمتْه وزادت في إكرامه. وأقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه، وهـــو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها، وكانت ممتنعة بقصرٍ مَشيدٍ على باب النفق تعتصم به فلا يقدر أحد عليها. فقال لها قصير يومًـــا: إن لي بالعراق مالاً كثيرًا وذخائر نفيسة مما يصلح للملوك. وإن أذنت لي في الخروج إلى العراق وأعطيتني شيئًا أتعلل به في التجارة وأجعلـــه سببًا للوصول إلى مالي أتيتك بما قدرتُ عليه من ذلك. فأذنـــت لـــه وأعطته مالاً، فقدم العراق وبلاد كسرى فأطرفها من طرائفه وزادهـــا مالاً إلى مالها كثيرًا، وقدِم عليها فأعجبها ذلك وسَرَّها وتَرَتَّـــبَ لـــه عندها منزلة. وعاد إلى العراق ثانية فقدم بأكثر من ذلك طُرَفًـــا مـــن الجواهر والبَزّ والخَزّ والديباج، فازداد مكانه منـــها وازدادت منزلتـــه عندها ورغبتها فيه. ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفـــق الذي تحت الفرات والطريق إليه. ثم خرج ثالثة فقـــدِم بـــأكثر مـــن الأُولَيَيْن ظرائف ولطائف فبلغ مكانه منها وموضـــعه عنـــدها إلى أن كانت تستعين به في مهمّاتها وملمّاتها، واسترسلت إليـــه وعوَّلـــت في أمورها عليه. وكان قصير رجلاً حسن العقل والوجه حصـــيفًا لبيبًـــا أديبًا، فقالت له يومًا: أريد أغزو البلد الفلاني من أرض الشام، فاخرجْ

إلى العراق فأتني بكذا وكذا من السلاح والكُرَاع والعبيد والثيـــاب. فقال قصير: ولي في بلاد عمرو بن عدي ألف بعير وخزانة من السلاح والكُرَاع والعبيد والثياب، وفيها كذا وكذا، وما يعلم عمرو بها، ولو علمها لأخذها واستعان بها على حربك. وكنت أتربص به المنون وأنا أخرج متنكرًا من حيث لا يعلم فآتيك بها مع الذي سألت. فأعطتــه من المال ما أراد وقالت: يا قصير، الــمُلْك يحسن لمثلك، وعلى يــد مثلك يصلح أمره. ولقد بلغني أن أمر جذيمة كان إيرادُه وإصـــدارُه إليكم، وما تَقْصُر يدك عن شيء تناله، ولا يقعد بك حال ينـــهض بي. وسمع بها رجل من خاصة قومها فقال: أسدٌ خادرٌ، وليث ثائر قد تحفز للوثبة. ولما رأى قصير مكانه منها وتمكّنه من قلبها قال: الآن طـــاب المصَاع. وخرج من عندها فأتى عَمْرَ بن عدي فقـــال: قـــد أصــبتَ الفرصة من الزباء، فانهض فعجِّل الوثبة. فقال له عمرو: قل أَسْــمَع، ومُرْ أفعل، فأنت طبيب هذه القرحة. فقال: الرجال والأموال. قـــال: حكمك فيما عندنا مسلَّط. فعمد إلى أَلْفَيْ رجل مـــن فتيـــان قومـــه وصناديد أهل مملكته فحملهم على ألف بعـــير في الغرائـــر الســـود وألبسهم السلاح والسيوف والحَجَف وأنـــزلهم في الغرائـــر وجعـــل رؤوس المسوح من أسفالها مربوطة من داخل، وكان عمـــرو فـــيهم. وساق الخيل والعبيد والكُرَاع والسلاح والإبل محملة، فجاءها البشير فقال: قد جاء قصير. ولما قرب من المدينة حمل الرجـــال في الغرائـــر متسلحين بالسيوف والحَجَف وقال: إذا توسطت الإبل مدينة الزبـــاء

فالأمارة بيننا كذا وكذا، فاخترطوا الرُّبُط. فلما قربت العير من مدينة الزباء رأت الإبل من قصرها تتهادى بأحمالها فارتابت بها. وقد كان وُشيَ بقصير إليها وحُذِّرَتْ منه، فقالت للواشى به: إن قصيرًا اليوم منا، وهو ربيب هذه النعمة، وصنيعة هذه الدولة. وإنما يبعثكم على ذلك الحسدُ. ليس فيكم مثله. فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشي به إليها، فقالت:

ما للجمال مَشْيِها وئيدًا؟ أجندلا يحملن أم حديدا

أم صرفانًا باردًا شديدًا أم الرجال في الْمُسُوح سُودا؟

ثم أقبلت على جواريها فقالت: أرى الموت الأحمر في الغرائر السود. فذهبت مثلاً. حتى إذا توسطت الإبلُ المدينة وتكاملت ألقَوْا إليهم الأمارة فاخترطوا رؤوس الغرائر، فسقط إلى الأرض ألفا ذراعٍ بألْفَيْ باترٍ طالب ثأر القتيل غدرًا. وخرجت الزباء تَمْصَع تريد النفق، فسبقها إليه قصير فحال بينهما وبينه. فلما رأت أنْ قد أُحيط بها ومُلِكَتْ التقمت خاتَمًا في يدها تحت فَصّه سُمّ ساعة، وقالت: بيدي لا بيدك يا عمرو. فأدركها عمرو وقصير فضرباها بالسيف حتى هلكت، وملكا مملكتها واحتويا على نعمتها. وخَطَّ قصير على جذيمة قبرًا وكتب على قبره هذه الأبيات يقول:

مَلِكٌ تمتَّعَ بالعساكر والقنا والمشرفيّة، عزُّه ما يُوصفُ

فسعت منيّته إلى أعدائه وهو المتوّج، والحسام المرهفُ

الأمثـال

"الأمثال" جمع "مَثَل"، وهو جملة مـن القـول مقتطَعـة مـن كلام أو مرسلَة لذاتها تُنقَل مما وردت فيـه إلى مُشَـابهه دون تغـيير بغية الاستشهاد بها. وبعض الأمثال قد يكـون مسـجوعا متوازنـا، وإن لم يكن هذا شرطا لا بـد منـه. وتمتـاز هـذه الجملـة بأنها تلخَص الموقف أو الجدال أو التعليق وتَجْسِمه علـى خـير وجـه، وبأنها قصيرة لا تتجـاوز بضـع كلمـات، وبأنهـا مـن الحيويـة والسلاسة وحلاوة الصـياغة وبراعـة التصـوير وتعـدُّد الأبعـاد بحيث يُكْتَب لها السيرورة والانتشار على ألسـنة النـاس، وبأنهـا لا تخلو فى كثير من الأحيان من موعظة أو حكمة.

وقد كتب حنا الفـاخورى زاعمـا أن الأمثـال الجاهليـة، لكونها "كلام الشعب فى جميع طبقـاتهم، فقـد جـاءت فى أكثرهـا غير مصقولة كما فى قولهم: أول مـا أَطْلَـعَ ضَـبٌّ ذَنَبَـه" (حنـا الفاخورى/ تاريخ الأدب العـربى/ ٢٠٢). وهـذا حكـمٌ جُـزَافٌ لا معنى له ولا دليل عليه، وليس فى عبارة المثـل الـذى أورده مـا يدل على ركاكة أو ضعف فى الصياغة البتـة، بـل تجـرى علـى فحولة الصياغة العربية. وفى كتب النحـو والصـرف كـلام عـن هذا التركيب يجده القارئ فى نهاية باب المبتـدإ والخـبر، إذ يـذكر العلماء عدة مواضع يجب فيهـا حـذف الخـبر منـها أن يكـون المبتدأ مضافا إلى مصدرٍ عاملٍ فى اسمٍ مفسِّرٍ لضـميرٍ لـه حـال لا

يصح ورودها خبرا، مثل: "أَكْثَرُ شُرْبِى السَّوِيق ملتوتا" و"أَخْطَبُ ما يكون الأمير قائما"، والمثل الذى بين أيدينا يقترب جدا من المثال الأخير كما نرى، إلا أن المعمول هنا (وهو "ذَنَبه") مفعول لا حال. ولو أردنا أن نصوغ المثل صياغة عاديّة لقلنا: "أول شيء يُطْلِعه الضَّبُّ من جحره هو ذَنَبُه". وعلى هذا فكلام الفاخورى مجرد دعوى فارغة من المضمون. وقد أكد د. شوقى ضيف بحق أن "طائفة من هذه الأمثال تدخل فى الصياغة الجاهلية البليغة، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صيفى وعامر بن الظَّرِب، وكان خطباؤهم المُفَوَّهون كثيرا ما يعمدون إلى حشدها فى خطاباتهم". بل إننى لأزعم، دون أدنى مبالغة فيما أحسب، أن معظم هذه الأمثال هى نموذج للصياغة البليغة الجزلة بعكس ما يهرف به الفاخورى. أما قول الدكتور شوقى ضيف إن "بعض الأمثال تخالف قواعد النحو والتصريف" فربما يكون كلامنا أدق لو قلنا إنها قد تخالف ما نعرفه من هذه القواعد، إذ كان الواجب أن يجعل علماء النحو والصرف تلك الأمثال مصدرا من المصادر التى اعتمدوا عليها فى استخلاص قواعدهم لا أن يحكّموا تلك القواعد فى مثل هذه النصوص الجاهلية التى يصعب أن يكون قد دخلها تغيير يُذْكَر، إن كان قد دخلها أى تغيير على الإطلاق كما قال الأستاذ الدكتور نفسه (د. شوقى

ضيف/ العصر الجاهلى/ ٤٠٤، ٤٠٨)، على عكس ما يؤكد ك. أ. فارق (K. A. Fariq) فى الصفحة الثالثة والثلاثين من كتابه: "History of Arabic Literature"، إذ يقول إن النثر الجاهلى كله (بما فيه الأمثال طبعا)، شأنه شأن الشعر فى ذلك العصر، قد دخله تحريف كثير من قِبَل الرواة، الذين زيفوه وبدّلوه وأضافوا إليه وحذفوا منه وشوّهوه، وذلك دون أن يدعم زعمه هذا بأى برهان، على الأقل فيما يخص الأمثال التى، نظرا لإيجازها الشديد وكثرة ترديدها واستمرار الاستشهاد بها والحرص التام على استعمالها كما نُطِق بها لأول مرة دون أى تحوير، يصعب جدا جدا أن ينالها شىء من هذا الذى قال. وسوف نتوسع بعض التوسع فى معالجة النقطة الخاصة بدعوى مخالفة الأمثال الجاهلية لقواعد النحو والصرف فيما بعد.

ونبدأ بالجانب اللغوى: وهناك ألفاظ كان الجاهليون يعرفونها ويستعملونها ولا يجدون فيها غرابة، لا فى وَقْعها على الأذن ولا فى وقعها على الذهن، ولا تشكّل لهم من ثَمّ أية صعوبة فى فهم دلالتها، بَيْدَ أن الأمر الآن قد تغير، فأضحت تلك الألفاظ لا تستعمل، وآضَتْ بحاجة إلى من يشرح للقراء معانيها، إذ اللغة تتطور كما يتطور كل شىء فى الحياة، فيموت بعض ألفاظها ولو إلى حين، وتجدّ عليها ألفاظ لم تكن معروفة

من قبل، أو على الأقل لم تكن شائعة الاستعمال كما هو الحال الآن... وهكذا.

وقد استطعت أن ألتقط بعضا من تلك الألفاظ التى تحتاج إلى من يشرحها للقارئ العصرى، إما لأنها غريبة عليه تماما، وإما لأنها، وإن لم تكن غريبة عليه فى ذاتها، فهى غريبة عليه بمعناها القديم، إذ أصبحت تعنى فى لغتنا الحالية معنى آخر غير الذى كان لها قبلا، أو هى غريبة عليه بصيغتها لكونه يعرف لذلك المعنى صيغة أخرى. ومن هذا النوع من الألفاظ "الاحتلاط: الغضب" (أوَّل العِيِّ الاحتلاط)، و"القَيْن: الحداد" (إذا سمعتَ بسُرَى القَيْن فإنه مُصْبِح)، و"الصَّريح: اللبن الذى ليس فوقه رُغْوَة" (أَبْدَى الصريحُ عن الرُّغْوة)، و"العِذْرة: العُذْر"، و"الحَقين: الوَطْب الذى يُحْقَن باللبن" (أَبَى الحَقينُ العِذْرة)، و"ارْجَحَنّ: مال" و"الشَّاصِى: الرافع رجله" (إذا ارْجَحَنّ شاصيًا فارفع يدا)، و"القِدْح: السهم الذى كانوا يستقسمون به، أى يحاولون أن يعرفوا به الغيب حسبما كانوا يتوهمون" (أَبْصِرْ وَسْمَ قِدْحك)، و"الشِّرْب: نصيب الشخص أو الحيوان من الماء" (آخرُها أقلُّها شِرْبا)، و"العقِى (وجمعه "أعقاء"): ما يخرج من الصبى عند ولادته" (احْذَر الصبيان لا تُصِبْكَ بأعقائها)، و"الذِّلّ (وجمعه "أذلال"): السهولة" (أَجْرِ الأمور على أذلالها)، و"الحَسّ: الاستئصال"، و"الأَسّ: الأصل"

(ألْصِق الحَسّ بالأسّ)، و"السَّلَى: مشيمة الحُوَار، وهو الجَمَل الوليد" (انقطع السَّلَى فى البطن)، و"الوَذَم: سيور تُربَط بها أطراف العَرَاقِىّ، وهى الخشبتان اللتان تكونان على حافة الدلو يُحْمَل منهما، أو الخشبتان اللتان تصلان بين وسط الرَّحْل والمؤخّرة، والمفرد: عَرْقُوَة" (أُمِرَّ دون عُبَيْدَة الوَذَمُ: لم يستشره أحد فى الأمر لهوان شأنه)، و"البَعَاع: المتاع والثقل" (ألقى عليه بَعَاعَه: ألقى عليه نفسه من حُبّه له)، و"الزُّخَارِىّ: النبت عند ارتفاعه" (أخذت الأرض زُخَارِيَّها: اكتملت وبلغت الغاية)، و"الرَّطيط: التذمر" (أرِطّى، إن خيرك فى الرَّطيط)، و"العَقَنْقَل: المُصْران" (أعط أخاك من عَقَنْقَل الضَّبّ: أعطه من كل ما معك مهما يكن تافها)، و"حَظَبَ يَحْظُب: سَمِنَ" (أعْلُل تَحْظُب)، و"النَّجيث: ما كان خافيا فظهر" (بدا نجيث القوم)، و"الحُذَيَا: العطيّة" (بين الحُذَيَا والخُلْسَة: إما أن تعطيه مما معك وإما اختلسه منك، أى أنه لا فَكَاك من أخذه منك ما معك)، و"الطِّرِّيقة: اللين والضعف"، والعِنْدَأْوَة: العِنَاد" (تحت طِرِّيقته عِنْدَأْوَة)، و"الثَّأْطَة: الطين" (ثأطةٌ مُدَّتْ بماء: بمعنى "زاد الطينَ بِلّة")، و"الجَدْح: الشُّرْب" ("جَدْحَ جُوَيْنٍ من سَويقِ غيره". وجُوَيْن: اسم شخص، والسَّويق نوع من الطعام)، و"القُذَّة: الريشة التى تركّب على السهم" (حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة)، و"هَرَاق: أرَاق" ("خَلِّ سبيلَ مَنْ وَهَى سِقاؤه، ومَنْ هُرِيق

بالفلاة ماؤه"، لأنه لا أمل فى صلاحه)، و"اليَلْمَع: السراب" (أخذَل من يَلْمَع)، و"الدَّبَرِىّ: الذى يأتى بعد فوات الأوان" (شرّ الرأى الدَّبَرِىّ)، و"الحَقْحَقَة: السَّيْر السريع الشديد" (شرّ السير الحَقْحَقَة)، و"الجِرْوَة: النَّفْس" (ضَرَب على الأمر الفلانى جِرْوَته: وطّن نفسه عليه)، و"الهِلْباجة: النؤوم الكسلان، أو الثقيل الجافى" (أعجز من هِلْباجة)، و"غَشَمْشَم: غَشُوم" (غشمشمٌ يَغْشَى الشجر: يُفْسد كل شىء ولا يبالى، كالثور فى محل الخزف)، و"القُرَاب: القُرْب" (الفِرَار بقُراب أكيس: الفرار قبل التورط فى المهلكة أفضل من التمادى فى الأمر)، و"القَطُوف: البطىء المتأنى فى مشيته"، و"الوَسَاع: المسرع السابق" (القَطُوف يَبْلُغ الوَسَاع: قد يلحق المتأنى المتعجِّلَ)، و"الكِفْت والوَئِيّة: القِدْر الصغيرة والكبيرة" (كِفْتٌ إلى وَئِيّة: تقال لمن لا يكتفى بتحميل صاحبه المكروه الكبير، بل يُلْحق به مكروها آخر)، و"البِضَاع: الجِمَاع" (كمعلّمة أمها البِضَاع)، و"جَلَل: صغير" (كلُّ شىءٍ أخطأ الأنفَ جَلَل)، و"اليَهْيَرّ: السراب" (أكْذَب من اليَهْيَرّ)، و"لِحَام: لحوم" (لكنْ لحامٌ بشَرْمَةَ لا تُجَنّ)، "بَلَّت: ابتُلِيت" (ما بَلِلْتُ من فلان بأفْوَقَ ناصِل: ظهر أنه رجل صعب المراس. والأفوق الناصل: السهم المكسور)، و"وَدَّعَ نفسه: أراحها. وهو مأخوذ من الدَّعَة لا من التوديع" (من لم يَأْسَ على ما فات ودَّعَ نفسه)، و"العَبَكَة: ما

يعلق بأصواف الغنم من بَعْرها" (مـــا أُباليـــه عَبَكَـــةً)، و"مُخْرَنْبِـــقٌ لِيَنْبَاع"، أى لاطئٌ بالأرض ينتـــهز فرصـــة ليثـــب علـــى عـــدوه، و"تعَظْعَظَ: اتَّعَظ" (لا تَعِظِينى وتَعَظْعَظِى).

وثمة جانب فى الأمثال يحسن أن نتناوله ضـــمن مـــا نتنـــاول منها هنا، ألا وهو الألفاظ العارية. والواقع أن مثـــل هـــذه الألفـــاظ لا تظهـــر بقـــوة فى الأمثـــال الجاهليـــة ولا فى الأمثـــال العربيـــة الفصيحة بوجه عام، وربما لم يكن هناك منـــها فى الأمثـــال الجاهليـــة التى وقعت لى فى كتاب "جمهرة الأمثـــال" لأبى هـــلال العســـكرى إلا "الضُّرَاط" و"الاسْت" و"الخُرْء"، فضـــلاً عـــن قلـــة ورود هـــذه الألفاظ فى حد ذاها. وقد كنت أحسب أن مثل هـــذا النـــوع مـــن الألفاظ ســـيكون كـــثيرا فى كـــلام الجـــاهليين نظـــرًا لخشـــونتهم وبداوهم وعدم احتشام وثنيتهم، إلا أن الواقع جـــاء شـــيئا آخـــر غير ما كنا نتصور، على الأقل طبقـــا لمـــا تقولـــه أمثـــالهم فى هـــذا الشأن. وهذه بعض شواهد على ورود هـــاتين اللفظـــتين فى تلـــك الأمثال: "أَضَرِطًا وأنـــت الأعلـــى؟"، "أَضَـــرِطًا آخـــر اليـــوم؟"، "اسْتُ البائن أعلم"، "اسْتٌ لم تُعَوَّد المِجْمَرَ"، "قـــد يَضْـــرِط العَيْـــرُ والمِكْواة فى النار"، "خَرِئَتْ بينهم الضبع".

وهناك، إلى جانب ما مرّ، صـــيغ صـــرفية وتراكيـــب نحويـــة لم تعد تستخدم الآن، مثل اســـتعمال "لـــيس" فى موضـــع حـــرف العطف "لا" كما فى المثل التالى: "إنما يَجْزى الفـــتى لـــيس الجمـــل"،

وهو استعمال لـ"ليس" لا يعرفه كثير منا، يضاف إلى استعمالها أداة استثناء كما فى قولنا: "قام الطلاب ليس عَلِيًّا"، أى قاموا إلا عَلِيًّا. ومن هذه التراكيب أيضا حذف خبر "أنَّ" رغم عدم تقدم ما يدل عليه، إلا أنه مفهوم من السياق كما فى الشاهد التالى: "أَشْبَهَ شَرْجٌ شَرْجًا لو أن أُسَيْمِرًا"، إذ المعنى أن هذا المكان هو فعلا المكان الذى يسمَّى "شرجًا"، إلا أن الأُسَيْمِر (أى شجرات السَّمُر) التى كنت أعبدها فيه ليست موجودة. وتمام الكلام إذن هو: "أَشْبَهَ شَرْجٌ شَرْجًا لو أن أُسَيْمِرًا كنت أعبدها من قبل كانت هناك". ولعل القارئ قد تنبه إلى تصغير صيغة الجمع فى "أَسْمُر" (جمع "سَمُرَة")، وتصغير صِيَغ الجمع كما هى (أى دون ردّها إلى صيغة المفرد أوّلاً) ممنوع بوجه عام فى اللغة العربية حسبما هو معروف، اللهم إلا ما نَصَّ عليه الصرفيون، وهو جموع تكسير القِلّة، ومنها صيغة "أَفْعُل" التى بين أيدينا. كذلك يعرف الملمّون بالنحو العربى أن هناك مواضع تحذف فيها "كان" واسمها، لكن ليس من بينها "إلا"، التى نلاحظ فى الشاهد التالى كيف أن قائل المثل قد حذف بعدها "كان" واسمها مثلما يحذفهما العرب بعد "لو" كما فى قول الرسول الكريم مثلا: "التمس ولو خاتَمًا من حديد"، أى ادفع أى مهر حتى لوكان هذ المهر مجرد خاتَمٍ من حديد لا قيمة له، وكذلك بعد "إنْ" المكرَّرة كما فى مثل قوله عليه

السلام: "الناس مجزيُّـون بأعمـالهم: إنْ خَيْـرًا فخَيْـرٌ، وإنْ شـرًّا فشَرٌّ"، أى إن كان العمل المجزيّـون بـه خـيرًا فـالجزاء خَيْـرٌ، أو كان هذا العمل شرًّا فالجزاء شَرٌّ. ونَـصّ المثـل هـو: "إلاّ حَظِيَّـةً فلا أَلِيَّةٌ"، أى "إذا لم يكن أمرك هو الحظـوة عنـد مـن تريـد أن يكرمك فلا تَأْلُ أن تتودد له". ومن الشواهد الـتى جـاءت فيهـا " كان" واسمها محذوفين قولهم فى المثل التالى: "قـد قيـل ذلـك إنْ حقًّا وإنْ كذبًا"، أى قيل ما قيـل، وانتـهى الأمـر، سـواء كـان الكلام المَقُول حقا أو كذبا. كذلك انظـر إلى المثـل التـالى: "أنـا غَرِيرُك من الأمر" (ومعناه: "أنا عالم بالأمر علمًـا يجعلـنى أجيبـك فى أى أمر منه حتى لو كان سؤالك على حـين غِـرّة") كيـف أدى التركيبُ فيه إلى المعنى المقصود رغـم أنـه لا يـدل عليـه دلالـة مباشرة لا تُحْوِج إلى شرح. وهناك أيضـا المثـل التـالى بتركيبـه الذى لا يقابلنا فى فصحانا المعاصرة رغـم اسـتمراره فى العاميّـة: "أَعْوَرُ، عَيْنَكَ والحَجَرَ"، فهو يدل على التحذير مـن خطـر يتهـدد المخاطب، وهو هنا الحجر الذى يمكن أن يصـيب عـين الأعـور، مع ملاحظة أن كـلا مـن المهـدِّد (الحجـر) والمهـدَّد (العـين) منصوب كما هو واضح. وهـو تركيـب لا يسـتعمل الآن إلا فى العامية كما قلت، بل لا أظنـه مـن التراكيـب الـتى تقابلنـا فى النصوص القديمة كـثيرا. ولا تـنس أن أداة النـداء قـد حُـذفت كذلك فى الـنص، إذ الأصـل: "يـا أعـور"، والمقصـود: "أيهـا

الأعور، احذر أن يصيب عينَك الوحيـدةَ الباقيـةَ حجـرٌ يـذهب ببصرها أيضا فتصبح أعمى تماما".

أما فى قولهم: "أَحَشَفًا وسُوءَ كِيلـة؟" فقـد حُـذف الفعـل وفاعله، وهو استنكار لجمـع الشـخص بـين خَلَّـتين سـيئتين فى تعامله مع الناس بدلا من الاقتصار علـى واحـدة منـهما ليسـت فى ذاتها بالقليلة. ومثله قولهم فى مثـلٍ آخـر: "أغَيْـرَةً وجُبْنـا؟"، وهو مثل تقوله الزوجة لرجلها الذى يغـار أشـد الغـيرة عليهـا، لكنه من الجبن بحيث لا يحاول الـدفاع عنـها إذا تعـرض عِرْضـه للعدوان. وهناك صيغة صرفية قـابلتنى فى الفعـل: "أَنْجَـدَ" مـن قولهم: "أَنْجَدَ من رأى حَضَنًا" (إشـارةً إلى الوصـول إلى الغايـة)، وهى صيغة "أَفْعَلَ" للفعل الماضى المشـتق مـن اسـم بلـد مـا أو مدينة من المدن، كقـولهم: "أَعْـرَقَ، وأَشْـأَمَ، وأَعْمَـنَ، وأَيْمَـنَ، وأَمْنَى"، أى وصل العراق أو الشام أو عمـان أو الـيمن أو مِنًـى أو شارف الوصول. و"حَضَنٌ" اسم جبل مشـهور فى نجـد. وثمـة صيغة جمعية لا نستخدمها عادةً فى الموضـع الـذى جـاءت فيـه، وهى صيغة "أفعال" فى قولهم: "أجناؤهـا أبناؤهـا" (جمـع "جـان" و"بانٍ") بدلا من "جُنَاتُها بُنَاتُهـا"، أى أن مـن جَنَـوْا عليهـا (أى هدموها) هم أنفسهم الذين سبق أن بَنَوْهـا. وهـى صـيغةٌ جمعيـةٌ قليلةُ الاستعمال فى هذا الموضع حسبما قلنـا كمـا فى "صـاحب: أصحاب" و"شاهد: أشهاد"، ولكنـها ليسـت خاطئـة كمـا قـد

يُفهَم من كلام د. شوقى ضيف، الـــذى علـــق علـــى هـــذا المثـــل قائلا إن "القياس "جُنَاتُهـــا بُنَاتُهـــا" لأن "فـــاعلاً" لا يُجْمَـــع علـــى "أفعال"..." (د. شوقى ضيف/ العصـــر الجـــاهلى/ ٤٠٨)، وفاتـــه أن القرآن نفسه قد استخدم "أشـــهاد" فى موضـــعين منـــه (هـــود/ ١٨، وغافر/ ٥١)، ومثلها "أصحاب"، الـــتى تكـــررت فيـــه نَيِّفًـــا وسبعين مرةً، وهما جمع "شاهِد" و"صاحِب" علـــى التـــوالى، ولـــيس بعد قول الله قول. كذلك ذكر عبـــاس أبـــو الســـعود فى كتابـــه: "الفيصل فى ألوان الجمـــوع" (دار المعـــارف/ ١٩٧١م/ ٤٠) أنـــه ورد عن العرب أيضا "قابِس: أَقْباس" و"جاهِـــل: أَجْهـــال". أمـــا فى قولهم: "إذا جاء الحَيْن، حَـــارَ العـــين" فـــنلاحظ تـــذكير الفعـــل: "حَار" رغم إسناده لمؤنـــث، وهـــو اســـتعمال صـــحيح لأن لفظـــة "العين"، وإن كانت مؤنثة، فتأنيثها مجازى، أى أنهـــا ليســـت كائنـــا حيًّا له عضو أنوثة كالمرأة والدجاجة مـــثلا، ومـــن ثم جـــاز فى لغـــة الضاد تذكير فعلها.

ومن التركيبات اللافتة للنظر اكتفاؤهم بالحـــال فقـــط مـــن بين أركان الجملة جميعا كما فى المـــثلين التـــاليين: "أَضَـــرِطًا وأنـــت الأعلى؟"، "أضَرِطًا آخر اليوم؟". أمـــا فى قـــولهم فى المثـــل التـــالى: "اقْلِبْ قَلابِ" (أى اقلب الكلام وعُدْ إلى ما قلتَه مـــن قبـــل. وهـــو مثل يُضْرَب للرجل تكون منه سقطة فيتداركها بـــأن يقلبـــها عـــن جهتها ويصرفها عن معناها) فعنـــدنا صـــيغة "فَعَـــالِ" الـــتى تعـــنى

"افْعَلْ"، مثل "دَرَاكِ"، "نَـزَالِ"، أى أدْرِكْ، وانْـزِلْ. ومـن أسمـاء الأعلام التى قابلتنى فى أمثال الجاهليين علـى هـذه الصـيغة أيضـا اسم "عَرَارِ"، وهو من أسماء الأعـلام المؤنثـة، وقـد ورد فى المثـل التالى: "بـاءت عَـرَارِ بكَحْـلِ"، أى أن عـرار وكحـلاً بقرتـان متساويتان لا تفضل إحداهما الأخرى، فـإذا أخَـذْتَ هـذه بـدلا من تلك، أو تلك بدلا من هـذه، لم تخسـر شـيئا. ولـنلاحظ أن هذا الاسم، رغم مجيئه فـاعلا، قـد بُنـيَ علـى الكسـر، وهـذا إعرابه دائما فى لغة الحجازيين مهمـا تغـيرت وظيفتـه فى الجملـة. ومنه أيضا ما ورد فى الأمثال التالية: "اسْـقِ رَقَـاشِ، إنهـا سـقّاية" (اسم امرأة كريمة)، "القـولُ مـا قالـت حَـذَامِ" (اسـم امـرأة اشتهرت بصحة رأيها)، "أجرأ من خاصي خَصَـافِ" (اسـم فـرس خصاه صاحبه كى لا يأخذه منـه ملـك أعجبـه الفَـرَس وأراد أن يستولى عليه)، "رُوغِي جَعَارِ، وانظـرى أيـن المفـرّ" (اسـم عَلَـم على الضبع)، "أزْنَـى مـن سَـجَاحِ" (وهـى الكاهنـة التميميـة المشهورة التى ادعت النبوة عنـد مـوت الـنبى عليـه السـلام ثم فاءت إلى الإسلام كرة أخرى، وكان لهـا مـع مسـيلمة الكـذاب قصة معروفة هى التى شَهَرَتْها بهذا المثل)، "صَـمِّى صَـمَامِ" (اسـم للداهية. وهو مثل يقال عند استفظاع الداهية تعـبيرا عـن الضـيق بها والرغبة فى انقشاعها). بيد أن هـذه الصـيغة لا تبلـغ غرابـة صيغة "فُعَيْلَـى" التى نقابلها فى الشـاهد التـالى مـرتين: "الأخـذ

سُـرَّيْطَى، والقضـاء ضُـرَّيْطَى"، أى هـو فى الاستدانة لطيـف المعشر، لكنه عند الدفع يستحيل شخصًا شَكِسًـا سَـيِّئ الذمـة. وفى قولهم: "أخذه الله أخذ سَبْعَة" نراهم يسـمون اللبـؤة: "سَـبْعة" (تأنيث "سَبْع")، ولا يعرف هـذه التسـمية إلا الأقلـون، ومَثَلُهـا فى هذا مَثَلُ "رَجُلَة" (مؤنث "رَجُل") بدلا من "امرأة".

وفى بعض الأمثال نلاحظ إيراد الحـرف "مـا" قبـل الفعـل المتأخر عن شبه الجملة، وذلـك لتأكيـد المعـنى، ومثلـه قـولهم: "باليدين ما أَوْرَدَها زائدةُ" (و"زائـدة" اسـم رجـل)، "بعَـيْنٍ مـا أَرَيَنَّك"، "قبلك ما جاء الخبر"، "لـك مـا أبكـى، ولا عَبْـرَةً بى"، "وبالأشْقَيْنَ ما حَلَّ العِقَابُ". كما أن هنـاك مـثلا واحـدا علـى الأقل تكررت فيه "بين" مع اسمـين ظـاهرين علـى خـلاف مـا يدعى بعض اللغويين المتنطِّسين من أن مثل هـذا التكـرار لا تجيـزه العربية، ثم اتضح لى منـذ سـنوات غـير قليلـة أن ذلـك غـير صحيح، إذ وجـدتُ فى الشـعر الجـاهلى والإسـلامى والأمـوى عشرات الشواهد التى تدل على أنه لـيس فى هـذا التكـرار مـا يعاب من جهة الأسـلوب العـربى الأصـيل، وإن لم يـرد ذلـك التركيب فى القرآن، إذ القرآن الكـريم لا يسـتوعب، كمـا هـو معروف، كل إمكانات اللغـة، فهـو كتـاب سمـاوى لا معجـم لغوى. وعلى أية حال هذا هو المثل المذكور: "بـين المطيـع وبـين المُدْبِر العاصى"، أى أنـه لا يوثَـق بموقفـه، فهـو متذبـذب بـين

الطاعة والمعصية، فأيتهما أمكنته جرى فى طريقها. ومن التراكيب التى قابلتنى هنا أيضا وأرى أنه ينبغى التلبث عندها قليلا التركيب الذى عليه المثلان التاليان: "جَارِى بَيْتَ بَيْتَ"، "وقعوا فى حَيْصَ بَيْصَ"، ببناء الكلمتين على الفتح كما هو واضح، وهو مثل قولهم: "صباحَ مساءَ"، "ليلَ نهارَ"، "أحدَ عشرَ". وقد أجريتُ التعبير العامى: "خَبْطَ لَزْقَ" عليه واستعملته فى كتاباتى مطعِّما الفصحى به على طريقتى فى إغناء لغة الكتابة بما أرى استعارته من العامية بعد إجرائه على مقتضيات قواعد النحو والصرف. ويمكن أن نلحق به الكلام فى الجملة التالية: "اذهب إلى المكان الفلانى جَرْىَ جَرْىَ"... وهكذا.

ومما لفت انتباهى من التراكيب التى قابلتنى فى الأمثال الجاهلية ما ورد فى قولهم: "حَبَّ شيئًا إلى الإنسانِ ما مُنِعَا"، الذى استُخْدِم فيه الفعل "حَبَّ" بدلا من "أفعل التفضيل" (هكذا: "أحَبُّ شىءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا")، مع نَصْب "شىء" لا جَرّه كما يلاحظ القارئ. وهناك أيضا تركيب آخر للدلالة على التفضيل وردت منه أمثلة فى الشواهد التالية من أمثال العرب القدماء، وهى: "فتًى ولا كمَالِكٍ"، "مَرْعًى ولا كالسَّعْدان"، "ماءٌ ولا كصَدّاء"، فالاسم الذى بعد "ولا" مفضَّل على ما قبلها. وقريب منه قولهم: "المنيَّةُ ولا الدنيَّة"،

"النارُ ولا العارُ"، وإن كان التفضيل فى هذا التركيب الأخير للمذكور أوّلاً، وهو "المنيّة" و"النار" على الترتيب. أما فى المثلين التاليين اللذين يجريان فى تركيبهما على ذات المنوال فإن المعنى يختلف عما نحن إزاءه، ففى قولهم: "مرعًى ولا أكولةٌ"، و"عشبٌ ولا بعيرٌ" لا مجال للتفضيل، بل المقصود التحسر على توفر المرعى والعشب بغزارة، ولكن دون فائدة، إذ لا وجود للماشية التى يمكن أن تأكله. وبالنسبة لكلمة "رُوَيْد" فلا أظننا الآن نعرفها إلا فى قولنا: "رُوَيْدًا يا فلان" أو "رُوَيْدَك يا فلان"، بَيْدَ أن العرب القدماء كانوا يتصرفون فيها أوسع من ذلك كما فى المثلين التاليين: "رُوَيْدَ الشِّعْرَ يَغِبَّ" (انتظر قليلا حتى ينتشر الشِّعْر بما فيه من مدح أو هجاء ويعمل عمله فى العقول)، "رُوَيْدَ الغَزْوَ ينمرقْ". ولاحظ كيف أن الاسم بعد "رُوَيْدَ" يكون منصوبا. وللنحاة فى هذا التركيب كلام يعللون به هذا الإعراب، وأرى أننا لا ينبغى أن نجرى مع تقديرات النحاة التى لا تسير على منطق اللغة الواضح المستقيم، بل نكتفى بالقول هنا إن الاسم الواقع بعد"رُوَيْدَ" ("رُوَيْدَ" دون تنوين) يكون منصوبا، والسلام، وذلك دون أن نعنّى أنفسنا بالبحث عن السبب فى هذا النَّصْب خارج تلك الدائرة. ثم إنه قد يلى هذه الكلمةَ فعلٌ كما فى المثل التالى: "رُوَيْدَ يَعْلُون الجَدَد"، أى ارفق حتى يمكننى الأمر. وبالمثل لا أحب أن نرهق

أنفسنا مع الصرفيين فى توجيه صيغة الكلمة، وهل هى تصغير "رُود" طبقًا لما يقول به بعضٌ أو "إرواد" بناءً على ما يقوله آخرون؟

وهناك صيغة صرفية أخرى لم تعد تستخدم أيضا على نطاق واسع، وهى الأسماء التى على وزن "فُعْلَى"، إذ لا يفد على ذهنى منها الآن إلا "العُقْبَى" (أى "العاقبة") و"الشُّورَى" و"النُّعْمَى" (أى "النعمة")، و"البُقْيَا: أى الإبقاء"، و"الدنيا". وفى القرآن، إلى جانب ذلك، "الرُّجْعَى" (بمعنى "الرجوع") و"السُّوأى" (أى "السُّوء")، و"اليُسْرَى"، و"العُسْرَى". ومن أسماء النساء عند العرب "سُعْدَى" و"سُلْمَى"، وفى الأمثال التى بين أيدينا نجد أيضا "رُغْبَى" و"رُهْبَى": "رُهْباك خيرٌ من رُغْباك"، أى رهبتك خير من رغبتك. والمعنى أنك لا تأتى ما تأتى من أعمال الخير عن رغبة منك وحب بل عن رهبة وخوف. أما الاسم "خَفَيْدَد: الظليم (أى ذَكَر النعام)" فى المثل التالى: "أَشْرَه من خَفَيْدَد" فقد جاء على صيغة لا أظننى قابلت اسما آخر على وزنها من قبل، إذ هو وزن نادر لا أستطيع أن أتذكر اسما من الأسماء المصبوبة فيه، وإن كان هناك "سَمَيْدَع: الشريف الشجاع" مثلا، إلا أنه صفة لا اسم.

ومن التراكيب التى وجدتها فى أمثال الجاهليين أيضا قولهم: "عَذْوَكَ إذ أنت رُبَع" لتحميس الشخص ليبذل أقصى ما

عنده كما كان يفعل أيام الشباب والحيوية. و"العَدْو" هو الجرى السريع، و"الرُّبَع" هو الجمل فى شبابه. والشاهد فى الكلام هو نصب "عَدْوَك" على الإغراء، والإغراء باب من أبواب النحو معروف، وإن لم يكن هذا التركيب مما ينتشر فى الأسلوب العصرى على نطاق واسع. أما المثل القائل: "عسى الغُوَيْرُ أَبْؤُسًا" فهو يخالف القاعدة العامة التى تقول إن خبر"كاد" وأخواتها لا يكون إلا جملة فعلية فعلها مضارع: مع "أنْ" أو بدونها حسب حالة كل فعل منها، إذ الخبر هنا مفرد لا جملة، فكأنهم قد أَجْرَوْا "عسى" فى هذا المثل مجرى "كان" وأخواتها. وبالمناسبة فهذا المثل هو أحد الشواهد فى كثير من كتب النحو على ذلك الاستعمال. وهناك استعمال آخر لـ"عسى" يسوّيها بـ"لعلّ"، فينصب اسمها ويرفع خبرها، الذى يمكن فى هذه الحالة أن يكون مفردا أو شبه جملة، ومنه ما كنا نسمعه من السعوديين حين يهنئ بعضهم بعضا بالعيد فيقولون: "عساكم من عُوّاده". وبالمثل نجد أهل اللغة المهتمين بصحة الأساليب يخطّئون مجىء "لا" بين "قد" والمضارع قائلين إنه ينبغى فى هذه الحالة الاستعاضة بـ"ربما" عن "قد" فلا يقال مثلا: "قد لا ألعب"، بل لا بد من تغييرها إلى "ربما لا ألعب". وقد غَبَرَ علىّ زمن كنت أخطّئ من يفعل ذلك، ثم جاء وقت ظننت أن هذا تحكم لا معنى له، كما وجدت فى كتاب

محمد العدنانى: "معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة" بعض الشواهد على صحة هذا التركيب منها بيت شعر للأعشى هذا نَصُّه:

وقد قالت قُتَيْلَةُ إذ رأتنى وقد لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًا

وهو مَثَلٌ يُضْرَب للشيء الرائع الذى لا يخلو أن يجد من يعيبه رغم هذا، وإن كانوا يحذفون منه "قد". وهناك بيت آخر للنمر بن تَوْلَب الشاعر المُخَضْرَم، أورده العدنانى أيضا، ونصه:

وأَحْبِبْ حبيبك حُبًّا رُوَيْدًا فقد لا يَعُولك أن تَصْرِما

إلى جانب عبارتين لابن جنى وابن مالك صاحب الألفية، وهما من كبار النحاة وأهل اللغة.

ثم بدا لى، وأنا أكتب هذه الدراسة، أن أراجع الشعر القديم فى "الموسوعة الشعرية" الضوئية مجتهدا ما استطعتُ مقاومة الملل والضيق أثناء بحثى عن الشواهد المرادة، لكنى، فى حدود ما تنبهتُ وغالبتُ ملل البحث فى أكوام ذلك الشعر، لم أتنبه إلى وجود شواهد أخرى تسوّغ موقفى الجديد، وهأنذا أعود فأرى أن من الأفضل لى أنا شخصيا مما لا أُلْزِم به غيرى تجنُّبَ استعمال ذلك التركيب فى كتاباتى بما فيها الرسائل الشخصية التى لم أكن أتحرز فيها تحرزى فى الكتابات الرسمية والأدبية، والعَوْد أحمد كما يقولون. بَيْدَ أننى قد عثرت رغم ذلك بالمَثَل التالى أثناء قراءتى لكتاب أبى هلال العسكرى

الحالىّ: "جمهرة الأمثال"، وقائله رجل جاهلى هو سعد بن زيد مناة التميمى، قاله بعد أن شاخ وأضحى لا يستطيع أن يسوق بنفسه جمله الذى يركبه، وهو بالمناسبة من الشواهد التى ساقها الأستاذ العدنانى، بارك الله فيه، وهذا نص المثل: "قد لا يُقَاد بى الجمل". أى أننى لم أكن قبلا أحتاج إلى من يقود بى الجمل كما هو الحال الآن بعد أن شِبْتُ ولم أعد أستطيع القيام بأمر نفسى. فالمَثَل إذن تعبير عما يجده الرجل العجوز من حسرة بعد أن ضعفت قواه وولّى عنه الشباب.

وهناك مَثَلٌ لفت نظرى كونُه جملة اسمية خالية من أى فعل بما يعنى خلوها من التحديد الزمنى، وكان المفروض بناءً على هذا أن تدل على المعنى المقصود مطلقا دون الارتباط بزمن معين، أو على الأقل مع قَصْره على الزمن الحاضر، لكنها مع هذا قد صيغت لتدل على الماضى، وهو ما لا يقبله النحويون. فهذا الشاهد إذن يسير بعكس ما يقولون، وهذا هو نصه: "لكنْ بشَعْفَيْنِ أنتِ جَدُودُ". و"الجَدُود" هى القليلة اللبن، والمَثَل فى امرأة كانت فقيرة محرومة حتى من اللبن، ثم أصابت غنًى وكثرت عندها الماشية ودَرَّت ألبانها، فأخذت تتفاخر بذلك، مما دفع مبغضيها لتذكيرها بأيام فقرها حين كانت تنزل الموضع المسمَّى: "شَعْفَيْن"، كى تكف عن هذا الفخر الكريه. كذلك هناك عدد من الأمثلة تتضمن "أفعل تفضيل" مباشرا

مشتقًّا من فعل مبنى للمجهـول، وهـو مـا يرفضـه كـثير مـن الصرفيين حسب القواعد التى وضعوها، وإن كـان لكـل قاعـدة شواذ كما نعـرف، ومنـها الأمثـال التاليـة: "أشْـغَلُ مـن ذات النِّحْيَيْن"، "أَقْوَد من مُهْر"، "أَمْنَع من عُقَاب الجـو". ونختـم هـذه الملاحظات اللغوية بالإشارة إلى ما ورد فى المثـل التـالى: "وِجْـدانُ الرِّقين يغطِّى على أَفَن الأَفِين"، أى أن غـنى الشـخص وامتلاكـه للرِّقين، وهـى الفضـة، يسـتر علـى كـل عيوبـه وحماقاتـه. فـ"الرِّقين" جمع "رِقَة"، وهو مـا يسـمى فى الصـرف بـالملحق بجمع المذكَّر السالم، لأن كلمة "الرِّقَـة" لا تتـوفر فيهـا الشـروط التى لا بد منها فى ذلك النوع مـن الجمـع، مَثَلُهـا فى هـذا مَثَـلُ "بُرَة: بُرُون- بُرين"، "كُرَة: كُـرُون- كُـرين"، "عِـزَة: عِـزُون- عِزين"، "عِضَة: عِضُون- عِضِين"، "مِئَـة: مِئُـون- مِـئِين"، "رِئَـة: رِئُون- رِئِين"، "سَنَة: سِنُون- سِنِين"...إلخ.

فإذا انتقلنا إلى الجانب الموسيقى لاحظنـا أن بعـض الأمثـال تعتمد السجع والجنـاس والطبـاق والموازنـة (كلـها أو بعضـها) بغية توفير الإيقاع الموسـيقىّ والـذهنىّ لضـمان المتعـة والحفـظ والسيرورة. بل إن بعض هذه الأمثال عبارة عن بيـت مـن الشـعر أو شطر من شطريه. وها هـى ذى الشـواهد علـى مـا نقـول: "اختلط الحابل بالنابل"، "إذا أردتَ المحـاجزة فقَبْـلَ المنـاجزة، "إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ"، "إذا لم تَغْلِبْ فاخْلُـبْ"، "إذا جـاء الحَـيْن، حـارَ

العَيْن"، "ارْقَ على ظَلْعِك، واقْدرْ بذَرْعك"، "أُرنيها نَمِرَة أُرِكَها مَطَرَة"، "أغْذَرَ من أَنْذَر"، "إن القُنُوع الغنى لا كثرة المال"، "إننى لن أضيرَه. إنما أطوى مَصيرَه"، "استغنت التُّفَّة عن الرُّفَّة"، "بعْتُ جارى، ولم أَبِعْ دارى"، "جاء بالطِّمِّ والرِّمِّ"، "جَدَّك لا كَدَّك"، "حال الجَريض دون القَريض"، "الخَلاء بَلاء"، "دُهْدُرَّيْن سَعْد القَيْن"، "رُبَّ قَوْل أشد من صَوْل"، "ضَرْب أخماسٍ لأسداس"، "الطريفُ خفيف، والتَّليدُ بليد"، "قُرْبُ الوِسَاد، وطُولُ السَّوَاد"، "كُلُّ الحِذَاء يحتذى الحافى الوَقِع"، "لولا اللئام لهَلَكَ الأَنَام"، "ليس من العَدْل سرعة العَذْل"، "مَنْ لى بالسانح بعد البارح؟"، "المنايا على البلايا"، "مِنَ العَنَاء رياضة الهَرِم"، "هذا أوان الحرب، فاشتدِّى زِيَمْ"، "اليومَ خَمْر، وغدًا أَمْر".

ومن الجوانب الاجتماعية التى أريد أن أتناولها فى هذه الدراسة الأسماءُ التى كان العرب القدماء يتسمَّوْن بها، وقد وُفِّقْتُ إلى العثور على الأسماء التالية للرجال والنساء: فأما الرجال، وليسمح لى الجنس اللطيف أن أبدأ بهم أوّلاً جريًا على العرف الاجتماعى وليس رغبة فى تنقصهن، فها هى ذى أسماؤهم التى تنبهتُ إليها أثناء تصفحى للأمثال الجاهلية (الجاهلية فعلاً أو ظنًّا) الموجودة فى كتاب العسكرى: "سَعْد"، "سُعَيْد"، "عُبَيْدَة"، "دَرِم"، "سَمْلَقَة"، "حُنَيْف"، "مالك"، "زيد

مناة"، "عمرو"، "سالم"، "فَلْحَس"، "مـادِر"، "سَـحْبان"، "قُـسّ"، "لقمـان"، "المُـرَقِّش"، "جُـوَيْن"، "عُمَـىّ"، "حـاتم"، "هَـرِم"، "كعب"، "هَبَنَّقَة"، "حُجَيْنَة"، "ربيعـة"، "عَـدِىّ"، "أبـو غُبْشَـان"، "جَنّاب"، "عِجْل"، "الأحنـف"، "سِنَان"، "حُنَـيْن"، "عُرْقـوب"، "دُعَيْمِص"، "أسـعد"، "فُطْـرَة"، "إيـاس"، "أخـزم"، "حُدَاجـة"، "قَرْثَـع"، "شِـظَاظ"، "سَـلاَّغ"، "عائشـة"، "عَـثْم"، "مَرْقَمَـة"، "جُفَيْنَة"، "حُمَيْق"، "عَوْف"، "كُلَيْـب"، "مَـرْوان"، "الشَّـنْفَرَى"، "السُّلَيْك"، "باقِـل"، "مُزَيْقِيـاء"، "عُتَيْبَـة"، "قـيس"، "عاصـم"، "الحارث"، "حاجب"، "زُرَارة"، "سَـدُوم"، "بِسْـطام"، "كُلثـوم"، "عامر"، "البَرّاض"، "ظـالم"، "الـمُذَلّق"، "الطُّفَيْـل"، "ناشِـرة"، "قَصِير"، "حَمَل"، "أَسْلَم"، "ضُـبَارة"، "جَـدْرَة"، "ابـن تَوْضَـع"، "الذئب"، "عصـام"، "خُرافـة"، "عَبّـود"، "جَنّـاب"، "خُـرَيْم"، "حَيّـان"، "حـوثرة"، "خَـوّات"، "الخُـرْشُب"، "شَـنّ"، "السَّمَوْأَل"، "جَذِيمة"، "النَّطِـف"، "لُكَيْـز"، "أَسْـلَم"، "قَوْضَـع"، "ضَبَارة"... إلخ.

هذه أسماء جنس الرجال، وكمـا يـرى القـارئ فمعظمهـا خَشِنٌ وَعْر، والآن إلى أسماء القوارير، ولكـن يؤسـفنى مـن كـل قلبى أن أقول إنها، بوجه عام، لا تقـل خشـونةً ووعـورةً، ولـيس هذا بالشىء المستغرب، فقـد كـان الجـاهليون بـدوا خشـنين، وكان معظم ما حـولهم وَعْـرا جافيـا، فمـن أيـن يمكنـهم أن

يستمدوا الأسماء الجميلة، والإنسان فى الغالب هو ابن بيئته وظروفه؟ ما علينا، فلنتابع أسماء الجنس اللطيف فى الجاهلية، ولنكن على ذُكْرٍ من أن صاحبات هذه الأسماء الجافية هن اللاتى شغلن أفئدة الشعراء وأسهرهم الليالى يتقلبون على الشوك والجمر، أو لا يجدون ما يعملونه سوى عد النجوم بسبب مجافاة النوم لهم، وأشعلن خيالهم وأطلقن قرائحهم وألسنتهم بالقصائد الخالدة التى أبقت على ذكرهن طوال هذه القرون وستُبْقى عليها إلى أبد الآبدين ما دامت هناك هذه اللغة العبقرية، لغة الضاد. وهذا بعض ما وجدتُه من أسماء لآنساتنا وسيداتنا (تيجان رؤوسنا سواء رَضِينا أو كَرِهْنا): "رَقَاشِ"، "حَذَام"، "سَجَاحِ"، "زرقاء"، "حَوْمَل"، "مارِخَة"، "أمّ خارجة"، "مَنْشَم"، "لَمِيس"، "ماريَة"، "حليمة"، "الزَّبَّاء"، "أمّ قرفة"، "ظُلْمَة"، "صُحْر"، "عاتكة"، "شَوْلَة"، "خبيثة"... وهلمّ جرًّا.

ومن الواضح أن الأغلبية الساحقة من هذه الأسماء، الرجالىّ منها والنسائىّ، قد اختفت من حياتنا تبعا لتغير الأذواق والمفاهيم والمعتقدات وظروف الحياة والبيئة والتطور التاريخى، وبخاصة أنها أسماء جاهلية لا تربطنا بها وشيجة كالتى تربطنا بالأسماء الإسلامية التى نعتز بها أيما اعتزاز ونحرص على تسمية أبنائنا وبناتنا بها.

هذا، وما أكثر الأمثال التى تدور حـول هـذا الشـخص أو ذاك لخَلَّة فيه أو لحادثة وقعت له اشتهر بها بـين العـرب حـتى ضُرِب به المثل، ومن ذلك الأمثـال التاليـة، وكـثير منـها يقـوم على المقارنة وأفعل التفضيل: "آبَلُ من حُنَيْـف الحـاتم"، أى أكثـر إبلاً، "أبخل من مادر"، "أبصر من زرقـاء"، "أبلـغ مـن سَـحْبان"، "أتْيَسُ من تُيُوس تُوَيْـت"، "أحـزم مـن سِـنَان"، "أحكـم مـن لقمان"، "أحمق من أبى غبشان، أو مـن شَـرَنْبَث"، "أسْـرَق مـن شظاظ"، "أسَعْدٌ أم سُعَيْد؟"، "أضْـبَط مـن عائشـة بـن عَـثْم"، "أطمع من فَلْحَس"، "أعظم فى نفسه مـن مُزَيْقيـاء"، "أفْتَـك مـن الحارث بن ظالم"، "أقْوَد من ظُلْمة"، "أنْكَحُ مـن حَـوْثَرَة" (وهـذا المثل يقال للشخص المِزْوَاج)، "أنْعَم مـن حَيَّـان"، "أينمـا أُوَجِّـه أَلْقَ سَعْدًا"، "بِيَدى لا بِيَد عمرو"، "تجشَّأ لقمان مـن غـير شِـبَع"، "دَقُّوا بينهم عطر مَنْشِم" (أى ثارت بينهم حـربُ شـؤمٍ مُهْلِكـة. ومَنْشِم امرأة كانت تبيـع العطـر، وهـو عطـر مشـؤوم)، "دم سَلاَّغ جُبَار"، أى هَـدْر، "دُهْـدُرَّيْن سـعد القَـيْن"، "رِدْ كعـبُ، إنك وَرَّاد" (يقال لمن كان على شفا الموت)، "شَـبَّ عمـرو عـن الطوق"، "شِنْشِنَةٌ أعرفها من أَخْزَم"، "صـحيفة المـتلمِّس" (وهـى كلمةٌ تقال عند التشاؤم بشـىء تُخْشَـى مـن ورائـه الهلكـة)، "صفقة لم يشهدها حاطب"، "عادت لعِتْرها لَمِـيس" (أى رجعـت لعادتها القديمـة)، "فى بيتـه يُـؤْتَى الحَكَـم" (أى أن لفـلان مـن

الكرامة ما يوجب على الناس أن يذهبوا إليه ولا يذهب هو)، "القول ما قالت حَذَامِ"، "لا حُرَّ بوَادى عَوْف"(يقال للسيد المستبد الذى لا ينهض له أحد)، "هما كنَدْمانَىْ جَذِيمة"، "ولو بقُرْطَىْ مارية" (يقال للشيء النفيس لا يمكن التفريط فيه ولو دُفع فيه أغلى ثمن)، "يا ويلتا! رآنى ربيعة"، "ما يوم حليمةَ بسِرّ" (و"اليوم" هنا بمعنى "المعركة"، و"أيام العرب" هى معاركهم وحروبهم المشهورة، والمقصود بـ"يوم حليمة" المعركة التى ضَمَّخَتْ فيها الأميرةُ حليمةُ بنتُ الحارث بن جَبَلَة رجالَ جيش أبيها بالعطر غداة انطلاقهم للحرب، وكان يوما مشهورا ضُرِبَ به المَثَل).

على أن أسماء الأعلام لا تقتصر على الأشخاص، بل تشمل الحيوان والمكان أيضا: ومن أسماء المواضع التى وردت فى أمثال الجاهليين "أَبَان" (جبل)، "شَجعَات"، "شَرْج"، "حَضَن" (اسم جبل)، "أَجَلَى"، "أَضَاخ"، "مكة"، "عَرَارِ" (اسم بقرة)، "كَحْل" (اسم بقرة أخرى)، "بَرَاقش" (اسم كلبة)، "المارد" (اسم حصن)، "الأبلق" (اسم حصن آخر)، "الرَّامَتَان" (وهو الاسم الذى أطلقه طه حسين على دارته فى الجيزة. وقد أخذه من المثل القائل: "تسألنى (أىْ ناقتى) برَامَتَيْنِ سَلْجَمًا"، أى تطلب شيئا ليس هذا موضعه)، "شُبَيْث"، "الأَحَصّ"، "ثَهْلان" (جبل)، "خُمَيْرَة" (اسم فرس)، "ابنا شَمَام" (اسم

هَضْبتين)، "صَدَاء" (اسم ماء)، "بَرِّيَّة خُسَاف"، "هَرْشَى"، "بَلْدَح"، "شَعْفان"، "لُبَد" (اسم نسر طويل العمر)، "تَرْج" (مكان تكثر فيه الأسود)، "خَفَّان" (مكان آخر تكثر فيه الأسود)، "تَبَالَة".

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف إلى جانب آخر من جوانب الحياة الطبيعية فى الجزيرة العربية فى ذلك العصر، ألا وهو أنواع الحيوان والطيور التى كانت موجودة هناك وتعرضت لها أمثال الجاهليين. وفى كثير من هذه الأمثال نرى نظرة العرب إلى الحيوان أو الطير المذكور وكيف كانوا يرَوْن طباعه وعاداته بغض النظر عن مدى صحة هذا الرأى أو لا. والملاحظ أنهم قد يصفون الحيوان أو الطير بصفات مختلفة أو متناقضة، كل صفة فى مَثَلٍ مختلف، كما أنهم قد يصفون عدة حيوانات أو طيور بصفة واحدة. ولسوف أذكر نص كل مثل ورد فيه ذِكْرٌ لحيوان أو طير: فمنها "استَنْوَقَ الجَمَل"، "أَتْبِع الفَرَسَ لجامها"، "إذا نام ظالعُ الكلاب"، "أَرْغُوا لها حُوَارها تَقِرّ" (الحُوَار: ولد الناقة)، "أَصِيدَ القنفذُ أم لُقَطَةٌ؟"، "أَنْكَحْنا الفَرَا، فسنرى" (الفَرَا: الحمار الوحشى)،"أخوك أم الذئب؟"، "أخذه الله أَخْذَ سَبْعة" (السَّبْعة: اللبؤة)، "أعط أخاك من عَقَنْقَل الضَّبّ"، "أَطْرِقْ كَرَا، إن النعام فى القرى" (الكَرَا: الواحد من طيور الكِرْوَان. والمراد أنك أهون من أن أقصدك بكلامى، بل

أقصد قوما يستحقون الكلام)، "البُغَاث بأرضنا يستنسر" (البُغَاث: طير صغير ضعيف)، "أدْنَى حماريك ازجرى"، "آمَنُ من حمام مكة"، " آلَفُ من غراب عُقْدَة"، "آكَلُ من سوس، أو من فأر، أو من حوت، أو من الفيل"، "بالت بينهم الثعالب" (ثار بينهم الشر)، "خَرِئَتْ بينهم الضبع" (نفس المعنى السابق)، "أَبْعَدُ من بَيْض الأَنُوق" (الأَنُوق: ذَكَر الرَّخَمَة)، "أَبْصَر من عُقَاب، أو من نَسْر، أو من فرس"، "أَبْصَرُ بالليل من الوَطْواط"، "أَبَرّ من الهِرّة، أو من الذئبة"، "أبكر من الغراب"، "أبخل من كلب"، "أبلد من السُّلَحْفاة، أو من الثور"، "أبيض من دجاجة"، "أبخر من صقر، أو من فهد"، "أَبْوَل من كلب"، "تركته على مِثْل مِشْفَر الأسد" (أى عُرْضَةً للهلاك)، "تقلَّدَها طَوْقَ الحمامة" (لزمه عارها إلى الأبد)، "أَتْبَع من تَوْلَب" (ولد الحمار، لأنه يتبع أمه لا يفارقها أبدا)، "أتعب من راكب فَصِيل" (ولد الناقة، لأنه لم تتم رياضته بعد)، "أتخم من فصيل" (لأنه يشرب من اللبن فوق طاقته)، "أَتْيَسُ من تيوس تُوَيْت"، "الثور يُضْرَب لَمّا عافت البقر" (يقال فى من يُؤْخَذ بذنب غيره)، "أثبت من قُرَاد"، "أثقف من سِنَّوْر" (وهو القط، لأنه يعرف كيف يصطاد الفأر فلا يخطئ أبدا)، "الجحشَ لَمّا بذَّك الأعيار" (اِرْضَ بما هو متاح لك واستَكْفِ به عما لا تستطيعه. والعَيْر: الحمار الكبير)، "أجبن من صِفْرِد، أو من كَرَوان

(طائران)، أو من ثُرْمُلة (الثعلب)، أو مــن الهِجْــرِس (القــرد)، أو من الرُّبَّاح (ولد القرد)"، "أجـرأ مــن ذبــاب، أو مــن خاصــي الأسد"، "أجْوَل من قُطْرُب" (دابة لا تكف عــن التجــوال لــيلا أو نهارا)، "أجْوَع من لَعْوَة (وهى الكلبــة)، أو مــن الــذئب، أو مــن قُرَاد"، "أجشع من كلب"، "أجهل من فراشــة، أو مــن حمــار، أو من عقرب، أو من نملة، أو مــن راعــى ضــأن"، "حمــارٌ اسْــتَأْتَنَ" (أى تحول إلى أتان، وهى أنثــى الحمــار)، "حــتى يجتمــع معْــزَى الفِزْر" (الفِزْر: رجل تفرقت معْــزَاه فى كــل مكــان، وهــو مثــل يُضْرَب للاستحالة)، "حِيلَ بين العَيْر والنَّــزَوَان" (مثــل لمــن يحــال بينه وبــين مــراده. والنَّــزَوَان: الوثــوب)، "حُمَيِّــر الحاجــات" (للشخص الــذليل الممتــهَن فى الأشــغال الشــاقة)، "أحمــق مــن الضبع، أو من الرَّخِل (أنثى ولــد الضــأن)، أو مــن نعجــة علــى حوض، أو من أم الهِنْبِر (والهنبر: الجحش، وأمــه هــى الأتــان)، أو من الجهيزة (أى الذئبة)، أو مــن حمامــة، أو مــن نعامــة، أو مــن رَخَمة، أو من عَقْعَق"، "أكيس من الرَّخَمــة"، "أحــذر مــن قِرِلَّــى (طائر يغوص فى الماء فيستخرج السمك)، أو مــن ذئــب، أو مــن غراب، أو من عَقْعَق، أو من ظليم (ذكــر النعــام)"، "أحــزم مــن القِرِلَّى، أو من الحرباء"، "أحْيَــر مــن الضــبّ، أو مــن الــوَرَل" (وهما حيوانان إذا خرجا مــن جحرهمــا لم يهتــديا إليــه ثانيــة)، "أحيا من الضبّ" (أى أطول حياةً منــه)، "أحْــوَل مــن الــذئب"

(لبراعته فى الحيلة)، "أحول من أبى راقش" (لأن ألوانه تتحول ولا تثبت على لون واحد)، "أحرس من كلب"، "أحرص من ذئب، أو من كلب، أو من خنزير"، "أحطم من الجراد"، "أحقد من جمل"، "أحنّ من شارف" (وهى الناقة المسنّة)، "أحْكَى من قرد"، "أَحْمَى من است النمر، أو من أنف الأسد"، "خَلِّه دَرَجَ الضبّ" (دعه على عماه)، "الخيل أعرف بفرسانها"، "الخيل مَيَامين"، "الخروف يتقلب على الصوف" (مَثَلٌ يُضْرَب للتقلب فى النعمة)، "أخفّ من فراشة"، "أخفّ رأسًا من الذئب، أو من الطائر" (إذ أقل شيء يوقظهما)، "أخفّ حِلْمًا من بعير، أو من العصفور" (أى أنهما قليلا العقل)، "أخرق من الحمامة" (لأنها لا تحسن بناء عشها)، "أخلف من بول الجمل"، "أخلف من ثِيل الحَمَل" (الثِّيل: كيس عضو الحَمَل، لأنه يتجه إلى غير جهة البول)، "أخلف من الصقر" (أنتن رائحةً من فم الصقر)، "أخبث من ذئب الغَضَى"، "أَخْوَن، أو أَخْتَل، أو أَخَبّ من الذئب"، " أخبّ من ضبّ، أو من ثُعَالَة" (وثعالة: الثعلب)، "أَخْيَل من ديك، أو من غراب"، "أخطأ من ذباب، أو من فراشة"، "أخطف من عُقَاب، أو من قِرِلّى"، "أخشن من شَيْهَم" (وهو ذكر القنفذ)، "أَدَبّ من قُرَاد، أو من عقرب، أو من ضَيْوَن (أى السِّنَّوْر)، أو من قَرَنْبَى (دُوَيْبَّة تشبه الخنفساء)"، "الذئب يُدْعَى: أبا جَعْدَة" (لا تغتر بما يظهره فلان من الكرم،

فإنما هو كالذئب الغدار"، "الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل" (القليل إلى القليل يصبح مع الأيام كثيرا. والذَّوْد ثلاث نُوق أو أكثر من ذلك قليلا)، "الذئب يَأْدُو للغزال" (يخدعه)، "ذَلَّ من بالت عليه الثعالبُ"، "أذلّ من عَيْر، أو من حمار مقيَّد، أو من بعير السانية" (أى الساقية)، "أرْوَى من نعامة (لأنها قليلة العطش)، أو من الضبّ (لأنه، كما يقولون، لا يشرب أبدا)، أو من حية، أو من الحوت"، "أرسح من ضِفدع" (والرَّسَح: خفة العَجُز)، "أَزْنَى من هِجْرِس، أو من هِرّ"، "أزهى من غراب، أو من وَعَل (وهو التيس الجبلى)"، "سقط العَشَاء به على سِرْحان" (السِّرْحان: الذئب. أى أنه بدلا من أن ينال ما كان يبغيه قد أصابه مكروه)، "سواسية كأسنان الحمار" (فى الشر)، "سَمِّنْ كلبك يأكلك"، "أَسْمَع من سِمْع (ابن الذئب من الضبع)، أو من قُرَاد (لأنه، فيما يقولون، يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم)، أو من فرس (إذ كانوا يعتقدون أنه يسمع صوت الشعرة التى تسقط عن بدنه)"، "أَسْلَح من حُبَارَى، أو من دجاجة"، "أسبح من نُون" (أى الحوت)، "أسهر من جُدْجُد" (صَرّار الحقل)، "أشمّ من النعامة، أو من ذئب، أو من هِقْل (ذكر النعام)"، "أشره من الأسد"، "أشرد من خَفَيْدَد" (وهو ذكر النعام)، "أشكر من كلب"، "أشدّ من الفيل"، "أشرب من الهِيم" (الإبل العطاش)، "أَصْوَل من جمل" (يُضْرَب به المثل فى

شدة العضّ)، "أصبر من الضبّ، أو من حمار"، "ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَه" (يُضْرَب مثلا لمن لا يهتدى فى كلامه أو فى فعله. والدِّرْص: ولد الفأر، لأنه إذا خرج من جحره لم يستطع الاهتداء إليه كرة أخرى)، "الضبع تأكل العظام ولا تعرف قَدْر استها"، "أضلّ من ضبّ، أو من وَرَل"، "أطول ذَماءً من الضبّ، أو من الحية، أو من الأفعى، أو من الخنفساء" (لأنها لا تموت سريعا، بل تظل تتحرك فترة طويلة بعد قتلها)، "أطْيَر من عُقَاب، أو من حُبَارى" (كانوا يظنون أنها تطير عبر بلاد متناوحة فى زمنٍ جدّ قصير)، "أَطْيَش من فراشة، أو من ذباب"، "أطفس من العِفْر" (الخنزير)، "ما بقى منه إلا ظِمْءُ حمار" (لم يبق فيه إلا القليل)، "أظلم من حية، أو من وَرَل" (لأنهما يدخلان جحر غيرهما ويستوليان عليه)،"أعزّ من بَيْض الأَنُوق، أو من الغراب الأعصم"، "أعطش من النقّاقة (أى الضفدع، لأنها إذا فارقت الماء ماتت)، أو من النمل (لأنه يكون فى القفر فلا يرى الماء أبدا)، أو من حوت"، "أَعْيَث من جَعَارِ" (وهى الضبع، فهى إذا وقعت فى الغنم أفسدت أيما إفساد)، "أعجل من نعجة إلى حوض"، "أعمر من ضبّ (إذ كانوا يقولون إنه يعيش أطول كثيرا من مائة عام)، أو من قُرَاد (فقد كانوا يعتقدون أنه يعيش إلى سبعمائة سنة)، أو من نسر (لأنهم كانوا يظنون أنه يعيش خمسمائة عام)"، "أغرّ من ظبيٍ مُقْمِر"، "أَغْوَى من غوغاء

الجراد"، "أغزل من عنكبوت"، "أغلم من ضَيْوَن" (ليس أشد شهوة من السِّنَّوْر فيما يقولون)، "أفسد من الجراد، أو من السوس، أو من الأَرَضَة، أو من الضبع"، "أَفْسَى من ظَرِبان، أو من خنفساء، أو من نمس"، "قف الحمار على الردهة، ولا تقل له: سَأْ" (الردهة: نقرة الماء التى يشرب منها. ومعنى المثل: أره الطريق، ثم اتركه يتصرف ولا تخف عليه)، "أَقْوَد من مُهْر"، "كُلّ الصيد فى جوف الفَرَا"، "كل شاة تُنَاط برِجْلها"، "الكلب أَحَبّ أهله إليه الظاعن"، "أكيس من قِشَّة" (جَرْو القرد، وهو مثل يضرب للولد الصغير العاقل)، "أكسب من نمل، أو من فأر"، "لقد كنتُ وما أُخَشَّى بالذئب" (للذل بعد العز)، "لو تُرِك القَطَا لنام" (هذا مثل قولنا: نوم الظالم عبادة. والقَطَا: الحمام البرى)، "لبستُ له جلد النمر" (أبديتُ له العداوة الشديدة)، "ألين من خِزْنِق" (ولد الأرنب)، "أمسخ من لحم الحُوَار"، "أمنع من عُقَاب الجو"، "نابٌ، وقد يقطع الدَّوِّيَّةَ النابُ" (الناب: الناقة المسنّة، والدَّوِّيَّة: الفلاة السحيقة. والمعنى أنه، على كبر سنه وضعفه، قد يصلح للسفر الطويل المرهق) ، "أنعس من كلب"، "أنبش من جَيْأَل" (الضبع مشهورة بنبش القبور)، "أنوم من فهد، أو من غزال، أو من الظِّرِبان"، "أنزى من ظبى، أو من جراد" (لأنهما كثيرا القفز والحركة لا يستقران)، "وَجَدَ تمرةَ الغرابِ" (حصل على أحسن شىء، لأن

الغراب، فيما يقولون، ينتقى أجود تمرة ويأكلها)، "أولغ من كلب"، "هما كركبتى البعير" (أى متساويان فى كل شىء)، "هما كفرسَىْ رِهَان" (دائمًا التنافس فى الخير)، "أهون من خُنْدُج (وهى القملة)، أو من ضرطة عنز"، "لا تقتن مِنْ كلب سوءٍ جَرْوًا"، "لا ناقتى فيها ولا جملى" (أمر لا يهمنى)، "لا ينتطح فيها عنزان" (قضية محسومة لا جدال فيها).

ولا شك أن هذه الأمثال تدل على دقة ملاحظة العرب الجاهليين فى عالم الحيوان والطير مما لا نعرف نحن الآن عشر معشاره رغم التقدم العلمى والثقافى الذى تحقق للبشرية منذ ذلك الحين، وإن كان هناك بعض الأخطاء فى تلك الملاحظات، وهو أمر طبيعى، إذ إن العرب ليسوا بِدْعًا بين البشر، فهم يجمعون فى معلوماتهم بين الخطإ والصواب. ولكن يكفيهم شرفا وفضلا أنهم كانوا بهذه الدقة وذلك التبصر فيما لاحظوه على ما حولهم من حيوان وطير كثير العدد كما رأينا فى الأمثال التى سلفت، وفيما عرفوه من الفروق بين الذكر عن الأنثى فى الطباع والخصائص كالجمل والناقة طبقا لما جاء فى المثل القائل: "استَنْوَق الجمل"، أو "حمارٌ استَأْتَن" (أى ظهرت على كل منهما علامات الأنوثة، فاقترب الأول أن يكون ناقة، والثانى أن يكون أتانا)، وتخصيص اسم لكل عمر من أعمار الحيوان: فالحُوار هو ولد الناقة، والفصيل هو الشاب من الإبل، على

عكس الناب، التى هى الناقة المسنة، ثم الشارف، التى تأتى بعد ذلك. وهناك الدِّرْص والحِسْل والسِّمْع والفُرْعُل والهِجْرِس والجحش والظبى والمُهْر والخِرْنِق والجَرْو والحَلَم، وهى صغار الفأر والضبّ والذئب والضبع والقرد والحمار والغزال والحصان والأرنب والكلب والقُرَاد على التوالى. كذلك هناك الجمل والناقة، والأُنُوق والرَّخَمَة، والأسد واللبؤة، والحصان والفرس، والحمار والأتان، والهِقْل والنعامة، والذئب والجَهِيزة، وهما الذكر والأنثى من كل حيوان من هؤلاء... وهلم جرا.

وقد رأينا كيف استطاعوا التمييز بين طباع كل حيوان وغيره حتى فى مسائل التبول، ورائحة الفم، والعطش أو الرِّىّ، والاهتداء إلى المسكن أو الضلال عنه، والعزة أو الذلة مثلا، وإن اشتركت بعض الحيوانات فى هذه السمة أو تلك من تصرفاتها... مما مر بيانه من الأمثال التى أوردناها آنفا. ويمكن أن يلحق بذلك ما تحدثت عنه الأمثال من شجر ونبات: "ترى الفتيان كالنخل، ولا يُنْبِيك ما الدَّخْل" (أى أن المهم هو مخبر الإنسان لا مظهره)، "أشبهَ شَرْجٌ شَرْجًا لو أن أُسَيْمِرًا" (والأُسَيْمِر: تصغير "أَسْمُر"، وهى جمع "سَمُرَة"، نوع من الشجر ينبت فى بلاد العرب)، "إنك لا تجنى من الشوك العنب"، "عَصَبْتُه عَصْبَ السَّلَمة" (والسَّلَم: نوع آخر من شجر العرب، وهو شجر شائك يستعمل ورقه وقشره فى

الدباغ، ويسمَّى ورقه: "القَرَظ")، "أرْخِ يديك واسْتَرْخ، إن الزناد من مَرْخ"، "فى كل شجرة نار، واسْتَمْجَد المَرْخُ والعَفَار" (والمَرْخ والعَفَار: شجرتان تُقْدح أغصانهما لاستخراج النار منها)، "أشعث من قَتَادة" (وهو شجر كثير الشوك)، "مَرْعًى ولا كالسَّعْدان" (شوك تأكله الإبل فيغزر لبنها)، "أخبث من ذئب الغَضَى" (والغَضَى: شجر جيد للوقود).

ومن معارف الجاهليين الطبيعية التى تعكسها أمثالهم ما له علاقة بالبيئة الجغرافية والفلكية: فمن ذلك قولهم: "أبعد من العَيُّوق"، "أتْلَى من الشِّعْرَى" (لأنها تتلو الجوزاء)، "أُريها السُّهَا، وتُرِينى القمر"، "أرقّ من رقراق السراب"، "أطول صحبةً من الفرقدين" (لأنهما نجمان لا يفترقان)، و"بنات نعش" (كواكب معروفة)، "بَرْقٌ خُلَّب" (وهو البرق الكاذب الذى لا يعقبه مطر)، "أرِنيها نَمِرة، أُرِكَها مَطِرة" (ومعناه أن السحابة إذا كان فيها سواد وبياض فمعنى هذا أنها ستمطر. وهذا يدل على خبرة بأنواع السحاب ومقدرة على التفرقة بين الممطر منها وغير الممطر. وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن بلادهم كانت تعتمد على المطر فى المقام الأول، إذ ليس فيها أنهار كما هو الحال فى مصر، ومن ثم كانت معرفتهم الدقيقة بكل ما يتعلق بالمطر والسحاب، وبخاصة أن السماء كانت مفتوحة أمام أعينهم لا يسترها عنهم ساتر، فقد كانوا يعيشون فى خيام

منصوبة فى العراء لا فى بيوت تعوق أعينهم عن النظر الحر المرتاح إلى الفضاء والأفق والسماء).

لقد كان الماء قضية حياة أو موت، ومن هنا مثلا نراهم يقولون: "أن تَرِد الماءَ بماءٍ أكيس" لمعرفتهم أنهم متى انقطعوا عن الماء فى باديتهم المتناوحة التى كثيرا ما يعزّ فيها عنصر الحياة الأول فقد يهلكون. وبالمثل نقرأ فى المَثَل التالى أن "آخرها (أى آخر الإبل الواردة على الماء للسقى) أقلّها شِرْبًا"، إذ تَرِدُ وقد قارب الماء على النفاد، أو على الأقل تَرِدُ ولم يَعُد الماء صافيا كما كان للإبل التى شربت مبكرة، فضلا عن أن تأخير السقى هو دليل على العجز والمذلة. وإذا كانت هناك عين ماء طيّبة فسرعان ما تشتهر بينهم: "ماءٌ ولا كصَدّاء"، "إن أَضَاخًا منهلٌ مورود"، "أعذب من ماء البارق، أو من ماء الحشرج". وثمة مثل آخر يشير إلى عملية الاستقاء من البئر بالحبال والدلاء: "بئس مَقَام الشيخ: أَمْرِسْ! أَمْرِسْ!"، أى أنه لا يليق بك أن تزاول عملا لا يناسب مكانتك، مثل وقوفك على شفا بئر وسُقْيَاك بالحبل، الذى قد ينقطع فى يدك فيصيح الناس بك أن "أَمْرِسْ! أَمْرِسْ!"، أى أعد الحبل إلى مكانه من البَكَرة. ومن أمثال الاستقاء أيضا قولهم: "أَلْقِ دلوك فى الدِّلاء". كذلك استطاع العرب القدماء أن يفرقوا بين الحيوانات والطيور المختلفة حسب مدى حاجتها إلى الماء، وسرعة أو بطء هذه

الحاجة مثلما مضى بيانه فى الأمثال التى قرأناهـــا معـــا، وهـــو مـــا يبين لنا كيف كان الماء يحتـــل مـــن أذهـــانهم واهتمـــامهم مكانـــا مكينا.

ومن الجوانب التى تتعلق أيضا بالبيئـــة العربيـــة القديمـــة مـــا كان الجاهليون يمارسونه من أعمال أو حِرَف تقوم علـــى مـــا هـــو متوفر فى هذه البيئة من ثروات أو إمكانات طبيعيـــة: خـــذ عنـــدك مثلا الدبغ، الذى جاء فى أمثالهم عنه قـــولهم: "إنمـــا يُعاتَـــب الأديم ذو البَشَرَة"، بمعنى أن العتاب لا يصلح إلا مع مـــن لا يـــزال فيـــه خير، كالجلد الذى يراد دبغه، فإن كانت له بَشَـــرَة، وهـــى ظـــاهر الجلد (على عكس الأَدَمَة، التى هى باطنـــه)، صـــلح دبغـــه، وإلا لم يحتمل الـــدِّبَاغ وتمـــزق. كـــذلك لا بـــد، فى عميـــة الـــدباغ، أن يُكْشَط اللحم تماما من أديم الجلد ولا يترك عليـــه أى بقايـــا منـــه، وإلا فسد الجلد ســـريعا: "أحمـــق مـــن الـــدابغ علـــى التحلـــىء". والتحلىء: ترك بقايا اللحم على الجلد، وفى هـــذه الحالـــة لا يصـــل إليه الدباغ. وهناك مثل آخر يرد فيه ذكر "القـــارظ" علـــى النحـــو التالى: "إذا ما القارظ العَنَزِىُّ آبَا"، وهـــو جـــامع القَـــرَظ، أى ورق شجر السَّلَم المستعمل فى عمليـــة الـــدباغ. وهـــذا المثـــل يُضْـــرَب للوعد الـــذى لا يمكـــن أن يتحقـــق لأنـــه معلـــق علـــى شـــرط مستحيل، فالقارظ العَنَزِىّ لم يعد من جولته فى جمـــع القَـــرَظ حـــتى الآن، بل لن يعود أبد الدهر لأنه مات فى الطريـــق. وهنـــاك أيضـــا

المثل التالى: "أَرْتِعَنْ أَجَلَى أَنَّى شئت"، أى أن الموضع المسَمَّى: "أَجَلَى" هو من المواضع الصالحة للرعى فى أى وقت وفى أى موضع منه. ومنها كذلك: "مَرْعًى ولا كالسَّعْدان". وكان للرعى أصوله التى لا بد للراعى من مراعاتها، وإلا فسد عمله: "أساء رَعْيًا فسقى مُقْصِبًا"، أى أنه لم يُشْبِع إبله من الكلإ كما ينبغى واضطُرّ أن يملأ بطونها ماءً على قلة ما فيها من طعام فأضَرَّ بها ذلك ضررا شديدا. والإقصاب: أن تمتنع إبل الراعى عن الشرب. كذلك كانوا يحلبون ماشيتهم بأنفسهم: "حلبْتُها بالساعد الأشدّ"، "اُحْلُبْ حَلَبًا لك شَطْره" (و"الحَلَب" هو ما يُحْلَب من اللبن)، "حَلَبَ الدهرَ أَشْطُره".

ومن المهن التى كان الجاهليون يمارسونها كذلك تأبير النخل: "جبَابٌ، فلا تُعَنِّ آبِرًا"، والآبر هو ملقّح النخل، والمقصود أن النخلة لا طَلْع فيها، بل الموجود جبَابٌ فحسب، أى جُمّار، ومن ثم فلا فائدة فى التأبير أصلا. ومن هذه المهن أيضا الحُدَاء: "كالحادى، وليس له بعير"، والحادى هو سائق الإبل الذى يحدوها، أى يغنّى لها حتى تنشط للسير ولا يعتريها الضعف والكلال. أما المَثَل الذى وجدتُه عن "الحَذّاء" فيجرى عكس هذا، إذ يقول: "من يكن الحذّاء أباه يجد نعلا". والحدادة مهنة أخرى من المهن التى عرفها العرب: "إذا سمعتَ بسُرَى القَيْن فإنه مُصْبِح"، أى لا تصدق كل ما تسمع، فكثيرا

ما يقول الناس كلاما ويقصدون عكسه، كفعل القَيْن (وهو الحداد) عندما يزعم أنه مسافر من ليلته كي يدفع الناس إلى الإقبال عليه قبل أن يغادرهم، على حين أنه ينوى البقاء حيث هو. وهناك مثل مشهور يذكر "الحابل" و"النابل"، أى الصائد بالشبكة والصائد بالنَّبْل: "اختلط الحابل بالنابل". ومثل آخر لا يقل شهرة يتحدث عن "القوس" وصانعه: "أَعْطِ القوسَ باريَها"، وهو كما نقول فى مثلنا العامى: "أعط العيش لخبازه". ومثل ثالث يذكر "السهام": "قبل الرمى يُرَاش السهم". ورابع يتحدث عن "الكنانة": "قبل الرمى تُمْلأُ الكنائن".

كذلك كانوا يعرفون الطب، وكان طبا بدائيا بطبيعة الحال: "يا طبيب، طِبَّ لنفسك". وكذلك البيطرة: "أشهر من راية البَيْطار"، "أهون من ذَنَب الحمار على البَيْطار". وكان من طبّهم الكَيّ: "آخر الدواء الكَيّ"، "قد يَضْرِط العَيْر، والمِكْواة فى النار". كما كانوا يعالجون جَرَب الماشية بما يسمونه "العَنِيّة": "عَنِيّته تَشْفِى الجَرَب"، وهى قَطِران وأخلاط تُجْمَع ويُهْنَأ بها البعير الأجرب. ولعملية الهِنَاء أصولٌ منها ألا يقتصر الهانئ على دَهْن موضع الجَرَب فقط، بل يعمّ سائر بدن البعير: "ليس الهِناء بالدَّسّ" (والدَّسّ: الاقتصار فى الهِناء على المكان المصاب بالجرب). وقد ورد فى مثل من أمثالهم إشارة لمرض كان يصيب البعير، وهو "الغُدَّة": "أغُدَّةً كغُدَّة البعير، وموتٌ فى بيت

سَلُولِيّة؟". أما المثل التالى فيشير إلى مرض آخر هو "القُلاَب"، وهو داء يصيب الإبل فى رؤوسها فيقلبها إلى فوق: "ما به قَلَبة"، أى أنه سليم لا يشكو من أى داء. وقريب منه داء الصَّعَر، وهو داء يأخذ فى رقاب الإبل فيُميلها: "لأُقيمَنَّ صَعَرَك". وكان الجاهليون يحبون الوشم، الذى كثيرا ما شبّه الشعراء به ما يَرَوْنه فى أطلال حبائبهم من الخطوط وآثار الريح: "أثْبَتُ من الوشم". ومن أعمالهم التى كان أهل كل بيت يمارسونه بأنفسهم خياطة الفتوق: "اتسع الخَرْق على الراقع"، وجمع الحطب للنار: "أخْبَطُ من حاطب ليل"، والطحن بالرَّحا: "أسمع جعجعة ولا أرى طِحْنًا"، و"الطِّحْن" هو الدقيق، والمعنى أن هناك ضجة، لكن ليس هناك دقيق، أى أنها ضجة على الفاضى.

ويتصل بهذه الأمثال تلك التى ورد فيها ذكر لما كانوا يتخذونه من أدوات لتأدية هذه الأعمال، ومنها الإبرة: "أبْغَى من إبرة"، والفأس: "أبْغَى من فأس"، والقِدْح: "أبغض من القِدْح الأول"، والعصا:"أبقى من تفاريق العصا"، والخيط: "أدق من خيط"، والحبل: "إن الشقىَّ بكل حبل يُخْنَقُ"، والحِذَاء: "أدنى من الحذاء"، ورباط النعل: "أدنى من الشِّسْع"، والمِجْمَر (المِبْخَرة): "اسْتٌ لم تُعَوَّد المِجْمَر"، والخُذْروف (وهو لعبة للأطفال تشبه ما نسميه فى مصر بـ"النّحْلة"):

"أسرع من الخذروف"، والأُثْفيّة (الحجر الذى كانوا ينصبون منه ثلاثة تحت القدر): "أصْبَرُ من الأثافى على النار"، والجَلَم (المقص): "أقطع من جَلَم"، والعصا: "أكثر من تفاريق العصا"، والشفرة: "إنْ وجدتَ لشَفْرَةٍ مَحَزًّا"، "والمرآة: "أنقى من مرآة الغريبة"، والجُلْجُل: "أَنَمّ من جلجل"، والسيف: "تركتُه على مثل حرف السيف"، والصحيفة: "صحيفة المتلمِّس"، والكنانة (جَعْبة السهام): "قبل الرِّماء تُمْلأُ الكنائن"، والدلو: "قد علقَتْ دَلْوَك دلوٌ أخرى"، والمجَنّ: "قلبتُ له ظهر المجن"، والمكواة: "قد يَضْرِط العَيْر والمكواة فى النار".

أما أطعمتهم فهذه بعض الأمثال التى تتحدث عنها مما وضعتُ يدى عليه أثناء تجوالى فى كتاب العسكرى: "إنْ وجدتُ إليه فا كَرِشٍ"، أى إن وجدتُ إليه سبيلاً فسوف أطبخ الشاة فى كرشها. ومن أسماء أطعمتهم "اللِّبَأ"، وهو أول الألبان عند ولادة الحيوان: "أَبَى أَبِى اللِّبَأ". ومن أطعمتهم أيضا "الرَّبِيكة"، وهى أَقِطٌ بسمن وتمر يُعْمَل رِخْوًا: "غَرْثانُ، فاربُكوا له"، أى أنه جائع فلا تكلموه فى أى شىء لأن ذهنه مشغول بالجوع والطعام، بل أعدّوا له الرَّبِيكَة أوّلاً، فإذا أكل رجع إليه عقله. وهذا مثل قولنا: "ساعة البطون تتوه العقول". وأصل المثل، حسبما يروون، أن رجلا عاد من سفر فأخبروه أن امرأته قد ولدت له غلاما، فلم يهتم بالخبر لأنه كان يعانى من بُرَحاء

الجوع وقال: وما أصنع بـــه؟ آكلـــه أم أشـــربه؟ فطلبـــت منـــهم زوجته أن يطعموه أولا. وقد كان، إذ بعد أن أطعمـــوه ارتـــد إليـــه عقله وشرع يسأل عن الوليد وأمه، وهـــو ســـعيد مجبـــور. ولـــدينا كذلك طعام "السَّوِيق": "جَدْحَ جُوَيْنٍ مـــن سَـــوِيق غـــيره"، وهـــو طعام سائل يُصْنَع من القمـــح والشـــعير علـــى عجـــل للمســـافر والجائع الذى لا يصبر. والمراد أن جُوَيْنًا هذا، لأنـــه لا ينفـــق مـــن ماله ولا يأكل من سَوِيقه بل من سَـــوِيق غـــيره، فإنـــه يســـرف ولا يبالى بالاقتصاد. والجَدْح: الشُّـــرْب. كـــذلك كـــانوا يصـــطادون الضَّبّ ويأكلونه: "ما أبالى أنَاءَ ضَـــبِّك أم نَضِـــجَ"، "أعـــط أخـــاك من عَقَنْقَل الضبّ"، ويســـمون صـــيده: "حَرْشًـــا": "هـــو أعلـــم بضبٍّ حَرَشَه"، وما فتئ الضـــبّ يُؤْكَـــل فى الخلـــيج حـــتى يومنـــا هذا. وبالمثل كان العرب فى الجاهليـــة يصـــطادون حمـــار الـــوحش ويأكلونه، وقد ورد ذكـــره فى قـــولهم: "كُـــلّ الصـــيد فى جـــوف الفَرَا"، "أَخْلَى من جوف حمار"، لأنهم كانوا يلقـــون بمـــا فى جوفـــه ولا ينتفعون به. كما كـــانوا يـــأكلون "الكَمْـــأَة"، الـــتى لا يـــزال الناس هناك يتلذذون بطعمهـــا حـــتى الآن. وهـــى، كمـــا تقـــول المعاجم، نبات يخرج من الأرض كما يخرج الفُطْـــر. وهنـــاك نـــوع منها يسمَّى: "الفَقْع": "أذلّ من فَقْعٍ بقَرْقَـــرَة"، لأنـــه يظهـــر علـــى سطح الأرض فتطؤه الأقدام، وإن كان هنـــاك نـــوع آخـــر يحتـــاج إلى أن ينبش الإنسان الأرض عنه.

ومن أطعمتهم التى وردت بها الأمثال "العسل": "أحلى من العسل، أو من الشهد". كما كانوا يصنعون"الزُّبّاد" من اللبن ويأكلونه، وجاء به المثل التالى: "اختلط الخاثر بالزُّبّاد". ومن طعامهم فى الجاهلية أيضا "الدم"، وذلك بعد أن يَفْصدوه من عِرْق الناقة أو الفرس ثم يملأوا المُصْران به، ثم يشووه ويأكلوه. وهذا الطعام يسمَّى: "الفَصيد": "لم يُحْرَم مَنْ فُصِد له"، أى أن الفَصيد طعامٌ كافٍ لمن يُقَدَّم إليه. وقد جاء الإسلام بتحريم أكل الدم، ومعروف أن الدم مرتع لجميع أنواع الفيروسات والجراثيم والمكروبات، التى تضر الجسم والتى تسرى إليه عند أكل الإنسان إياه. وكانوا يحفظون الدُّهْن المذاب فى سقَاء، وهذا الدهن يسمَّى: "الإهَالة": "كحاقن الإهالة"، أى أنا خبير بهذا الأمر كخبرة حاقن الإهالة فى السِّقَاء، إذ كان الأمر يتطلب تأكد الحاقن تماما، عن طريق إيلاج إصبعه فى الإهالة، أنها قد بردت بحيث لا تفسد السقاءَ بسخونتها. كما وردت أمثالهم بـ"الزيت": "أَوْفَى من كَيْل الزيت". كذلك كان "الشعير" من طعامهم، وإن لم يكن من أشهاه إلى نفوسهم: "كالشعير: يُؤْكَل ويُذَمّ". ومن الفاكهة التى ذكرتها الأمثال "التمر": "كمُسْتَبْضِع التمر إلى هَجَر" (وهو كقولنا: "يبيع الماء فى حارة السقائين")، "وَجَد تمرةَ الغراب". وقد جاء ذكر "الحَشَف"، وهو أردأ أصنافه، فى مثل آخر:

"أحَشَفًا وسُوءَ كِيلَةٍ؟"، و"العنب": "إنـك لا تجـنى مـن الشـوك العنب"، "أعْجَزُ من مُستَطْعِم العنـب مـن الـدِّفْلَى"، إذ الـدِّفْلَى نبات ورقه أشعر شائك، وطعمه مُـرّ. وكـان كـثير مـن أهـل الجاهلية يَغْرَمون بـــ"الخمر"، ويُكْثِـر شـعراؤهم مـن التمـدح بشربها ويَعُدّونه مـن علامـات الكـرم والسـيادة، حـتى جـاء الإسلام وحرّمها تحريما تاما. ومن أمثـالهم فى أم الخبائـث قـولهم: "ألذّ من مذاق الخمر".

وللأمثال، فضلا عن الجوانب الـتى مـرت، جانـب آخـر يمكـن أن يُنْظَـر إليهـا منـه هـو الجانـب النفسـى والخلقـى والاجتماعى: فالمَثَل التالى على سبيل المثـال يشـير إلى وجـه مـن وجوه الطبيعة الإنسانية، ألا وهو أهمية الإيحـاء الـذاتى فى عـلاج المشاكل، فكثير من الأمور يمكـن أن تنحـل أو يسـهل حلـها إذا وضع الشـخص فى اعتبـاره أن هنـاك أمـلا كـبيرا فى التغلـب عليها: "اكذب نفسك إذا حَدَّثْتَها"، وإلا فلـيس لـه مَعْـدًى عـن الصبر، وهو الدواء الذى لا بد من تجرعـه علـى مرارتـه: "حيلـة من لا حيلة لـه الصـبر". كمـا أن طبيعـة الاجتمـاع البشـرى تقتضى من الإنسان أن يتغاضى عـن بعـض حقوقـه وأن يكـون مرنا مع الآخرين وألا يؤاخذهم بكل صغيرة وكـبيرة حـتى تسـير عجلة الحياة: "إذا عزَّ أخوك فهُـنْ"، "إذا رأيـتَ الـريح عاصـفًا فتَطَامَنْ"، "أىّ الرجال المهَـذَّبُ؟"، "طَوَيْتُـه علـى بُلالتـه"، مـع

معرفة أن "رضا الناس غاية لا تُدرَك"، وأن الطبائع الشخصية عصيّة على التغيير، وبخاصة إذا شاب الإنسان على ما شَبَّ عليه: "أَعْيَيْتِنى بأُشُرٍ، فكيف بدُرْدُرٍ؟"، "مِنَ العناء رياضة الهَرِمِ". ثم هناك العصبية القبلية التى لا يمكن الفكاك منها، ولذلك قيل فى أمثال الجاهلية: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"، وهو ما صححه الرسول الكريم عندما حوَّره بعض التحوير فقال إن نُصْرَتك أخاك ظالما إنما تكون بمنعه من الظلم، معطيًا عليه السلام هذا المثل بعدا أخلاقيا عظيما. كذلك هناك المثل التالى الذى يتعامل مع الطبيعة البشرية تعاملا مغرقا فى الواقعية بل فى اللاإنسانية دون مراعاة المثل الأعلى فى قليل أو كثير، وهو: "أَجِعْ كلبك يتبعك". وفى قولهم: "جَلَّى محبٌّ نظرَه" تعبير عن حقيقة نفسية تشاهَد فى المحبين، إذ مهما حاول الواحد منهم إخفاء مشاعره تجاه معشوقه عن الناس فإن عينيه تفضحانه. وقد قال الشاعر: "الصَّبُّ تفضحه عيونه". كذلك يحسن بالإنسان، إذا أراد أن يظل عزيزا محبوبا مكرما، ألا يكثر الزيارة للآخرين مهما كانوا يحبونه ويريدونه ألا يقطع رجله عنهم: "زُرْ غِبًّا تزدد حُبًّا"، وألا يُكْثِر كذلك من المُزاح، فإنه سبيل إلى نشوء البغضاء حتى بين المتحابين: "المُزَاح لقاح الضغائن".

وفى دنيا الزواج والأسرة تطالعنـا الأمثـال التاليـة، وهـى مأخوذة من واقع الحياة الـذى لا سـبيل إلى تغـييره ولا نكرانـه: "زوجٌ منَ عُود خيرٌ من قُعُود"، وهـو مـا يقـال عنـه فى أمثالنـا العامية: "ظلّ رجُل ولا ظلّ حائط"، "العَـوَانُ لا تُعَلَّـم الخمْـرة"، "بينهم داء الضـرائر"، "إن الحمـاة أُولعَـتْ بالكَنَّـة * وأُولعَـتْ كَنَّتُها بالظِّنَّة"، "أَضَلّ من مَوْؤُودة"، وهـى البنـت الصـغيرة الـتى تُدْفَن حية، وكان بعض الجاهليين يَئدون بنـاقم خوفـا مـن الفقـر أو العار. على أن هناك مثلا يبدو أنـه يعكـس اعتقـادا راسـخا عند العرب منذ قديم الزمـان، ألا وهـو أن الحـظ عليـه معـوَّل كبير فى حياة الإنسان. ولقد كنت أضيق أشد الضـيق بمثـل هـذا الكلام وأؤكد دائما أن السعى والتخطـيط واليقظـة هـى عمـود كل نجاح، ثم تبين لى أن للحظ دورا لا يُنْكَر فى حياتنـا، وأنـه قـد يرفع أقواما حقُّهم الاتضاع، ويخفض أقواما يسـتحقون كـل خـير ورفعة. ذلك أن أمورنا نحن العـرب لم تـزل تجـرى علـى غـير تخطيط، كما أن القيم الإسلامية العظيمـة لا يؤخـذ بهـا فى كـثير من الأحوال، ومن ثم فكثير من الناس لا يحصل علـى حقـه، علـى حين يَرَوْن من لا يستحقون قد سـبقوهم سـبقا فاحشـا دون أدنى مسوِّغ. ومن هنا صحَّ المثـل العـربى القـديم القائـل: "جَـدُّك لا كَدُّك"، أى أن حظك هـو الـذى سـتكون لـه الغلبـة فى نهايـة

المطاف، وكذلك قولهم: "اسْعَ بِجَدٍّ أو دَعْ"، وأن "من غاب غاب نصيبه".

أما قولهم: "لو لكِ عَوَيْتُ لم أَعْوِ" فيشير إلى ما كان يفعله الرجل الجاهلى فى الصحراء حين يكون مسافرا ويأتى عليه الليل فيجد نفسه وحيدا، فيعوى كالكلاب على أمل أن يكون على مقربة من خيمة لبعض الأعراب فتجاوبه كلابهم فيأتنس بهم ويحصل على ما يحتاجه من طعام وشراب عندهم حتى لا يموت جوعا أو عطشا. كما أن المسافر فى الصحراء كان يمسك دائما بعصًا يحمل عليها ملابسه وصرّة طعامه: "لو كان فى العصا سير". ومن الطريف أن نجد من الأمثال العربية ما يدلنا على أنهم فى الجاهلية كانوا يخوِّفون صغارهم بالذئاب كما يفعل أهل الريف والمناطق الشعبية عندنا الآن إذ يخوِّفون أبناءهم العُصَاة بالعفريت والغول وأبى رجل مسلوخة وما أشبه: "لقد كنتُ وما أُخَشَّى بالذئب".

ونختم بما ورد فى الأمثال الجاهلية مما كانوا يعتقدونه من خرافات وأساطير، كاعتقادهم فى السانِح والبارِح: فالسانح ما مرّ بك من طير أو حيوان من اليمين إلى اليسار، والبارح ما مرّ من اليسار إلى اليمين، وكانوا يتفاءلون بالأول، ويتشاءمون بالثانى: "من لى بالسانح بعد البارح؟". كما كانوا يتشاءمون بالغراب، إذ ارتبط وجوده عندهم بمواقع أطلالهم التى خلّفوها،

إذ يلتقط منها ما يكونون قد تركوه وراءهم، فانعقدت الصلة فى أذهانهم بينه وبين الفراق، وصاروا يتشاءمون به: "أشأم من غراب البَيْن". ولم يقتصر تشاؤمهم على الحيوان والطير، بل كانوا يستنحسون بعض النجوم أيضا: "أنكد من تالى النجم"، وهو "الدَّبَران"، الذى يتلو نجم "الثريا". كما كانوا يعتقدون فى "البَلاَيَا"، جمع "بَلِيَّة"، وهى الناقة التى كانوا يربطونها عند قبر صاحبها بعد أن يُغَمّوا عينيها، ثم يتركونها هكذا دون طعام أو شراب حتى تموت، إذ كانت عقيدتهم أنها بهذه الطريقة تكون جاهزة تحت تصرف صاحبها ليركبها يوم القيامة: "المنايا على البلايا"، وهو مثل يُضرَب للقوم الواقعين فى كرب لا مخلص منه، فهم يُشْبِهون "البليّة"، التى لا مفر لها من الموت. ومن خرافاتهم ما كانوا يقولونه عن السُّلَيْك بن السُّلَكَة، الشاعر الجاهلى الصعلوك المشهور، إذ كانوا يروون أنه ظل يعدو يوما وليلة كاملين سابقًا فارسين من فرسان الأعداء لم يستطيعا إدراكه قط حتى بلغ منازل قومه وحذرهم هجوما وشيكا من أعدائهم، فأخذوا حذرهم ولم يقدر العدوّ أن يصيب منهم غِرَّة: "أَعْدَى من السُّلَيْك". ومن مبالغاتهم التى تدخل فى باب الخرافات قولهم: "أَبْصَر من الزرقاء" (وهى زرقاء اليمامة المشهورة، وكانوا يزعمون أنها من قوة البصر وحدّته بحيث ترى على بعد ثلاثة أيام). وهناك مثل يقول: "أشأم من الزُّمَّاح"

(إشارة إلى طير كان يقع على بيوت ناس من أهــل يثــرب ويأكــل من تمرهم ثم يطير فلا يعود إلى العام التــالى، فرمــاه رجــل منــهم بسهم فقتله وقسم لحمه، فلما مر العام لم يبق ممن أكــل مــن لحمــه أحدٌ حيًّا)، "أَعْمَرُ من حَيَّة" (لأنهم كــانوا يظنــون أنهــا لا تمــوت أبدا إلا إذا قتلها إنسان، وإلا فإنها إذا كــبرت عــادت فصــغرت حتى تكبر ثم تعود فتصــغر... وهكــذا دواليــك!)، "أَعْمَــرُ مــن نَسْر، أو من قُرَاد" (إذ كــانوا يؤمنــون أن الأول يُعَمَّــر خمســمائة عام، والثانى سبعمائة).

هذا، وهناك كتب خاصة بالأمثال ألفهــا بعــض مــن كبــار الكتاب العرب القدماء، ومنــهم صُــحَار العبــدى وأبــو عبيــدة مَعْمَر بن المثَنَّى وثعلب والمفضَّل الضَّــبِّىّ وأبــو هــلال العســكرى والزمخشرى والميدانى. وهى كتب تُعْنَى بــإيراد أكــبر عــدد ممكــن من الأمثال العربية القديمــة وشــرحها وتفســير مــا يحتــاج مــن ألفاظها وتراكيبها وعباراتها إلى تفسير، فضــلا عــن إيــراد قصــة المثل إن كانت وصلتهم، وقــد تكــون هــذه القصــة حقيقيــة أو خيالية، وإن كانوا فى بعض الأحيان يعلنــون عــن عجــزهم عــن معرفتها كما فعل أبو هلال العسكرى مرارا، إذ قــال مــثلا عنــد تعرضه لقولهم: "أَبْدَح ودُبَيْح": "يقولــون: جــاء بأبــدح ودبــيح، إذا جاء بالباطل. ولم يُعْرَف أصــله"، أى أن قصــته لم تصــله. أمــا فى شرحه للمثل القائل: "بعــينٍ مــا أَرَيَنَّــك" فقــد علــق قــائلا:

"معناه: اعْجَلْ. وهو من الكلام الذى قد عُرِف معناه سماعا من غير أن يدل عليه لفظه. وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد علينا بكمالها، وأن فيها أشياء لم تعرفها العلماء". وفى تعليقه على المثل التالى: "أحمق من راعى ضأن ثمانين" نراه يقول: "ولا أدرى لم خُصَّت بالثمانين هنا"...إلخ. ومن هنا نرانا لا نوافق بروكلمان على ما قاله فى الأمثال من أن "من عُنُوا بجمعها من الأدباء لم يقعوا مرة فى حيرة من تفسيرها وإيضاحها" وما فيه من سخرية مبطنة (كارل بروكلمان/ تاريخ الأدب العربى/ ١/ ١٢٩)، بل نؤكد أن هذا الكلام غير صحيح لعدة أسباب: الأول أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا يوردون هذه القصص دائما كما قلنا آنفا. والثانى أنهم ليسوا هم الذين ألّفوا هذه القصص، بل كانوا مجرد نقلة لها حسبما وصلت إليهم. والثالث أن العسكرى مثلا، حسبما رأينا معا، قد أعلن عن عجزه فى عدة مناسبات مختلفة عن معرفة قصة المثل، بل حتى عن مجرد معرفة معناه فى بعض الأحيان. بل إنهم كثيرا ما يكتفون بإيراد المثل دون إضافة أية كلمة أخرى من لدنهم. وهو نفسه ما نقوله ردًّا على ما كتبه نيكلسون فى ذات الموضوع، إذ جاء فى كتابه: "A Literary History of the Arabs" أثناء كلامه فى هذه المسألة إن هذه الأمثال "نادرا ما تستغنى عن الشرح، على حين أن ما كُتِب من تعليقات عليها إنما هى من

عمل علماء وضعوا نُصْبَ أعينـــهم أن يشـــرحوها مهمـــا كلفهـــم ذلك، رغم أن الظروف التى قيلت فيها قـــد نُســـيَتْ تمامـــا" (A Literary History of the Arabs, P. 31).

سَجع الكُهّان

الكُهّان العرب هم طائفة من رجال الـدين كـانوا يقومـون على سِدَانة معابد الأوثان فى الجاهليـة، وكـان العـرب الوثنيـون يلجأون إليهم فى حسم ما ينشأ بينهم مـن منـافرات أو خلافـات قبلية أو أسرية أو فردية، أو تأويل مـا يقـع لهـم فى نـومهم مـن رُؤًى تحتاج إلى تعبير، أو مساعدتهم على معرفة مـا يخبئـه الغيـب من أحداث أو أشياء وما إلى ذلك مما كانوا يحصـلون علـى جُعْـلٍ فى مقابله. وكان هؤلاء الكهان يجيبون على ما يوجَّـه إلـيهم مـن استفسارات بكلام مسجوع يُرَاعَى فيه عـادةً أن يكـون مـوجَزًا غامضًا يحتمل وجوها متعددة من التفسـير، فضـلا عـن احتوائـه على بعض الغريب من اللفـظ، بحيـث يسـتطيع الكـاهن عنـد اللزوم أن يقول إنه لم يقصد هذا المعنى مـثلا بـل ذاك، ومـن ثم لا يَظْهَر لقُصّاده وطالبى عونه أنه يخطئ كغيره من النـاس وأنـه لـيس بينه وبين عالم الغيب أى اتصال. وقـد وردت أقاويـل منسـوبة إلى هؤلاء الكهان فى مناسبات وقضايا مختلفة كمـا فى الخـبر المـروىّ عن الكاهن الخُزَاعِىّ، الذى نَفَّـرَ بـين هاشـم جـد الـنبى عليـه السلام وأُمَيَّة بن عبد شمس، وجاء فيه: "وَلِـيَ هاشـمٌ بعـد أبيـه عبد مناف ما كان إليه من السِّقَاية والرِّفَـادة فحسـده أميـة بـن عبد شمس بن عبد مناف على رياسته وإطعامـه، وكـان ذا مـال. فتكلَّف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشَـمِت بـه نـاس مـن

قريش، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة. فكره هاشم ذلك لسنّه وقَدْره، فلم تَدَعْه قريش حتى نافره على خمسين ناقة سُود الحَدَق ينحرها ببطن مكة والجلاء عن مكة عشر سنين. فرَضِيَ بذلك أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، وهو جَدّ عمرو بن الحَمِق (الصحابي المعروف)، ومنزله بعُسْفان (بين مكة ويثرب). وكان مع أمية همهمة بن عبد العُزّى الفِهْرِيّ، وكانت ابنته عند أمية، فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من مُنْجِد وغائر، لقد سبق هاشمٌ أميةَ إلى المآثر، أوّلٌ منه وآخِر، وأبو همهمة بذلك خابر. فقضى لهاشم بالغلبة وأخذ هاشمٌ الإبلَ فنحرها وأطعمها، وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين. فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية".

ومنه كذلك ما قيل عن تكهُّن عوف بن ربيعة الأسدي بمقتل حُجْر بن الحارث، حيث تجرى القصة على النحو التالى: "كان حُجْر بن الحارث أبو امرئ القيس ملكَ بني أسد، وكان له عليهم إتاوة كلَّ سنة لما يحتاج إليه. فبقي كذلك دهرا، ثم بعث إليهم من يَجْبي ذلك منهم، وحُجْرٌ يومئذ بتِهَامة، فطردوا رسله وضربوهم. فبلغ ذلك حُجْرًا فسار إليهم فأخذ سَرَوَاتهم وخِيَارَهم وجعل يقتلهم بالعصا، فسُمُّوا: "عبيدَ العصا"، وأباح

الأموال وصيَّرهم إلى تِهَامَة وحبس جماعـة مـن أشـرافهم منـهم عبيد بن الأبرص الشاعر، فقال شعرا يستعطفه فيه، ومنه قوله:

أنت المَلِـيك عليهمو   وهم العبيد إلى القيامة

فرقَّ لهم وعفا عنهم وردّهـم إلى بلادهـم. فلمـا صـاروا على مسيرة يوم من تهامة تكهَّن كاهنهم، وهو عـوف بـن ربيعـة بن عامر الأسدي، فقال لهم: يـا عبـادي. قـالوا: لبيـك ربَّنـا. فقال: مَنِ الملك الصَّلْهَب (الشـديد)، الغـلاَّب غـير المغلَّـب، في الإبل كأنها الربرب (أى قطيـع بقـر الـوحش)، لا يقلـق رأسـه الصخب، هذا دمه ينثعب (يسيل)، وهو غـدًا أول مـن يُسْـتَلَب؟ قالوا: ومن هو ربَّنا؟ قال: لولا تَجَيُّشُ نفـسٍ جاشـية، لأخـبرتكم أنه حُجْرٌ ضاحية (أى علانية). فركبوا كل صَـعْبٍ وذَلُـول حـتى بلغوا عسكر حُجْر فهجموا عليه في قُبَّته فقتلوه".

ثم هذا الخبر الذى يتحدث عن تعـرُّض هنـد بنـت عتبـة للشك فى شرفها من زوجها الفاكه بن المغيرة لريبـةٍ ظنَّهـا فيهـا، فحاكمه أبوها إلى كاهن من كهان اليمن قضـى ببراءتهـا فعـادت مرفوعة الرأس رافضة أن تظل على ذمة الفاكه بعـد الـذى كـان منه فى حقها: "كان الفاكه بـن المغـيرة المخزومـي أحـدَ فتيـان قريش، وكان قد تزوج هند بن عتبة، وكـان لـه بيـت للضـيافة يغشاه الناس فيه بلا إذن. فقال يوما في ذلك البيـت وهنـد معـه، ثم خرج عنها وتركها نائمة فجاء بعض من كـان يغشـى البيـت،

فلما وجد المرأة نائمة ولّى عنــها، فاســتقبله الفاكــه بــن المغــيرة فدخل على هند وأنّبها وقال: مَــنْ هــذا الخــارج مــن عنــدك؟ قالت: والله ما انتبهت حتى أنبهْتَني، وما رأيت أحــدا قَــطّ. قــال: الحقي بأبيك. وخاض الناس في أمرهم، فقال لها أبوهــا: يــا بُنَيَّــة، العارَ وإن كان كذبا. بُثّيني شــأنك، فــإنْ كــان الرجــل صــادقا دسَسَتُ عليه من يقتله فيقطــع عنــك العــار، وإن كــان كاذبــا حاكمْتُه إلى بعض كُهّان اليمن. قالت: والله يا أَبَــت إنــه لَكَــاذب. فخرج عتبة فقال: إنك رميتَ ابنتي بشيء عظــيم، فإمــا أن تبــيّن ما قلتَ، وإلا فحاكمني إلى بعض كهان اليمن. قــال: ذلــك لــك. فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش ونسوة مــن بــني مخــزوم، وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبــد منــاف. فلمــا شــارفوا بلاد الكاهن تغيَّر وجه هند وكَسَفَ بالُها، فقــال لهــا أبوهــا: أيْ بُنَيَّة، ألاَ كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجنــا؟ قالــت: يــا أبت، والله ما ذلك لمكروه قِبَلِي، ولكــنكم تــأتون بشــرا يخطــئ ويصيب، ولعله أن يَسِمَني بسِمَة تَبْقَى على ألســنة العــرب. فقــال لها أبوها: صَدَقْت، ولكني سأَخْبُره لــك. فصَــفَّر بفرســه، فلمــا أَدْلَى عَمَدَ إلى حَبّــة بُــرّ (قَمْــح) فأدخلــها في إحْليلــه ثم أَوْكَــى (رَبَط) عليها وسار، فلما نزلوا على الكاهن أكــرمهم ونحــر لهــم، فقال له عُتْبَة: إنا أتيناك في أمرٍ، وقد خبأنا لك خبيئــة، فمــا هــي؟ قال: بُرَّةٌ في كَمَرَة. قال: أريد أَبْيَنَ من هــذا. قــال: حبّــة بُــرّ في

إحليل مُهْر. قال صَدَقْتَ، فانظر في أمر هؤلاء النسوة. فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ويقول: قومي لشأنك. حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها وقال: انهضي غير رَقْحَاءَ (فاجرة) ولا زانية، وستلدين مَلِكًا يسمَّى: معاوية. فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها، فنترت يده من يدها وقالت: إليك عَنِّى. والله لأَحْرِصَنَّ أن يكون ذلك الولد من غيرك. فتزوجها أبو سفيان، فولدت له معاوية".

ومن ذلك أيضا ما رُوِىَ عن سَطِيح الذئبى الغَسّانى من أنه "لما كان ليلة وُلِد النبي ارتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل مملكته، فما كان أوشك أنْ كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر، فقال المُوبَذَان: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني. قال له: وما رأيتَ؟ قال: رأيتُ إبلاً صِعَابًا، تقود خيلا عِرَابا، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا. قال: رأيتَ عظيما، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما

عندي فيهـا ولا في تأويلـها شـيء، ولكـنْ أرْسـلْ إلى عاملـك بالحيرة يوجِّه إليك رجلا مـن علمـائهم، فـإنهم أصـحاب علـم بالحدْثان. فبعث إليه عبْدَ المسيح بن بُقَيْلَـة الغسـاني، فلمـا قـدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيهـا الملـك، والله مـا عنـدي فيها ولا في تأويلها شـيء، ولكـن جهِّـزْني إلى خـال لي بالشـام يقال له: سَطِيح. قال: جهِّزوه. فلما قـدم إلى سـطيح وجـده قـد احْتُضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلـم يـرد عليـه، فقـال عبـد المسيح:

أصـمُّ أم يسمع غِطْرِيفُ اليمنْ؟	يا فاصل الخـطة أعْيتْ مَنْ ومَنْ
أتـاك شيخ الحي مـن آل سَنَنْ	أبيض فضفاض الرداء والبـدنْ
رسول قَيْل العـجم يَهْوِى للوَثَنْ	لا يرهب الرَّعْد ولا رَيْب الزمـنْ

فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسـيح، علـى جمـلٍ مُشِـيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفى علـى الضـريح، بعثـك مَلـك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمـود الـنيران، ورؤيـا الموبَـذان. رأى إبلا صِعَابا، تقود خـيلا عِرَابـا، قـد اقتحمـت في الـواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثـرت الـتلاوة، وظهـر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضـت بحـيرة سـاوة، وخمدت نار فارس، فليسـت بابـل للفـرس مُقَامـا، ولا الشـام لسطيحٍ شاما. يملـك منـهم ملـوك وملكـات، عـدد سـقوط الشرفات، وكل ما هو آتٍ آت...إلخ".

أما فى القصة التالية فنرى الكاهن يحـذّر بـنى الحـارث بـن كعب من الإغارة على بنى تمـيم، وإلا تعرضـوا للهزيمـة الـمُرّة على أيديهم: "كان بنو تميم قـد أغـاروا علـى لَطِيمَـة (قافلـة) لكسرى فيها مسك وعنبر وجوهر كـثير، فـأوقع كسـرى بهـم وقتل المقاتلة، وبقيت أمـوالهم وذراريهـم في مسـاكنهم لا مـانع لها. وبلغ ذلك بني الحـارث بـن كعـب مـن مَـذْحِج، فمشـى بعضهم إلى بعض وقـالوا: اغتنمـوا بـني تمـيم. فاجتمعـت بنـو الحارث وأحلافها من زيد وحـزم بـن ريـان في عسـكر عظـيم وساروا يريدون بني تميم، فحذَّرهم كـاهن كـان مـع الحـارث، واسمه سلمة بـن المغفـل، وقـال: إنكـم تسـيرون أعقابـا (أى بعضكم فى إثر بعض)، وتغزون أحبابـا، سـعدا ورَبَابـا، وتَـرِدُون مياها جِبَابا (جمع "جُبّ"، وهو البئـر)، فتَلْقَـوْن عليهـا ضِـرابا، وتكون غنيمتكم ترابا، فأطيعوا أمري ولا تغـزوا تميمـا. ولكنـهم خالفوه وقاتلوا بني تميم فهُزِموا هزيمة نكراء".

ولا شك أن أى عاقـل سـيُنكِر مـا جـاء فى مثـل تلـك الأخبار من أن هـذا الكـاهن أو ذاك كـان يسـتطيع أن يعلـم الغيب، إذ الغيب شأن مـن شـأن الله سـبحانه وتعـالى لا يمكـن أحدا من عباده أن ينفـذ مـن خـلال حُجُبـه إلا إذا أوحـى الله بشىء من ذلك لنبى من أنبيائه. ونبينـا عليـه السـلام مـأمور فى القرآن بأن يقـول: "وعنـده (أى عنـد الله) مفـاتح الغيـب، لا

يعلمهـا إلا هـو"، "قـل: لا يعلـم مـن فى السـماوات والأرض الغيبَ إلا الله"، "قل: ما كنتُ بِدْعًا مـن الرسـل، ومـا أدرى مـا يُفْعَل بى ولا بكم"، "ولو كنـتُ أعلـم الغيـب لاسـتكثرتُ مـن الخير وما مَسَّنِىَ السوء"، "عـالِم الغيـب (أى الله سـبحانه) فـلا يُظْهِر على غيبه أحدا* إلا من ارتضى مـن رسـول، فإنـه يَسْـلُك من بين ومـن خلفـه رَصَـدًا* لِـيَعْلَم أنْ قـد أبلغـوا رسـالات ربهم"... إلخ. فماذا يكون الكـاهن بالنسـبة للـنبى، وبخاصـة إذا علمنا أن الكهنة كانوا يزعمون أنهـم إنمـا يسـتعينون فى مهمتـهم الكهنوتية بالشياطين، ولم يكن يترل علـيهم الـوحى مـن السـماء من لدن الله سبحانه وتعالى؟ وعلى هـذا فـنحن مضـطرون إلى أن نرفض ما ورد أيضا فى تلك الأخبار ذاتهـا مـن كـلام منسـوب للكهنة فى هذه الظروف من مثـل: "عبـد المسـيح، علـى جمـلٍ مُشِيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفي علـى الضـريح، بعثـك مَلك بني ساسان، لارتجـاج الإيـوان، وخمـود النـيران، ورؤيـا الموبَذان. رأى إبلا صِعَابا، تقود خـيلاً عِرَابـا، قـد اقتحمـت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسـيح، إذا كثـرت الـتلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السـماوة، وغاضـت بحـيرة ساوة، وخمدت نار فـارس، فليسـت بابـل للفُـرْس مُقَامـا، ولا الشام لسطيحٍ شاما. يملك منهم ملـوك وملكـات، عـدد سـقوط الشرفات، وكل ما هـو آت آت"، أو "الهضـي غـير رَقْحَـاءَ ولا

زانية، وستلدين مَلكًا يسمَّى: معاوية"، لأنــه إذا كانــت الواقعــة لم تحدث أصلا فبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون الكــلام المتصــل بهــا قد قيل! أما قول الكاهن الذى نفَّر بين هاشــم بــن عبــد منــاف وأمية بن عبد شمس فهو لا يزيد عــن أن يكــون حُكْمًــا فى قضــية اجتماعية ليس إلا، ولا يدخل فى باب الإنباء بالغيب.

إذن فالباحثون الــذين ينكــرون صــحة هــذه الأســجاع ويَرَوْن أنها من صنع المتأخرين ليسوا على خطــإ مطلــق، وإن قــام رَفْضُ الدكتور شوقى ضيف لها مثلا علــى أســاس طــول الــزمن المنصرم ما بين صــدور الأقاويــل المنســوبة إلى أولئــك الكهــان والوقت الذى سُــجِّلَتْ فيــه (العصــر الجــاهلى/ ٢٢٤)، وهــو سبب غير كاف كمــا قلنــا عنــد حــديثنا عــن الأمثــال، إذ إن الذاكرة العربية مشهورة بالحفظ مــن كثــرة مــا كــان أصــحابها يعتمدون عليها ويستعملونها لانتشار الأمية بينهم، ممــا مــن شــأنه أن يجعلها أحَدّ وأنشط من الــذاكرة الــتى لا يســتخدمها أهلوهــا على هذا النطاق الواسع. كما أن هــذه الأقاويــل، حســبما بيّنــا، تقوم على السجع، وهو ما يساعد على المزيد مــن الحفــظ، فضــلا عن أنها ليست من الطــول ولا مــا احتفظــت بــه الكتــب مــن نصوصها من الكثرة بحيث تســبب للــذاكرة عَنَتًــا فى الاحتفــاظ بها، إلى جانب اعتقاد الجاهليين أنها حق لا ريب فيه.

وقد يُفهَم من كلام بعض الدارسين أن هـذه الأقاويـل هـى أساس السجع أو أنها على الأقـل كانـت النصـوص المسـجوعة الوحيدة فى النثر الجاهلى، فقد كتـب مـثلا المستشـرق الألمـانى كارل بروكلمان أن "السجع هـو القالـب الـذى كـان يصـوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقـوالهم" (تـاريخ الأدب العـربى/ ١/ ٥١)، وهو ما يتابعه عليه عبد الستار فـوزى ود. عـز الـدين إسماعيل، إلا أنهمـا لم يكتفيـا بـذلك، إذ ذكـر الأول أن "تلـك الأسجاع حتى البقية التى استُعمِلت فى عصـر الإسـلام الأول قـد نبعت جميعا من سجع الكهان الجاهليين يوم كانـت تلـك الأنغـام المتوازنة ضـرورية لتمثيـل الكـاهن، ولا غـنى عنـها لتصـوير شخصيته وإثبات علمه وتحديد ما يصـدره مـن أقضـية وأحكـام، وما يشيع عنه من وحى وإلهام" (عبـد السـتار فـوزى/ السـجع وأطوار استعماله فى أدب العـرب/ الشـركة المركزيـة للطباعـة والإعلان/ بغداد/ ١٩٦٦م/ ٣٢)، كمـا ورد فى حـديث الثـانى عن السجع وسيطرته على النثر الفـنى فى العصـور الإسـلامية أن هذا الاتجاه هو "امتداد لما عُرِف فى الجاهليـة قـديما باسـم سـجع الكهـان" (د. عـز الـدين إسماعيـل/ المكونـات الأولى للثقافـة العربية- دراسة فى نشـأة الآداب والمعـارف العربيـة وتطورهـا/ ط٥/ أبوللو للنشـر والتوزيـع/ ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م/ ٤٢)، وإن كان فى موضع آخر قد أضاف "الأمثـال" أيضـا إلى "سـجع

الكهان"، وذلك فى النص التالى الذى يَعْرِض فيـه لأوّليّـة الشـعر العربى وكيفية نشوئه، إذ قال: "هنـاك فـرض راجـح حـتى الآن يذهب فيه أصـحابه مـن علمـاء تـاريخ الأدب إلى أن الشـعر العربى قد نشأ فى جاهلية العـرب الأولى نتيجـة لتطـور العبـارات المسجوعة التى كـان يسـتخدمها الكهنـة فى رُقَـاهم وتنبـؤاتهم، والعبارات الأخرى المسجوعة فى بعض الأحيان الـتى كـان تجـرى على الألسنة مجرى المثل" (المرجع السابق/ ٩). وعلـى كـل حـال فليس بين أيدينا ما يبين متى بدأ السـجع فى النثـر العـربى، وهـل يرجع فعلا إلى "سجع الكهان" وحـده أو إليـه هـو و"الأمثـال" كما فى النص الأخير أو هو أمر سابق على ذلـك، فضـلا عـن أن خُطَب الجـاهليين ومنـافراتهم وخصـوماتهم كانـت (كمـا هـو معروف) مسجوعة فى غـير قليـل مـن الأحيـان. وعلـى هـذا فالتفكير العلمى الحذر يقتضينا أن نكون علـى ذكـر مـن هـذه الحقيقة قبل أن نصدر حكما كهذا فنضلّ فى بَيْـدَاء الـوهم. كـل ما نستطيع أن نقوله هو أن السجع كان معروفـا للجـاهليين وأنـه كان مستعملا لا فى كـلام الكهـان والكاهنـات وحـده، ولا فى كلامهم والأمثال فقط، بل فى الخُطَـب والمنـافرات والخصـومات أيضا، إذ هو يلبى حاجة فطريـة فى الـنفس، "فـالكلام الموسـيقى المتوازن على اختلاف ألوانه هتاف النفس حـين تضـطرم بنـوازع النشوة والألم، والسرور والحزن، والرضـاء والغضـب، والبسـط

والقبض، تبعثه فى يسرٍ من أعماقها سَيّالاً متـدارِكا كأنمـا تجـد فى تناغم ألفاظه ورنـين أجراسـه وتعـاطف حروفـه متنفَّسًـا لهـذا الجَيَشان العنيف وتطبيقًا لهذه الثـورة الصـاخبة" (علـى الجنـدى/ صُوَر البديع- فن الأسجاع/ دار الفكـر العـربى/ ١/ ٩)، ولـيس ثمة ما يلجئنا إلى القول بـأن السـجع نشـأ فى أحضـان السِّـحْر والكهانة والمعابد ومـا إلى ذلـك كمـا يـردد بعـض الدارسـين العرب تأثرا بما يقوله المستشرقون فى هـذا المجـال، لأن مـا كـان مرتبطا بالفطرة لا يحتاج إلى سحر أو كهانـة أو معابـد، وبخاصـة أننا نعلم ما تتميز به اللغة العربية من الموسـيقية والـرنين والتـوازن مما يجعلها فى ذاتها بيئةً جِدَّ مناسبةٍ لازدهار السجع والشعر.

السجع إذن لم يكن مقصورا على الكهـان، بـل اسـتخدمه الخطباء والمتنافرون والمتفاخرون وضـاربو الأمثـال أيضـا، ذلـك أنه مجرد أداة، مَثَلُه فى هذا مَثَلُ الجمل والسـيف والقلـم وغيرهـا من الوسائل والأدوات التى يصطنعها البشـر فى حيـاتهم، لا يحمـل أية دلالة عقيدية أو أخلاقية فى حد ذاته، على عكـس مـا يقـول اللمازون الذين يحاولون الإيهام بأنه ليس هناك فـرق بـين دعـوة الرسول عليه السلام ووظيفة الكهان. ومـن هنـا نجـد السـجع مستعملا فى القرآن كما كان مستعملا لدى الكهنـة، رغـم أنهـم إنما كانوا يستخدمونه فى الكـذب والإيهـام بـالتنبؤ بالغيـب وفى التنفير بين المتنافسين على السمعة وما أشـبه، علـى حـين أنـه فى

القرآن مستَعْمَلٌ فى الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والحث على البر والعدل والصدق والعلم والأخوة والتراحم والتعاون والمساواة ونبذ الربا والقمار والخمر... إلى آخر ما نعرف من القيم الكريمة النبيلة التى رفع لواءها القرآن الكريم والتى تتعارض مع دعاوى الكهانة وخرافاقا. ولقد نزل القرآن بنفس اللغة التى كان الكهان يتخذونها، وهى اللغة العربية، كما أن الرسول كان يمارس حياته، فيما عدا كهانتهم ووثنيتهم، مثلما كانوا يمارسون حياقم، فكان يأكل ويشرب ويتزوج مثلما كانوا يأكلون ويشربون ويتزوجون، وكان يركب الناقة والحصان مثلما كانوا يفعلون. وفى القرآن نقرأ أن كتاب الله قد "نزل بلسان عربى مبين"، وهذا أمر طبيعى كى يفهمه العرب الذين اتجه إليهم القرآن أول ما اتجه: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيِّن لهم"، والسجع جزء من هذا اللسان الذى نزل به القرآن، وهو عنصر جذاب لأولئك القوم، فأين وجه الحرج فى أن يستعين به كتاب الدعوة الجديدة حتى تنصت إليه الأسماع وتَصْغُو له القلوب والعقول؟ وبقريب من هذا قال د. جواد على، الذى علّق على أسلوب المفسرين فى توجيه قَسَم القرآن بالتين والزيتون وما إلى ذلك قائلا: "وفي القرآن قَسَمٌ بالسماء وبالعاديات وبالتين والزيتون وبغير ذلك ذهب المفسرون في سبب القسم بها مذاهب، ففسروا وتأولوا.

ولو فكروا أن هذا النوع من القسم هـو أسـلوب مـن أسـاليب العرب في القسم قبل الإسـلام، وأن القـرآن إنمـا نـزل بلسـان العرب، ولذلك اتبع طريقتهم في القسم لأنه خاطبـهم علـى قـدر عقـولهم وبلغتـهم، عرفـوا السـبب. ولا زال الأعـراب علـى سجيتهم القديمة في القَسَم بهذه الأشياء، يُقْسِمون بهـا كمـا يُقْسِـم المتحضر بأعز شـيء عنـده" (المفصَّـل فى تـاريخ العـرب قبـل الإسلام/ ٤/ الفصل الخاص بالنثر).

كما أن المسـلمين الأوائـل قـد أدَّوْا العُمْـرَة فى السـنة التالية لغزوة الحديبية حين كانت الكعبة لا تـزال تعـجّ بالأوثـان، فهل يمكن اتهامهم بأنهم كانوا يمارسـون طقوسـا وثنيـة؟ بـل إن الحجاج المسلمين كانوا وما فتئوا يأتون مـن الطقـوس مـا كـان الوثنيون يمارسون بعضه مما بقى من حـج الخليـل عليـه السـلام، لكن العبرة بالنيـة، إذ ينبغـى ألا ننسـى أن الجـاهليين الـوثنيين كانوا يحتفظون رغم وثنيتهم ببعض شعائر الحـج الصـحيحة الـتى ورثوها عن أبيهم إبراهيم عليه السـلام، وهـو مـا احـتفظ بـه الإسلام أيضا فى هذه العبادة. ومثله السجود، الـذى كـان بعـض الوثنيين يؤدونه للشمس وللقمر، ويؤديه المسـلمون أيضـا، لكـنْ لله تعالى لا لهذين الجِـرْمَيْن السَّـمَاوِيَّيْن... وهكـذا. إن السـجع مجرد أداة أو وسيلة، والأداة لا تعاب فى حد ذاتهـا، بـل للغـرض السيئ الذى تستعمل فيه.

لقد كان سجع الكهان يـدور فى فَلَـك الوثنيـة ويـتم فى بيوت الأوثان، بخلاف السجع فى القرآن، الـذى حـارب الوثنيـةَ وقام الرسولُ الذى نزل عليه ذلك الكتاب الكـريم بهـدم أوثانهـا وبيوتها. كما كان الكهان يتقاضَوْن أجرا علـى مـا يقولـون، أمـا النبى فلم يكن يمد يده إلى مـال أحـد، وآيـات القـرآن الكـريم واضحة تمام الوضوح فى هذا: "قل: لا أسـألكم عليـه أجـرا. إنْ هو إلا ذِكْرَى للعالمين"، "وما أسألكم عليه مـن أجـر. إنْ أجـرىَ إلا على رب العالمين"، "قل: ما أسألكم عليـه مـن أجـر إلا مـن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا"، "قـل: لا أسـألكم عليـه أجـرا إلا المودّة فى القُرْبَى". ليس هذا فحسـب، بـل لقـد حـرّم الإسـلام أيضا عليه وعلى أهل بيته جميعا أن يأخـذوا شـيئا أى شـىء مـن أموال الصدقات، وكلنا يعرف أنه عليـه الصـلاة والسـلام كـان يتشدد فى هذا أيما تشـدد! ولقـد حـارب الإسـلام والرسـول الكهانة والمتكهنين حربا شعواء، وأبـدى عليـه السـلام امتعاضـه ونفوره الشديد مـن طريقتـهم المتكلفـة الغامضـة فى التسـجيع، فكيف يقال إنه صلى الله عليه وسلم قد جـرى فى رِكَـابهم ونَهَـجَ نَهْجَهم كما يردد بعض الرُّقَعَاء؟ ومصداقًا لهـذا نلفـت النظـر إلى القصة التالية وما فيها من دلالات على موقـف الرسـول الأكـرم من "سجع الكهان" أيضا لا من "الكهـان" أنفسـهم فقـط، فقـد "اقتتلت امرأتان من هُـذَيْل، فرمـت إحـداهما الأخـرى بحجـر

فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقضى رسول الله أن دية جنينها غُرّة: عبد أو وليدة. وقضى بدية المرأة على عاقلتها، وورّثها ولدَها ومن معهم. فقال حمل بن النابغة الهُذَليّ: يا رسول الله، كيف أغرم من لا شَرِبَ ولا أَكَلَ، ولا نَطَقَ ولا استهلّ؟ فمثل ذلك يُطَلّ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما هذا من إخوان الكهان"، من أجل سجعه الذي سجع"، إذ كان كهان الوثنية، كما سبق بيانه، يخدعون الناس ويشيعون الوهم فى العقول ويصطنعون أسلوبا متكلفا لا يبغى كشف الحق بل يمكّن للباطل تمكينا، فأراد عليه السلام من المسلمين أن ينبذوا هذا الأسلوب العفن الضار. إنهما إذن طريقان مختلفان، وأسلوبان فى استعمال السجع لا يلتقيان!

ثم لو كان صلى الله عليه وسلم يجرى على سُنّة الكهانة والمتكهنين كما يزعم الزاعمون، فكيف يفسر المتنطعون الذين يتهمونه هذا الاتهام الأرعن أنه قد حورب من قومه، على حين أن الكهان كانوا محطّ رهبة ورجاء من هؤلاء القوم، ولم يكن أحد من العرب ليفكر فى مس شعرة من شعرهم؟ بل كيف يفسرون معاداة الكهان له عند إعلانه دعوته لو أنه كان واحدا منهم، وهم الذين لم نسمع قط أنهم عادَوْا أى واحد من أبناء مهنتهم؟ بل إننا لم نسمع أيضا أن أحدا منهم اتهم الرسول عليه

السلام رغم هذا بأنه قد أخذ منهم أسلوبه، فكيف نفسر ذلك أيضا؟ صحيح أن قومه قد اتهموه بأنه كاهن، لكنهم اتهموه كذلك بأنه شاعر، وبأنه مجنون، وبأنه ساحر، وكل تهمة من هذه تناقض التهمة الأخرى، كما أن أيًّا منها لا ينطبق على حالته صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أنها مجرد دَعَاوَى ومزاعمَ كاذبةٍ متخبطةٍ مبعثها الحقد والغيظ. وأكبر دليل على بطلان هذه الأقاويل أنهم هم أنفسهم قد انتهَوْا إلى الإيمان به لاحسين كل تلك الاتهامات ومكذِّبين أنفسهم بأنفسهم! بل لقد عرضوا عليه أنه إن كان الذى يأتيه رَئِيًّا من الجن فإنهم على استعداد لبذل كل ما يملكون فى تطبيبه حتى يَشْفُوه منه، وكان جوابه التمسك بما يدعو إليه وعدم الالتفات إلى هذه السخافات والمزيد من التفانى فى دعوتهم إلى نبذ الأوثان وسبيل الكهّان. وقد انتهى هذا كله، كما هو معروف، بأَنْ دخل الجميع فى دين الله على بكرة أبيهم بما فيهم الكهان أنفسهم وأهلوهم، فعلام يدل هذا أيضا لو كان عند من يتهمونه مثل هذه التهمة عقول تفكر وتبصر؟ إن القرآن حملة مستمرة على الشيطنة والشياطين، فبالله كيف يَسُوغ فى منطق العقل أن يقال إنه عليه السلام كان يستعين بالشياطين؟

ولقد أكثر أعداء الإسلام فى العصر الحديث من المستشرقين والمبشرين ومن يلوذ بهم ويردد مزاعمهم من

الكلام فى أقسام القرآن التى استُهلّتْ بها بعض السور المكية مثل: "والنجم إذا هَوَى* ما ضلَّ صاحبكم وما غَوَى* وما ينطق عن الهوى* إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى"، "والسماء والطارق* وما أدراك ما الطارق؟* النَّجْم الثاقب* إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عليها حافظ"، "ق والقرآنِ المجيد* بل عجبوا أنْ جاءهم مُنْذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شيء عجيب"، "حم والكتاب المبين* إنا أنزلناه فى ليلة مباركة. إنا كنا منذِرين* فيها يُفْرَق كل أمرٍ حكيم* أمرا من عندنا"... إلخ، قائلين إنه عليه السلام إنما يقلد الكهان فى طريقتهم بالقَسَم بمظاهر الطبيعة كالذى رُوِىَ عن الكاهن الخزاعي من قوله: "والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعَلَم مسافر، من مُنْجِدٍ وغائر"، والذى رُوِىَ عن سواد بن قارب الدَّوْسِيّ وقوله: "والسماء والأرض، والغَمْر والبَرْض، والقَرْض والفَرْض، إنكم لأهل الهضاب الشُّمّ، والنخيل العُمّ، والصخور الصُّمّ، من أَجَا العيطاء، وسَلْمَى ذات الرقبة السطعاء... أُقْسِم بالضياء والَحلك، والنجوم والفَلَك، والشروق والدَّلك، لقد خبأتَ بُرْثُن فرخ، في إعليط مَرْخ، تحت آسرة الشَّرْخ... والسحاب والتراب، والأصباب والأحداب، والنَّعَم الكُثاب، لقد خبأتَ قُطَامة فَسيط، وقُذّة مَريط، في مَدَرَة من مَدىً مَطِيط... أُقْسِم بالسَّوَام العازب، والوقير الكارب، والمجد

الراكب، والمُشيح الحارب، لقد خبأتَ نُقَالة فَنَن، في قطيع قد مَرَن، أو أديم قد جَرَن... أُقسم بنَفْنَف اللُّوح، والماء المسفوح، والفضاء المندوح، لقد خبأت زَمَعَة طَلاً أعفر، في زِعْنِفَة أديم أحمر، تحت حِلْس نِضْوٍ أدبر... والناظر من حيث لا يُرَى، والسامع قبل أن يناجَى، والعالم بما لا يُدْرَى، لقد عنَّتْ لكم عُقَابٌ عجزاء، في شغانيب دَوْحَة جرداء، تحمل جَدْلا، فتماريتم: إما يَدًا وإما رِجْلاً"، وكالذى رواه الجاحظ لعُزَّى سَلَمَة من أنه قال: "والأرض والسماء، والعُقَاب والصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نَفَّرَ المجدُ بني العُشَراء، للمجد والسناء"، وكالذى جاء فى حديث زبراء الكاهنة مع بني رئام من قضاعة، إذ قالت: "واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمُزْن الوادق، إن شجر الوادي لَيَأْدُو خَتْلاً، ويَحْرُق أنيابًا عُصْلاً، وإن صخر الطَّوْد لَيُنْذر ثُكْلاً، لا تجدون عنه مَعْلاً"، وأخيرا كالذى نُسِبَ إلى سلمى الهمدانية وما أبدته من رأى في حريم المُرَادِىّ: "والخَفْو والوميض، والشفق كالإِحْرِيض، والقُلَّة والحضيض، إن حريمًا لَمَنِيع الحيز، سيدٌ مَرِيز، ذو معقل حَرِيز، غير أني أرى الحُمَّة ستظفر منه بعَثْرة، بطيئة الجَبْرة". ويجد القارئ هذه النصوص تحت عنوان: "خُطَب الكُهّان" و"خُطَب الكواهن" من كتاب "جمهرة خُطَب العرب" للمرحوم الأستاذ أحمد زكى صفوت.

ونظرة سريعة إلى هذه الأقسام تبنئنا أنها فى التنبؤ بالغيب أو فى التنفير بين المتنافسين على الافتخار بحسن الأحدوثة بين الناس، على حين أن أقسام القرآن تهدف إلى تأكيد حقيقة اليوم الآخر أو صدق الوحى القرآنى أو ضلال الشرك والمشركين وأشباه ذلك. وهذا لو أغضينا البصر عن سخف التنفير ومخالفته لأصول الاجتماع الصحيحة التى ينبغى أن تقوم على الإعلاء من شأن العمل النافع ووجوب التجرد فى القيام به بحيث يضع فاعلُه مصلحةَ المجتمع والبشرية نُصْبَ عينيه وينتظر الأجر والمثوبة من الله ولا تشغل نفسَه الرغبةُ فى الاشتهار بين الناس كى يتحدثوا عنه بالحق أو بالباطل، وكذلك لو جارينا الاعتقاد الجاهلى الأخرق وصدَّقنا أن الكهان يستطيعون أن يتنبأوا فعلا بالغيب، وهو ما سبق أن قلنا إنه أمر مستحيل، إلا أننا نجرى هنا مع المتّهِمين إلى أقصى حد حتى نبين لهم ولمن يقرأون ما يكتبون أن كلامهم لا يقوم على أى أساس. كما أن الأقسام الخاصة بـ"التراب والأصباب والأحداب والنَّعَم والسحاب والغمام الماطر والمُزْن الوادق والصقعاء والعُقَاب والذئب والغَمْر والقَرْض والفَرْض والبَرْض واللوح الخافق ونَفْنَف اللُّوح والماء المسفوح والفضاء المندوح والخَفْو والوميض والشفق الذى يشبه الإحريض والقُلّة والحضيض والحَلَك والفَلَك والدَّلَك والسَّوَام العازب والوقير الكارب

والنجد الراكب والمُشيح الحارب والناظر من حيث لا يُرَى والسامع قبل أن يناجَى والعالم بما لا يُدْرَى" هى أقسام لم ترد فى القرآن الكريم، وفى المقابل فإن القَسَم بـ "القرآن المجيد والقرآن ذى الذِّكْر والكتاب المبين والكتاب المسطور فى رَقٍّ منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور والصافّات صَفًّا والذاريات ذَرْوًا والمرسَلات عُرْفًا والنازعات غَرْقًا والليالى العشر والشَّفْع والوَتْر وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى والضُّحَى والتين والزيتون وطُور سينين وهذا البلد الأمين والعاديات ضَبْحًا" هو أيضا قَسَم لا تعرفه النصوص المنسوبة إلى أولئك الكهان، مثلما لا تعرف التركيبَ القرآنى التالى: "لا أُقْسِم بكذا"، ولا مجىء عبارة "هل فى ذلك قَسَمٌ لِذى حِجْر؟" أو "وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم" أو "بل الأمر كذا وكذا" بعد القَسَم، أو مجىء حرف هجائى أو أكثر قبله، كما فى قوله تعالى: "والفجر* وليالٍ عشر* والشَّفْع والوَتْر* والليل إذا يَسْرِ* هل فى ذلك قَسَمٌ لِذِى حِجْر؟"، "فلا أُقْسِم بمواقع النجوم* وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم* إنه لقرآن كريم* فى كتاب مكنون* لا يَمَسُّه إلا المطَهَّرون"، "ص والقرآن ذى الذكر* بل الذي كفروا فى عِزّة وشِقَاق"، "ق والقرآن المجيد* بل عجبوا أن جاءهم مُنْذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شىء عجيب"، "يس والقرآن الحكيم* إنك لمن المرسَلين* على

صراط مستقيم". ثم إن النصوص المتضمِّنة لأقسام الكهان تتميز بأنها قصيرة النفس، إذ سرعان ما ينتهى النص الذى وردت فيه هذه الأقسام عقب الفراغ من نبإ الغيب المزعوم أو التنفير بين المتخاصمين مما لا يستغرق إلا بضع جمل قصيرة ليست بذات عدد، على حين أن السورة القرآنية تمضى بعد ذلك متناولةً أمور العقيدة الجديدة وقيمها الأخلاقية وما إلى هذا، وقد تطول طولا كبيرا لا تناسُب بينه وبين نصوص الكهانة المدّعاة.

وهذا كله إذا لم نقل إن هذه الأقسام الكهنوتية إنما صيغت على غرار أقسام القرآن الكريم: إما ممن صنعوها فى العصر العباسى ونسبوها زورا للجاهليين، وإما من كهان صاغوها بعد نزول القرآن فوضعوه أمامهم واحتَذَوْه، أو إن الكهان السابقين على نزول القرآن إنما كانوا يقلّدون، فيما صحت نسبته لهم، أسلوبا من أساليب القَسَم كان مستعملا فيما نزل من وحى على الأنبياء العرب السابقين كهُود وصالح وشُعَيْب. والعجيب أن كاتب مادة "سَجْع" فى الطبعة الجديدة من "The Encyclopaedia of Islam" ("دائرة المعارف الإسلامية" الاستشراقية) لا يختلف مع الباحثين الآخرين فى وَسْم كلّ ما نُسِبَ للكهان من أقوال بأنها لا تبعث على الاطمئنان، ومع هذا يتهم الرسول بأنه يقلد فى قرآنه

سجع أولئك الكهان، وإن أضاف أنه قـد عمـل فى ذات الوقـت على أن يصبَّ فى هذا القالب الكهنوتى القـديم المبـادئ الجديـدة التى أتى بها! أى كما يقال فى المثل: "عَنْزَة ولو طارت"!

وإنى لأستعجب أن يقرأ بعـض النـاس القـرآن الكـريم ثم يقولوا بعد ذلك إنه من كـلام الكهـان، أو إنـه تقليـد لكـلام الكهان! إن هذا الادعاء لهـو دليـل علـى أن صـاحبه كـاذب بالثلث أو منكوس العقل مطموس البصـيرة. ولسـوف أورد هنـا نص ثلاث سور صغيرة هى "البلد" و"الليـل" و"الضـحى" وأتـرك القارئ (أيًا كان دينـه ومذهبـه) وجهًـا لوجـه أمامهـا ليسـأل ضميره بصدق وأمانة: أَمِثْل هذا الكلام هو مـن وحـى الشـياطين أو يجرى من جاء به على سُـنَة الشـياطين؟ يقـول جـل جلالـه:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَـدِ (١) وَأَنْـتَ حِـلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَـانَ فِـي كَبَـدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَـدٌ (٥) يَقُـولُ أَهْلَكْـتُ مَـالاً لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَـلْ لَـهُ عَيْنَـيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَـلا اقْـتَحَمَ الْعَقَبَـةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَـةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَـامٌ فِـي يَـوْمٍ ذِي مَسْـغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًـا ذَا مَقْرَبَـةٍ (١٥) أَوْ مِسْـكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَـانَ مِـنَ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَتَوَاصَـوْا بِالصَّـبْرِ وَتَوَاصَـوْا بِالْمَرْحَمَـةِ (١٧) أُولَئِـكَ أَصْـحَابُ الْمَيْمَنَـةِ (١٨)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)"، "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)"، "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)". والله إن كان هذا الكلام النبيل الكريم هو من كلام الكهان، ومن وحى الشيطان، فليس هناك شىء يستحق الثقة إذن فى دنيا الإنسان!

فى ضوء ما مرّ نستطيع أن نضع الكلام التالى لعبد الله إبراهيم، وأرجو من القارئ أن يرهف أذنيه ليلتقط ما بين السطور، وقبل ذلك ما فى السطور نفسها، من افتراءات ضالة مضلة عن تشابه القرآن وأسجاع الكهان: "استأثر ضرب آخر من النثر باهتمام طائفة من الكهّان والمتنبّئين والمتعبّدين فى العصر الجاهلى، ونُسِب إليهم لأنه كان الوسيلة المعبرة عن مقاصدهم وأفكارهم. ويبدو أن جملة الظروف الثقافية القائمة آنذاك قد دفعت هذا النوع من النثر إلى مقدمة أنواع النثر الجاهلي لأنه ارتبط بالنظم الدينية التي كانت قائمة آنذاك. ومن ناحية منطقية فإن الإسلام جبّ مضمون نثر الكهان وأساليبه السجعية، ولكن إذا نظر للأمر من ناحية واقعية فإن واقع الحال يكشف أن جوهر الرسالة الإسلامية والأسلوب الذى جاءت فيه لم يكن يتعارض مع نثر الكهان. ذلك أن الموضوعات التى كانت تتواتر فيه هى إجمالا أخلاقية وعظيّة تتخلّلها ضروب من التأويلات الغامضة، أما أساليبه فيغلب عليها الأسجاع التي تماثل إلى حد ما الصيغ السجعية التى نجدها فى الخطب والنصوص الدينية. ومن المحتمل أنّ أصل التعارض كان قائمًا فى الوظائف التى يقوم بها كلّ من النبي والمتنبّئ، أى الخلاف فى وظيفة الرسول ووظيفة الكاهن. ذلك أنه لو نظر إلى ماهية النصوص بعيدًا عن سلطة المقدس لوجدنا

أنّ التماثـل فى المضـامين والأسـاليب لا يفضـي إلى نـوع مـن التعارض الحقيقي، ويرجح أنّ ظروفًـا واقعيـة وتاريخيـة أوجـدت ذلك التعارض، وفرضت نوعًا مـن التنـاقض بينـهما" (عبـد الله إبراهيم/ سـيرة المرويّـات النثرية السـردية الجاهليـة/ شـبكة الذاكرة الثقافية). هذا ما قاله عبـد الله إبـراهيم، وتعليقنـا هـو: هل صحيح أن جـوهر الرسـالة الإسـلامية والأسـلوب الـذى جاءت فيه لم يكن يتعارض مـع نثـر الكهـان كمـا زعـم هـذا المدلس؟ هل كان الكهان يـدعون إلى الصـدق والعفـة وإعطـاء الفقراء والمساكين واليتامى وأبنـاء السـبيل حقـوقهم فى أمـوال القادرين؟ هل كانوا يحثون على النظـام والنظافـة وإماطـة الأذى عن الطريق وتنظيـف الأسـنان وتمشـيط الشـعر؟ هـل كـانوا يحضون على العلم ويَرَوْنَه أفضـل ألـوان العبـادة؟ هـل كـانوا يحمّسون الناس إلى تشـغيل عقـولهم والحـرص علـى اسـتقلال آرائهم فلا يكونوا إمّعات؟ هل كانوا حرصاء علـى نشـر الـوعى بالسنن الكونية فى السماوات والأرض ودنيا البشـر؟ هـل كـانوا يقولون إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرهـا إلا العمـل؟ هـل كـانوا يحاربون الوثنية والثنوية والتثليث وتأليه البشـر والجمـاد ويقفـون حياهم على دعوة التوحيـد؟ هـل كـانوا يقولـون إن لكـل داء دواء، وعلى البشر أن يبحثوا عن الدواء لكـل مـرض يصـيبهم؟ هل كانوا يصلون ويزكون ويصومون؟ هل كـانوا يعملـون بكـل

جهدهم على الوقوف بكـل قـواهم ضـد الاسـتغلال والظلـم والجبروت والتأله؟ هل كانو يقولـون بـاليوم الآخـر والحسـاب الإلهى والجنة والنار؟ هـل كـانوا يتفكـرون فى عظمـة الله ومـا ينبغى له من التمجيد والتحميد والطاعة والإخبـات؟ هـل كـانوا يؤمنون بالرسل والنبيين السابقين؟ وأخـيرا ولـيس آخـرا: هـل كـانوا يكرهـون مهنتـهم القائمـة علـى الكـذب والتـدليس والتضليل ويتوعدون من يقصـدهم بسـخط الله علـيهم؟ ثم هـل كان الرسول يدعى المقدرة علـى التنبـؤ بالغيـب؟ أم هـل كـان يأخذ أجرا على دعوته؟ أم هل كـان يفتخـر بأنـه علـى صـلة بالشياطين؟ أم هل كان يلـوذ ببيـوت الأوثـان؟ أم هـل كـان يؤرث نيران المفاخرة بين النـاس ثم يلتـف ليفصـل بينـهم؟ لقـد كان الكهنة يفعلون هذا كله وأشـنع منـه، أمـا الرسـول فقـد كانت سبيله هى سبيل الطهر والأمانة والسـمو والعقـل والعلـم والتحضر. ألا إن المدلّسين لفى ضلال مبين!

الخُطب

يتناول الجاحظ فى كتابه: "البيان والتبيين"، ضمن ما يتناول، الخطابة عند العرب فى العصر الجاهلى مبيِّنًا أنهم كانوا بارعين فى هذا الميدان براعة منقطعة النظير حتى إنهم لم يكونوا عادةً بحاجة إلى الاستعداد المسبق لمواجهة الجموع التى يتطلبها هذا الفن، بل كان الكلام فى مثل تلك المواقف ينثال عليهم انثيالا، إذ كانت قرائحهم خصبة ممتازة وتفوّقهم فى ميدان الأحاديث العامة معروفا لا يحتاج إلى برهان، وبخاصة أنهم كانوا يدربون أبناءهم عليها منذ وقت مبكر. بَيْدَ أن من الباحثين العرب المـُحْدَثين من يرى أنهم كانوا يُعِدّون خُطَبهم ويهيئون أنفسهم لإلقائها مسبَّقًا، فهذه طبيعة الإبداع الأدبى كما يقول (د. إحسان النص/ الخطابة العربية فى عصرها الذهبى/ دار المعارف/ ١٩٦٣م/ ١٦- ١٧)، وهو ما تميل النفس إليه، وبخاصة أنّ مِنْ خُطَبهم التى تبعث على الثقة بصحتها ما كان يحلّيه السجع، مما يصعب تصور انثياله على لسان الخطيب ارتجالا، وهو من الأسباب التى دفعتنى للشك فى بعض الخُطَب الجاهلية المثقلة بالتسجيع والمحسنات البديعية كما سيأتى لاحقا. كما كانت لهم تقاليد مشهورة فى إلقاء الخطب يحرصون عليها أشد الحرص، منها لُبْس العمائم واتخاذ المخصَرة، أى العصا. وفى كتاب الجاحظ المذكور آنفًا نماذج من الخُطَب التى تركها

لنا الجاهليون، ومعها أسماء عدد ممن اشتهروا بالتفوق فى ذلك الباب، وهذا كله يبرهن أقوى برهان على أن العرب فى ذلك العصر كانت لهم خطبهم وأحاديثهم، وأن هذه الخطب والأحاديث لم تَضِع رغم أنهم كانوا أُمّة أُمّيّة فى غالب أمرها، إذ كانت حافظتهم لاقطة شديدة الحساسية، كما أن اعتزازهم بكلامهم وتقاليدهم قد ضاعف من اهتمامهم بحفظ نصوص خطبهم المشهورة.

وبالمثل يؤكد جرجى زيدان أن العرب فى ذلك العصر كانوا خطباءَ مَصَاقِعَ بتأثير طبيعتهم النفسية وأوضاع حياتهم السياسية والاجتماعية، إذ كانوا ذوى نفوس حساسة أبيّة تعشق الاستقلال وتبغض العبودية أشد البغض، كما كثر فيهم الفرسان آنذاك. والخطابة، حسبما يقول، تناسب عصور الفروسية حيث تغلب الحماسة على النفوس وتكون للكلمة البليغة المتلهّبة مكانة عظيمة عالية، فضلا عن أنهم كثيرا ما كانوا يتنافرون ويتفاخرون بالأحساب والأنساب مواجهةً عن طريق المناظرات والخطب، إلى جانب كثرة وفودهم فى المناسبات المختلفة، وبخاصة عند الملوك، مما كان يستلزم قيام الخطباء للحديث فى تلك الظروف، وهم فى العادة شيوخ القبائل ورؤساء الناس. كما ذكر أيضا أنهم كانوا يدرِّبون فتيانهم على إتقان هذا الفن منذ حداثتهم، وأنهم كانوا يحفظون

خطبهم ويتوارثونها جيلا بعد جيل، ومن هنا كانت عنايتهم الشديدة بها وبصياغتها (جرجى زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقى ضيف/ ١/ ١٦٧- ١٦٩).

و"كان مفروضا فى الخطيب الجاهلى أن يعرف القبائل والأنساب والوقائع والتاريخ حتى تجتمع له من ذلك مادة الخطبة حين ينافر أو يفاخر أو يهادن أو يحرض قومه على قتال أو يدافع عن أحساب قومه" (محمد عبد الغنى حسن/ الخطب والمواعظ/ دار المعارف/ ١٩٥٥م/٢١).

هذا ما يقوله ثلاثة من كبار مؤرخى الأدب العربى قديما وحديثا، بيد أن للدكتور طه حسين رأيا مختلفا تماما عما سمعناه منهم، إذ يؤكد أن العرب لم يتركوا لنا أية آثار أدبية نثرية البتة لا خُطَبًا ولا غير خُطَب: فالنثر من جهة يحتاج إلى بيئة ثقافية متقدمة لم تكن متوفرة فى جزيرة العرب قبل الإسلام، ومن جهة أخرى لم يصل إلينا عنهم شىء من ذلك مكتوب، فكيف نطمئن إذن إلى ما يقال إن العرب قد خلّفوه لنا من خطب وحِكَم ووصايا وأسجاع كهنوتية؟ لكننا نراه، بعد أن أكد هذا فى أسلوب حاسم قاطع، يرجع على عقبيه القهقرى مستثنيا من شكه هذا بعضا من النثر، وهو الأمثال، التى يعود فيقول إنها أقرب إلى الأدب الشعبى منها إلى النثر الفنى الذى يقصده، أما الخطابة فإنها تستلزم حياة خصبة جياشة، وحياة العرب قبل

الإسلام لم تكن فيها سياسة قوية ولا نشاط ديني عملي، بل كانت قائمة على التجارة، وهي لا تحتاج إلى خطابة ولا تعين عليها، أو على الحروب والغزوات، وهذه إنما تحتاج إلى الحوار والجدل لا إلى الخطب (طه حسين/ فى الأدب الجاهلى/ دار المعارف/ ١٩٦٤م/ ٣٢٩- ٣٣٢). ولعله لهذا السبب نبحث عبثًا، فى كتاب "التوجيه الأدبى" الذى ألفه طه حسين مع أحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد، عن أى حديث يتعرض للخطابة فى العصر الجاهلى، إذ كلما ورد ذكر الخطابة عند العرب وجدنا كاتب الفصل، وأغلب الظن أنه طه حسين نفسه، يقفز مباشرة إلى الحديث عنها بدءًا من العصر الإسلامى فهابطًا إلى العصر الحديث متجاهلا تمام التجاهل أى كلام عنها فيما قبل الإسلام! (التوجيه الأدبى/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ ١٣٥٩هـ- ١٩٤٠م/ ٤١ وما بعدها، وكذلك ٧٣ وما بعدها)، رغم تأكيد الكاتب أيضا أن "تاريخ الخطابة يكاد يكون مقارنا للتاريخ الإنسانى: نشأ بنشأته، وارتقى برقيه"، وأنه "لهذا رُوِيَت لنا الخُطَب منذ عُرِف التاريخ"، وأنه متى توفر عاملا الحرية وشعور الأمة بسوء حالتها وتطلعها إلى حالة أفضل انتعش هذا الفن انتعاشا كبيرا (المرجع السابق/ ٣٨- ٤٠)، وهو ما تحقق للعرب فى ذلك العصر حسبما هو معلوم، إذ لم يكن لهم دولة تمارس سلطانها

عليهم ويتزلون لها عن حَظٍّ مـــن حريتـــهم واســـتقلالهم، كمـــا أن السخط على الأوضاع كان منتشرا بين كثير منـــهم آنـــذاك، هـــذا السخط الذى كان إحدى عُـــدَد الإســـلام فى مواجهـــة الجاهليـــة وأوضاعها الباطلة التى جاء ليغيرها إلى ما هو أفضـــل. ثم إنـــه مـــن غير المنطقى أن يخترع العـــرب فى عصـــور التـــدوين كـــل تلـــك الخطب وكل أولئك الخطباء من العدم ودون أن يقـــوم مـــن بينـــهم من يفضح هذا التزييف، وكأن الأمة قد صـــارت كلـــها أمـــة مـــن الكذابين أو من الكذابين والسذّج المغفلـــين الـــذين يجـــوز علـــيهم مثل هذا الخـــداع دون أن يـــثير فـــيهم إنكـــارا أو حـــتى دهشـــة واستغرابا!

على كل حال فطه حســـين إنمـــا يســـير فى إنكـــاره للنثـــر الجاهلى على ذات الدرب المتخبِّط الأهوج الـــذى ســـار عليـــه فى نفيه للشعر الجاهلى كله تقريبـــا مشـــايعا المحتـــرق مرجليـــوث فى خُرْقه وضلاله وعَمَـــى منطقـــه وبصـــيرته! وفـــوق ذلـــك فمـــن الصعب على العرب، كما يلاحظ بحقٍّ عبـــد الله عبـــد الجبـــار ود. محمد عبد المنعم خفاجى، أن يرتقوا فجأة فى ميـــدان الخطابـــة هـــذا الارتقاء الذى يقرّ هو به بعـــد الإســـلام لـــو كـــانوا لا يعرفـــون الخطابة فى الجاهلية أو كانت خطابتهم علـــى الأقـــل مـــن التفاهـــة وعدم الغَنَاء بالموضع الذى يـــزعم طـــه حســـين (انظـــر كتابهمـــا: "قصة الأدب فى الحجاز فى العصـــر الجـــاهلى"/ مكتبـــة الكليـــات

الأزهرية/ ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م/ ٢٠٢- ٢٠٣). كذلك قد قَفَشه د. محمد عبد العزيز الموافى قفشةً بارعةً بحقٍّ حين لفت الانتباه إلى أن طه حسين عندما أنكر وجود الخطابة الجاهلية إنما كان اعتماده فى ذلك الإنكار على خُلُوّ العصر الجاهلى من الحضارة والحياة المدنية الراقية، مع أنه سبق أن أقام إنكاره لصحة الشعر الجاهلى على القول بأن ذلك الشعر لا يمثل الحياة العقلية الراقية لدى الجاهليين (د. محمد عبد العزيز الموافى/ قراءة فى الأدب الجاهلى/ ط٧/ دار الثقافة العربية/ ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م/ ٢٨٦- ٢٨٧). ونضيف نحن أنه، رغم نفيه هنا أن يكون للجاهليين أى نشاط دينى عملى، كان قد أقام إنكاره للشعر الجاهلى على عدة أسس من بينها أن هذا الشعر لا يعكس حياتهم الدينية. فأى حياة دينية يعكسها إذا لم تكن لهم حياة دينية عملية أصلا كما يقول هو بعظمة لسانه؟ أى أنه يقول بالشىء ونقيضه لتقرير ما يريد تقريره دون مبالاة باعتبارات المنطق أو حقائق التاريخ، مع الاستعانة بالسفسطة السخيفة التى لا تُحِقّ حَقًّا ولا تُبْطِل باطلا! ولقد فات د. طه أن هناك نصوصًا شعرية جاهلية تذكر الخطابة والخطباء فى ذلك العصر، وهو دليل آخر على وجود الخطابة والخطباء أوانئذ. ومن هذه الأشعار قول ربيعة بن مقروم الضبىّ:

ومتى تَقُمْ عند اجتماع عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وقول أبي زبيد الطائي:

وخطيـــب إذا تمعـــرت الأو　　جه يـــوما فى مأقـــط مشهـــود

وقول النجاشى الحارثى:

وَخَطِيـــبٌ إذَا تَـــمَعَّرَت الأوْ　　جُـــهُ يَشْجَى به الألَدُّ الخَصِيمُ

وقول بلعاء بن قيس الكنانى:

ألا أبـــلغ سُرَاقة يا ابـــن مالٍ　　فبئس مقـــالة الرَّجل الخطيب

وقول ملاطم الفزارى:

ذكرت بـــرؤيتى حَمَل بن بـــدرٍ　　وصـــاحِبَه الألدَّ على الخطيـــب

وقول أوس بن حجر:

أمْ من يكون خطيب القوم إذ حَفَـــلوا　　لـــدى الملوك ذوى أيـــدٍ وأفضال؟

وقول عامر بن فَضَالة:

وهم يَدْعَمون القول فى كل محفلٍ　　بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما

وقول عامر المحاربى:

يَـــقُومُ فَلا يَعْـــيا الكَلامَ خَطِيبُنا　　إذا الكَرْبُ أنْسَى الجِبْسَ أنْ يَتَكَلَّما

وقول عمرو بن الإطنابة:

والقائلـــين فلا يعابُ خطيبُهـــم　　يـــومَ المقالة بالكلامِ الفـــاصلِ

وقول عمرو بن كلثوم:

وَأبي الَّذي حَمَلَ المتِينَ وَناطِقُ الـــ　　مَعروفِ إذْ عَيَّ الخَطِيبُ المِفْصَلا

وقول أميمة بنت أمية:

وَكَم مـــن ناطـــقٍ فيهـــم　　خَطيـــبٍ مِصْقَـــعٍ مُعْـــرِب

وقول زبان بن سيار الفزارى:

كُلُّ خَطيبٍ منهُمُ مَؤوفُ

ومعروف أن كل وفد من الوفود القبلية الـتى قَـدِمَتْ علـى النبى فى المدينة فى العام التاسع للهجرة كـان يضـم بـين أفـراده خطباء يتكلمون باسم الوفـد ويتبـادلون الخطابـة مـع الرسـول عليه السلام ومَنْ حوله من الصحابة، وهـذا أيضـا مـن الأدلـة التى لا يمكن نقضها مهما سفسـط الـدكتور طـه. وقـد تعـرض لذلك د. جواد على فى المجلـد الرابـع مـن كتابـه: "المفصَّـل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" (فى الفصـل الخـاص بـ"النثـر"، تحت عنوان "الخطابة")، إذ قال: "والخطابة عنـد الجـاهليين حقيقـة لا يستطيع أحد أن يجـادل في وجودهـا، ودليـل ذلـك خطـب الوفود التي وفدت على الرسـول، وهـي لا تختلـف في أسـلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن أسـلوب الجـاهليين في الصـياغة وفي طـرق الإلقـاء. ثم إن خطـب الرسـول في الوفـود وفي النـاس وأجوبته للخطباء هي دليـل أيضـا علـى وجـود الخطابـة بهـذا الأسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين"، وإن كـان مـن رأيـه أن هناك خطبا جاهلية منحولـة وأن نصـوص الخطـب الصـحيحة لم تصل إلينا كما قيلت، بل دخلها التغـيير بفعـل الـزمن وضـعف الذاكرة البشرية، وبخاصة أن الخُطَب ليسـت كالشـعر، أى لـيس فيها وزن وقافية يساعدان على حفظها.

وعلى عكس ما يَهْرِف به طـه حسـين هنـا علـى النحـو الذى كان معروفًا عنه عند عودته من أوربا متصورا أنـه قـد حـاز

العلم كله وأن القول ما قال المستشرقون، الذين كان يردد كلام من يشككون منهم فى تاريخ العرب وأمجادهم بعُجَره وبُجَره دون أن يتريث لحظة واحدة للتثبت مما يقوله هذا الصنف الموتور منهم، على عكس ذلك يؤكد أحمد حسن الزيات أن العرب، بنفوسهم الحساسة ونزوعهم إلى الحرية والاستقلال وميلهم إلى الفخار وما كانوا يتَّسمون به من غيرة ومسارعة للنجدة وبلاغة فى القول وذَلاَقة فى اللسان وما عرفوه من الوفود والسفارات، كانوا مهيئين للتفوق فى ميدان الخطابة، مبينا أن خطبهم كانت تتسم بالقصَر والسجع حتى تَعْلَق بالذهن عُلُوقًا سهلاً (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربى/ ١٩). وبالمثل يقرر د. على الجندى بحقٍّ أنه قد "ثبت أن (العرب) كانوا يخطبون فى مناسبات شتى: فبالخطابة كانوا يحرِّضون على القتال استثارةً للهمم وشَحْذًا للعزائم، وبها كانوا يحثون على شن الغارات حُبًّا للغنيمة أو بَثًّا للحميّة رغبةً فى الأخذ بالثأر، وبالخطابة كانوا يدعون للسلم حقنًا للدماء ومحافظةً على أواصر القربى أو المودة والصلة، ويحبّبون فى الخير والتصافى والتآخى، ويبغّضون فى الشر والتباغض والتنابذ، وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصُّلح بين المتنافرين أو المتنازعين، ويؤدون مهامّ السفارات جَلْبًا لمنفعة أو دَرْءًا لبلاء أو تهنئةً بنعمة أو تعزيةً أو مواساةً فى مصيبة، فوق ما كانت

الخطابة تؤديه فى المصاهرات، فتُلْقَى الخطب ربطًا لأواصر الصلة بين العشائر وتحبيب المتصاهرين بعضهم فى بعض" (د. على الجندى/ فى تاريخ الأدب الجاهلى/ ٢٦٤- ٢٦٥). وعلى هذا الرأى أيضا نجد د. أحمد الحوفى، الذى يسارع مع هذا إلى الاستدراك بأن العرب، بخلاف ما كان الحال عليه لدى الرومان واليونان، لم يكونوا يُعِدّون خطبهم قبل إلقائها، بل كانوا يعتمدون على الارتجال والبديهة، ومن هنا جاءت خُطَبهم لُمَعًا بارقةً دون تفصيل أو تخطيط (أحمد محمد الحوفى/ فن الخطابة/ مكتبة نهضة مصر/ ١٥٠- ١٥١). أما السباعى بيومى فيرى أن خطباء العرب كانوا يحفلون بخطبهم أيما حُفُول، "فيتخيرون لها من المعانى أشرفها، ومن الألفاظ أفصحها، لتكون أشدّ وقعًا على النفوس وأبعد تأثيرا فى القلوب وأيقظ للهمم وأحثّ على العمل" (تاريخ الأدب العربى- ج ١ فى العصر الجاهلى/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ٩٧). ومن قَبْلُ سَرَدَ ابن وهب الموضوعات التى كانت تدور عليها الخطب آنذاك قائلا إن "الخطب تستعمل فى إصلاح ذات البين وإطفاء نائرة الحرب (أى نارها وشرها) وحِمَالة الدماء والتسديد للملك والتأكيد للعهد وفى عقد الإملاك (أى الزواج) وفى الدعاء إلى الله عز وجل وفى الإشادة بالمناقب (الأعمال الجليلة) ولكل ما أُرِيدَ

ذكره ونشره وشهرته بين الناس" (ابن وهب/ البرهان فى وجوه البيان/ تحقيق حفنى شرف/ مطبعة الرسالة/ ١٩٦٩م/ ١٥٠).

أما د. شوقى ضيف فيسلك سبيلا مخالفة للفريقين جميعا، إذ بينما نراه يؤكد وجود الخطابة والخطباء فى الجاهلية وتوفُّر العوامل السياسية والدينية والاجتماعية التى تكفل لها الازدهار، إذ به يشك فى كل ما وصلنا تقريبا عن ذلك العصر من خُطَب. والسبب فى هذا الشك لديه هو بعد الشقة الزمنية بين العصر الجاهلى وعصر التدوين أيام العباسيين. ومع ذلك نجده يقول إن من زيفوا نصوص الخطب الجاهلية كانوا بلا شك يعتمدون على نصوص جاهلية صحيحة وضعوها أمامهم واحتذَوْها. وعلى هذا فإذا وجدنا أن كثيرا من الخطب والمفاخرات والمنافرات التى تُنْسَب إليهم مجوَّدة مسجوعة مثلا فمعنى هذا أنهم فى الجاهلية كانوا يجوّدون ويَسْجَعون فى خُطَبهم ومفاخراتهم ومنافراتهم فعلا (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ٤١٠- ٤١٩، والفن ومذاهبه فى النثر العربى/ ط٧/ دار المعارف/ ١٩٧٤م/ ٣٣- ٣٨).

إلا أننا، مع احترامنا للأستاذ الدكتور وتقديرنا للفصلين اللذين كَسَرهما لهذا الموضوع فى كتابيه المشار إليهما وما فيهما من علم وتحليل، لا نستطيع أن نسلّم بما يقول على علاّته، إذ لا معنى لكلامه هذا إلا أنه قد وصلت فعلا إلى مخترعى الخطب

الجاهلية نصوصٌ صحيحةٌ منها قاسُوا عليها ما صنعوه ونسبوه إلى الجاهليين، فلماذا رَمَوْها خلف ظهورهم واكتفَوْا بما اخترعوه رغم تَيْح الأصل لهم؟ وإذا كانوا لأمر ما غَيْر مفهوم قد أقدموا على هذا الصنيع الأخرق فكيف لم يُتَحْ لهذه النصوص الصحيحة من يعرف لها قدرها ويحفظها من الضياع؟ وقبل ذلك مَنْ قال إن بُعْد الزمن ما بين الجاهلية وعهد التدوين كفيل بإنساء العربي تراث آبائه وأجداده؟ لقد عُرِف العربي بذاكرته القوية وحرصه على تاريخه وأدبه واعتزازه بالكلمة الفنية التى ينتجها نثرا كانت أو شعرا، وقيام حياته الثقافية على الحفظ والرواية والتمثل المستمر بنتاج قرائح الشعراء والمتكلمين بحيث كان من الصعب أشد الصعوبة انتساخ تراثه القولى. فإذا أضفنا أن كثيرا من خطبهم فى الجاهلية كان مسجَّعًا مجنَّسًا مُرَاعًى فيه الموازنة وقِصَر الجمل، فضلا عن قِصَر الخُطَب نفسها تبين لنا أن حفظ مثل هذا النتاج الأدبى لم يكن بالمهمة الشديدة الصعوبة، بَلْهَ المستحيلة، كما يتخيل البعض منا قياسا على ما يَخْبُرونه من الذاكرة العربية الحالية، وهى ذاكرة لا تتمتع بما كانت تتمتع به سليفتها الجاهلية من حِدّة ودقّة، مثلما لا يتمتع أصحابها بما كان يتمتع به نظراؤهم أوانذاك من اهتمام فائق بالكلمة المشعورة والمنثورة رغم تصورنا العكس اعتمادا على ظواهر الحال المضلّلة. ولا ننس

أيضا أن العقل الجاهلى لم يكن ينوء بما تنوء به الآن مشاغل ومتاعب يصرفنا صرفا عن الحفظ والاهتمام برواية الأشعار والخطب على النحو الذى كان عليه الوضع فى العصر الجاهلى. وفوق هذا فإن الأُمِّيَّة التى كانت تَسِم مجتمَعهم بوجه عام قد دفعتهم دفعا إلى الاستعمال المكثف والمستمر للذاكرة بما يجعلها ناشطة نشاطا لا نعرفه الآن. وعلى كل حال فقد قال الأستاذ الدكتور أيضا، كما رأينا، إن الذين اخترعوا الخُطَب ونسبوها للجاهليين قد قاسُوها على ما وصلهم من خطب جاهلية حقيقية، أى أن بُعْد الزمن لم يكن له ذلك التأثير الذى عزاه إليه وعلَّل به شكه فى صحة خطب الجاهلية التى بلغتنا. الواقع أن آخِر كلامه يَنْقُض أوّلَه بكل أسف! بَيْدَ أن قولنا بقدرة الذاكرة العربية على تأدية المحفوظ من نصوص الخطابة الجاهلية شىء، والزعم بأنها قد أدته على وجهه لم تَخْرِم منه شيئا، فلم تضف إليه ما ليس منه ولم تنقص منه ما كان فيه ولم تبدل بعض ألفاظه وعباراته أو معانيه ومضامينه، هو شىء آخر مختلف، فالذاكرة البشرية، ككل شىء فى عالم البشر، عرضة للسهو والكلال والالتباس. ودعنا من النصوص التى زُيِّفَتْ تزييفًا واختُرِعَتْ اختراعًا مما سنتناوله بشىء من التفصيل فيما يلى حينما نقف عند طائفة من النصوص الخطابية التى ليست قَمِينَةً فى نظرنا بالقبول والاطمئنان.

ومن هذه الخُطَب المنسوبة للجاهلية التى يصعب علينا القول بجاهليتها تلك الخطب التى يُفْتَرَض أن أصحابها يتنبأون فيها بمجيء "محمد" عليه الصلاة والسلام، إذ السؤال هو: من أين لأصحابها هذا العلم بالغيب؟ إن الغيب هو من شأن الله سبحانه وتعالى وحده لا يعلمه أحد سواه. يقول بهذا القرآنُ والحديثُ وينطق به العقلُ والمنطقُ. ولو أن الذين قالوا هذا كانوا يهودا أو نصارى لقلنا: ربما قرأوه فى كتبهم. لكنهم لم يكونوا هُودًا ولا نصارى، فأنَّى لهم ذلك؟ وحتى لو كانوا من أهل الكتاب فإن الذى فى القرآن أن عيسى قد بشَّر برسول يأتى من بعده اسمه "أحمد" (الصف/ ٦)، على حين أن اسم النبى فى هذه الخُطَب هو "محمد"! ليس ذلك فحسب، بل هناك أسئلة أخرى لا نستطيع الإجابة عليها لو قبلنا صحة هذه الخُطَب، وهى: لو أن ما جاء فى تلك الأحاديث صحيح تاريخيا، فكيف لم يحاجج النبى به قومه فيقول لهم مثلا: لقد سبق أن سمعتم بأن هناك نبيا من قريش سوف يظهر، اسمه محمد، فكيف تكفرون بى بعد أن قال كهّانكم أنفسهم ذلك قبل ولادتى؟ لكننا ننظر فى كلامه صلى الله عليه وسلم وفى القرآن الكريم فلا نجد أثرا لمثل هذه الحجة التى كان من شأنها أن تعضد موقفه عليه السلام أيما تعضيد! كذلك فبعض هذه الخُطَب قد نُسِبَ لكعب بن لُؤَىّ جد النبى البعيد، ولو كان

هذا صحيحا فكيف لم يذكّر عليه السلام أهل بيتــه الــذين كفــروا به كعمه أبي لهب مثلا أو عمه أبي طالب بمــا قالــه جــدهم، ونحــن نعرف أن الجاهليين كانوا يتمسكون أشد التمسك بمــا كــان عليــه الآباء والأجداد كما تبدَّى فى ردّ الأخير فيمــا يــروون عنــه عنــد موته، إذ اعتذر عن الدخول فى دعوة محمــد علــى أســاس أنــه لا يحب المخالفة عن دين آبائه؟ وعلى هذا فإننا نقــف مرتــابين أشــد الريبة إزاء الخطبة التالية الــتى ينســبونها لجــد الــنبى ذاك، والــتى يقول فيها: "اسمعوا وعُوا، وتعلَّمــوا تَعْلَمــوا، و تفهَّمــوا تَفْهَمــوا. ليــلٌ ســاجٍ، ونهــارٌ صــاحٍ، والأرض مهــاد، والجبــال أوتــاد، والأولون كالآخرين، كــل ذلــك إلى بــلاء. فَصِــلُوا أرحــامكم وأصلحوا أحوالكم، فهل رأيتم من هلــك رجــع، أو ميِّتــا نُشــر؟ الدار أمامكم، والظــن خــلاف مــا تقولــون. زَيِّنــوا حَــرَمكم وعظِّموه، وتمسكوا بــه ولا تفــارقوه، فســيأتى لــه نبــأ عظــيم، وسيخرج منه نبي كريم.

نهــارٌ وليــلٌ واختلاف حــوادثٍ ... سواءٌ علينا حُلوها ومَريرُهــا

يــؤوبان بالأحــداث حتى تأوَّبــا ... وبالنِّعم الضــافي علينا سُتُورُها

يــؤوبان بالأحــداث حتى تــأوَّبا ... لها عُقَدٌ ما يستحيل مَريــرُها

على غفــــلة يــأتي النبي محمــدٌ ... فيُخبر أخبارًا صَدُوقًا خبيرُهــا

***

يا ليتني شــاهد فَحْــواءَ دعوتــه ... حين العشيرةُ تبغي الحقَّ خذلانا"

وهذه الخطبة، فوق ذلك، تحتوى على أشياء أخرى تدفعنا إلى مزيد من التشكك فيها، منها أن العبارة التى يتمنى فيها كعب أن يكون حَيًّا عند ظهور محمد تذكّرنا بما قاله فى نفس المعنى ورقة بن نوفل، الذى كان هناك سبب وجيه لكلامه هذا، ألا وهو أنه كان يخاطب النبى عليه السلام، فمن الطبيعى أن يتمنى مثل هذه الأمنية، إذ ها هو ذا النبى الموعود واقفا أمامه يجاذبه أطراف الحديث حول ما رآه فى الغار عند ظهور جبريل له، فيجد من واجبه الإنسانى على الأقل أن يبصِّره بما ينتظره من متاعب عند بدء الدعوة الفعلية ويُظْهِر له تعضيده ويرفع من روحه المعنوية. أما كعب فكانت بينه وبين النبى الذى يتحدث عنه من الزمن ما لا معنى معه لما قال. وفضلا عن ذلك فميسَم القرآن الكريم واضح وضوحا كبيرا فى خطبته أسلوبًا ومعنًى كما فى قوله: "والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين... فسيأتى له نبأٌ عظيم، وسيخرج منه نبىٌّ كريم"، وهو ما يذكّرنا بقوله تعالى: "ألم نجعل الأرض مهادا* والجبال أوتادا*...؟" (النبأ/ ٧)، "قل: إن الأوّلين والآخرين* لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم" (الواقعة/ ٤٩- ٥٠)، "قل: هو نبأٌ عظيم" (ص/ ٦٧)، ""ولقد فتَنّا قبلهم قومَ فرعون وجاءهم رسولٌ كريم" (الدخان/ ١٧). ولو كان كعب قال ذلك فعلاً لكان حُجَّةً للمشركين يشهرونها بكل بساطة وشماتة

فى وجهه صلى الله عليه وسلم قائلين له: ما بالك تأخذ كلام جدّك وتدّعِي أنه من وحى السماء؟ ثم ما معنى نصحه إياهم أن يتمسكوا بالبيت الحرام ولا يفارقوه؟ هل سمع أحد أن قريشا فكرت يوما فى شيء من هذا القبيل، وهى التى لم يكن لها شرف فى العرب إلا شرف القيام على أمر البيت الحرام؟ وبالمناسبة لماذا لم يعرِّج كعبٌ على الأوثان التى كانت فى بيت الله فيزجر قومه عن عبادها وتقديسها ما دام يتحدث بهذا السرور والإيمان عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟ والطريف أن أحدا من سامعيه لم يخطر له أن يستفسر منه عمن يكون محمد هذا، أو يستغرب ظهور نبى من العرب أصلا. بل إنه لمن الواضح أن كعبا، حسب الخطبة التى طالعناها لتونا، لم يكن يدور فى باله أن محمدا هذا لن يكون أحدا آخر غير حفيد من أحفاده سيولد بعد عدة أجيال!

وعلى نفس الشاكلة تجرى الأحاديث التالية المنسوبة إلى خُنَافر بن التوأم الحِمْيَري وشافع بن كُلَيْب الصدفي وسَطِيح الذئبي وشِقّ أنمار وعُفَيْراء الكاهنة على التوالى:

١- حديث خنافر بن التوأم الحِمْيَريّ مع رَئِيّه شَصَار:

"كان خُنَافر بن التوأم الحميري كاهنا، وكان قد أُوتِيَ بسطة في الجسم وسَعة في المال، وكان عاتيا. فلما وفدتْ وفود اليمن على النبي وظَهَر الإسلام أغار على إبلٍ لمُرَاد فاكتسحها،

وخرج بأهله وماله ولحق بالشِّحْر، فخالف جَوْدان بن يحيى الفرْضمي، وكان سيدا منيعا، ونزل بواد من أودية الشِّحْر مُخْصبًا كثير الشجر من الأيك والعَرين. قال خنافر: وكان رَئِيِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عني، فلما شاع الإسلام فقدتُه مدة طويلة، وساءني ذلك. فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي نائما إذ هَوَى (انحدر فى الجَوّ) هُوِيَّ العُقَاب، فقال: خنافر؟ فقلت: شصار؟ فقال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْنَمْ. لكل مدة نهاية، وكلُّ ذي أمد إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولة إلى أجل، ثم يتاح لها حوَل. انتُسخت النِّحَل، ورجعت إلى حقائقها المِلَل. إنك سَجيرٌ (أى صديق) موصول، والنصح لك مبذول، وإني آنَسْتُ بأرض الشأم نَفَرًا من آل العُذَّام (يقصد قبيلة من الجن)، حكّاما على الحكّام، يَذْبُرون (يقرأون) ذا رونق من الكلام، ليس بالشِّعر المؤلَّف، ولا السجع المتكلَّف، فأصغيتُ فزُجِرْتُ، فعاودتُ فظُلِفْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بم تُهَيْنِمون؟ وإلام تَعْتَزُون؟ قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المَدَر، ابْتُعث فظهر، فجاء بقَوْلٍ قد بَهَر، وأَوْضَحَ نَهْجًا قد دَثَر، فيه مواعظ لمن اعتبر، ومَعَاذٌ لمن ازدجر، أُلّف بالآى

الكُبَر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنتَ أُعْطيتَ الشَّبَر (أى الخير)، وإن خالفت أُصْليتَ سَقَر. فآمنتُ يا خُنافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانبْ كل كافر، وشايعْ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذات الإحَرِّين، والنَّفَر اليمانين، أهل الماء والطين. قلت: أَوْضِحْ. قال: الْحَقْ بيثربَ ذات النخل، والحَرَّة ذات النعل، فهناك أهل الطَّوْل والفضل، والمواساة والبذل. ثم امَّلَسَ عنى، فبِتُّ مذعورا أراعي الصباح. فلما برق لي النور امتطيتُ راحلتي وآذنتُ أَعْبُدي واحتملتُ بأهلي حتى وردتُ الجوف، فرددتُ الإبل على أربابها بحَوْلها وسِقَابها (أى بجمَالها ونُوقها. جَمْع: "حائل" و"سَقْب") وأقبلتُ أريد صنعاء، فأصبت بها معاذ بن جبل أميرا لرسول الله فبايعته على الإسلام، وعلَّمني سورا من القرآن، فمنّ الله علي بالهدى بعد الضلالة والعلم بعد الجهالة".

٢- شافع بن كُلَيْب الصَّدَفِيّ يتكهن بظهور النبي: "قَدِمَ على تُبَّع الآخر ملك اليمن قبل خروجه لقتال المدينة شافعُ بن كُلَيْب الصَّدَفِيّ، وكان كاهنا، فقال له تُبَّع: هل تجد لقوم مُلْكًا يوازي مُلْكي؟ قال: لا، إلا مُلْك غسان. قال: فهل تجد مُلْكًا يزيد عليه؟ قال: أجده لبارٍّ مبرور، ورائد بالقُهُور، ووُصِفَ في الزَّبُور، فُضِّلَتْ أمته في السفور، يفرِّج الظُّلَم بالنور، أحمد

النبي، طوبى لأمته حين يجي، أحد بني لُـؤَيّ، ثم أحـد بـني قُصَـيّ. فنظر تُبَّع في الزبور، فإذا هو يجد صفة النبي".

٣- سَطِيحٌ النبي يَعَبّر رؤيا ربيعة بن نصر اللَّخْمِيّ:

"رأى ربيعةُ بن نصر اللَّخْمِيّ ملكُ اليمن، وقد مَلَكَ بعد تُبَّعٍ الآخَر، رؤيا هالته فلم يَدَعْ كاهنا ولا ساحرا ولا عائفا ولا منجِّما من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال لهم: إني قد رأيت رؤيا هالتني وفَظِعْتُ بها، فأخبروني بها وبتأويلها. قالوا له: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها. قال: إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها. فقال له رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطِيحٍ وشِقٍّ، فإنه ليس أحدٌ أعلمَ منهما فيها، يخبرانه بما سأل عنه. فبعث إليهما فقَدِم عليه سَطِيحٌ قبل شِقّ، فقال له: إني قد رأيت رؤيا هالتني وفَظِعْتُ بها فأخبرْني بها، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها. قال: أفعل. رأيتَ حُمَمَة، خرجتْ من ظُلْمة، فوقعت بأرض تَهَمَة، فأكلتْ منها كل ذات جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأتَ منها شيئا يا سطيح، فما عندك في تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين الحَرَّتَيْن من حَنَش، لَيَهْبِطَنَّ أرضَكم الحَبَش، فلَيملكُنَّ ما بين أَبْيَنَ إلى جُرَش. فقال له الملك: وأبيك يا سطيح إن هذا لنا لغائظٌ مُوجِع، فمتى هو كائن؟ أفي زماني هذا أم بعده؟ قال: لا بل بعده بحين، أكثر من

ستين أو سبعين يمضين من السنين. قال: أفَيَدُوم ذلك من مُلْكهم أم ينقطع؟ قال: لا بل ينقطع لبضعٍ وسبعين من السنين ثم يُقْتَلون بها أجمعين، ويخرجون منها هاربين. قال: ومن يلي ذلك مِنْ قَتْلهم وإخراجهم؟ قال: يليه إرَم ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحدا منهم باليمن. قال: أفَيَدُوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبيٌّ زكيّ، يأتيه الوحي من قِبَل العَليّ. قال: وممن هذا النبي؟ قال: رجل من ولد غالب بن فِهْر بن مالك بن النضر، يكون المُلْك في قومه إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم. يومٌ يُجْمَع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون. قال: أحقٌّ ما تخبرنا يا سطيح؟ قال: نعم، والشَّفَق والغَسَق والفَلَق إذا انشقّ، إن ما أنبأتك به لحَقّ".

٤- شِقّ أنمار يَعْبُر رؤيا ربيعة بن نصر أيضا: "ثم قدم عليه شِقٌّ فقال له كقوله لسطيح، وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان. قال: نعم رأيت حُمَمَة، خرجت من ظلمة، فوقعت بين روضة وأكمة، فأكلتْ منها كل ذات نَسَمة. فلما سمع الملك ذلك قال: ما أخطأتَ يا شِقُّ منها شيئا، فما عندك في تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحَرّتين من إنسان، لَيتزلَنّ أرضَكم السودان، فلَيغلبُنّ على كل طَفْلَة البَنَان، ولَيملكُنَ ما

بين أَبْيَن إلى نجران. فقال له الملك: وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده؟ قال: لا، بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان، ويذيقهم أشد الهوان. قال: ومن هذا العظيم الشان؟ قال غلام ليس بِدَنِيٍّ ولا مُدَنّ، يخرج عليهم من بيت ذي يَزَن. قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسولٍ مرسَل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون المُلْك في قومه إلى يوم الفَصْل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يومٌ تُجْزَى فيه الولاة، يُدْعَى فيه من السماء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات، ويُجْمَع فيه بين الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات. قال: أحَقٌّ ما تقول؟ قال: إي ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبأتك به لَحَقٌّ ما فيه أَمْض. فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالا، فجهَز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يُصْلحهم، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له: سابور، فأسكنهم بالحيرة. فمنْ بقية ولده النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر".

٥- وفود عبد المسيح بن بُقَيْلَة على سَطِيح: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "لما كان ليلةُ وُلِد النبي ارتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل

مملكته، فما كان أَوْشَكَ أنْ كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره (أى عرشه) وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر، فقال المُوبَذان: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني. قال له: وما رأيتَ؟ قال: رأيتُ إبلاً صِعَابًا، تقود خيلا عِرَابًا، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا. قال: رأيتَ عظيما، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكنْ أَرْسِلْ إلى عاملك بالحِيرة يوجِّه إليك رجلا من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحِدْثان. فبعث إليه عبدَ المسيح بن بُقَيْلَة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهِّزْني إلى خال لي بالشام يقال له: سطيح. قال: جهِّزوه. فلما قدم إلى سطيح وجده قد احتُضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أصمُّ أم يسمع غِطْرِيفُ اليمنْ؟	يا فاصل الخطة أَعْيَتْ مَنْ ومَنْ؟
أتاك شيخ الحي من آل سَنَنْ	أبيض فضفاض الرداء والبدنْ
رسول قَيْل العجْم يَهْوِى للوثن	لا يرهب الرَّعْد ولا رَيْب الزمنْ

فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، على جمل مُشيح (أي سريع)، إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك مَلك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان. رأى إبلاً صعَابًا، تقود خيلاً عِرَابًا، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقَاما، ولا الشام لسطيح شاما. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت آت. ثم قال:

إن كان ملك بني ساسان أفرطهم	فإن ذا الدهرَ أطوارًا دهاريرُ
منهم بنو الصرح بِهرامٌ وإخوته	والهرمزان وسابورٌ وسابورُ
فربما أصبحوا يوما بمنزلة	تهاب صَوْلَهم الأُسْدُ المهاصيرُ
حَثّوا المَطيّ وجَدّوا في رحالهمو	فما يقوم لهم سرجٌ ولا كُورُ
والناس أولاد عَلاّت، فمَنْ عَلموا	أنْ قد أقلّ فمحقورٌ ومهجورُ
والخير والشر مقرونان في قَرَن	فالخير متّبَعٌ، والشر محذورُ

ثم أتى كسرى فأخبره بما قاله سطيح، فغمَّه ذلك ثم تَعَزَّى فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا يدور الزمان. فهلكوا كلهم في أربعين سنة، وكان آخر من هلك منهم في أول خلافة عثمان رضي الله عنه".

٦- عُفَيْراء الكاهنة تَعْبُر رؤيا مَرْثَد بن عبد كُلاَل:

"رُوِيَ أن مَرْثَد بن عبد كُلاَل قَفَلَ من غزاة غزاها بغنائم عظيمة، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعَهم عطاء واشتد سروره بهم. فبينما هو كذلك إذ نام يوما فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرته وهالتْه في حال منامه، فلما انتبه أُنْسِيَها حتى لم يذكر منها شيئا وثَبَتَ ارتياعُه في نفسه بها، فانقلب سروره حزنا واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن. ثم إنه حَشَرَ الكهان فجعل يخلو بكاهن كاهن، ثم يقول له: أخبرني عما أريد أن أسألك عنه، فيجيبه الكاهن بأنْ لا عِلْم عندي، حتى لم يَدَعْ كاهنًا عَلِمَه إلا كان إليه منه ذلك، فتضاعف قلقه، وطال أرقه. وكانت أمه قد تكهنت، فقالت له: أَبَيْتَ اللعن أيها الملك! إن الكواهن أَهْدَى إلى ما تسأل عنه لأن أتباع الكواهن من الجانّ، ألطف وأظرف من أتباع الكهان. فأمر بحشر الكواهن إليه وسألهن كما سأل الكهان، فلم يجد عند واحدة منهن علما مما أراد علمه. ولما يئس من طَلِبَته سلا عنها. ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل في طلب الصيد وانفرد عن أصحابه فرُفِعَتْ له أبيات من ذَرَا جبل (أى فى ظل جبل). وكان قد لفحه الهجير فعدل إلى الأبيات وقصد بيتا منها كان منفردا عنها، فبرزت إليه منه عجوز فقالت له: انزل بالرُّحْب والسَّعَة،

والأمن والدعة، والجفنة المُدَعْدَعَة (الممتلئة عن آخرها)، والعُلْبة المُترَعة. فنزل عن جواده ودخل البيت. فلما احتجب عن الشمس وخَفَقَتْ عليه الأرواح (أي النسائم) نام فلم يستيقظ حتى تصرَّم الهجير، فجلس يمسح عينيه، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثلها قَوَاما ولا جمالا، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك الهمام، هل لك في الطعام؟ فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لَمّا رأى أنها عرفته، وتصامَّ عن كلمتها، فقالت له: لا حَذَر، فداك البشر، فجَدُّك (حظّك) الأكبر، وحظنا بك الأوفر. ثم قَرَّبَتْ إليه ثَرِيدًا وقَديدًا وحَيْسًا، وقامت تذُبّ عنه حتى انتهى أكله، ثم سقته لبنا صَرِيفًا وضَرِيبًا، فشرب ما شاء وجعل يتأملها مقبلةً ومدبرةً، فملأت عينيه حُسْنًا، وقَلْبَه هَوًى، فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: اسمي عُفَيْرَاء. فقال لها: يا عفيراء، من الذي دَعَوْته بالملك الهمام؟ قالت: مَرْثَد العظيم الشان، حاشر الكواهن والكهّان، لمعضلة بَعُدَ عنها الجان. فقال: يا عفيراء، أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت: أجل أيها الملك. إنها رؤيا منام، ليست بأضغاث أحلام. قال الملك: أصَبْتِ يا عفيراء، فما تلك الرؤيا؟ قالت: رأيتَ أعاصير زوابع، بعضها لبعض تابع، فيها لهب لامع، ولها دخان ساطع، يقفوها نهر متدافع، وسمعتَ فيما أنت سامع، دعاء ذي جَرْسٍ صادع: هلموا إلى المشارع، فرَوِيَ جارِع، وغَرِقَ كارِع. فقال الملك: أَجَلْ، هذه رؤياي،

فما تأويلها يا عفيراء؟ قالت: الأعاصير الزوابع ملوكٌ تَبَابع، والنهر عِلْمٌ واسع، والداعي نبيٌّ شافع، والجارع وليٌّ تابع، والكارع عدوٌّ منازع. فقال الملك: يا عفيراء، أَسِلْمٌ هذا النبي أم حَرْب؟ فقالت: أُقْسِم برافع السماء، ومُنْزِل الماء، من العَمَاء، إنه لَمُطلّ الدماء، ومُنَطِّق العقائل نُطُقَ الإماء. فقال الملك: إلامَ يدعو يا عفيراء؟ قالت: إلى صلاة وصيام، وصلة أرحام، وكسر أصنام، وتعطيل أزلام، واجتناب آثام. فقال الملك: يا عفيراء، إذا ذبح قومه فمَنْ أعضاده؟ قالت: أعضاده غطاريفُ يمانون، طائرهم به ميمون، يُغْزِيهم فيغزون، ويدمِّث بهم الحُزُون، وإلى نصره يعتزُون. فأطرق الملك يؤامر نفسه في خِطْبتها، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك! إن تابعي غيور، ولأمرى صبور، وناكحي مثبور، والكَلَف بي ثُبُور. فنهض الملك وجال في صهوة جواده، وانطلق فبعث إليها بمائة ناقة كَوْماء".

ونبدأ بحديث خنافر، وفى هذا الحديث نلاحظ ما يلى: أن رَئِيّ خنافر قد تركه فى عمايته فلم يعلمه بأن نبيا جديدا ظهر بدعوته فى بلاد العرب، إلى أن أصبح الناس فى تلك البلاد كلهم يعلمون ذلك، اللهم إلا خنافرا. فعندئذ، وعندئذ فقط، تذكر شَصَارُ صاحبَه الكاهن المسكين النائم على أذنه لا يدرى خبر الإسلام رغم أن نوره كان قد دخل اليمن وأضحى لدولته

فيها رسولٌ من لدن النبى الكريم هو معاذ بن جبل رضى الله عنه. ترى ما دور شصار إذن إذا لم يكن ما أنبأ به خنافرًا إلا خبرا يعرفه القاصى والدانى؟ إن معنى هذا أن شيطان خنافر قد هجره هجرا غير جميل طَوَال ما يقرب من عشرين سنة، أى منذ بدء النبوة إلى وقت دخول الإسلام اليمن فى أواخر حياته صلى الله عليه وسلم، فكيف كان خنافر يمارس كهانته إذن دون رَئِىٍّ من الجن؟ أم تراه توقف عن ممارستها كل تلك الفترة؟ لكن هل يمكن أن يكون ذلك؟ وهل يمكن أن يستعيض كاهن عن كهانته بالسرقة والإغارة على إبل الآخرين، وبخاصة أن خنافرا لم يكن، كما هو بَيِّنٌ من القصة، ذا عزوة تمنعه من طلب القبائل المعتدَى عليها وعملها على الثأر منه؟ كذلك ليس هناك سبب مفهوم لهجر شَصَار لصاحبه كل تلك المدة، وهذه ثُغْرَة فى القصة تحتاج إلى ما يملؤها. كما أن تهديده له بأنه إذا لم يعتنق الإسلام مثله فلن يراه مرة أخرى هو تهديد لا معنى له، لأن معنى هذا التهديد أن شَصَار لن يساعد خُنَافِرًا فى كهانته، مع أننا نعرف جيدا أن الإسلام يكفّر الكهان ويحاربهم دون هوادة، وهو ما يعنى بكل وضوح أن اللقاء بينهما من الآن فصاعدا سيكون لقاء مجرَّما ومحرَّما أشد التجريم والتحريم، وهذا إن قَبِلَ الجنى أن يقوم بدوره القديم المناقض لعقيدته الجديدة التى يدعو إليها خنافرا! فكما ترى هذه ثُغْرَة أخرى فى

القصة يصعب بل يستحيل سَـدّها. ثم أليسـت القصـة تريـد أن تقول إن شصار قد أتاه بخبر الغيب، فأى غيب هـذا الـذى كـان يعرفه الجميع فى أرجاء الجزيرة الأربعة؟ بل لمـاذا لم يعـرف شصـار بدوره بنبإ الإسلام إلا من إخوان له من الجـن كـانوا قـد آمنـوا قبله؟ ولماذا يا ترى كانوا يزجرونـه عـن سمـاع القـرآن الـذى كانوا يتلونه؟ ألم يأت القرآن لهدايـة الجـن والإنـس؟ فهـل ممـا يتناسب مع هذه الغاية أن يُزْجَر عنه مـن يريـد سماعـه؟ فكيـف يعرف إذن ما جاء فيـه مـن هـدى ونـور؟ إن سـورة "الجـن" والآيات ٢٩- ٣٢ من سورة "الأحقـاف" تحـدثاننا عـن سمـاع نفر من الجن للقرآن من الرسول عليـه السـلام دون أن يزجـرهم زاجر، فلماذا جرى الأمر فى قصتنا هـذه علـى خـلاف ذلـك؟ ولماذا كان هؤلاء النفر من الجن مـن أهـل الشـام لا مـن أهـل اليمن؟ أترى القصة تريـد أن تقـول إن "الشـيخ البعيـد سـره باتع"؟ أم تريد أن تجرى على سُنّة المثل القائل: "مـن أيـن أذنـك يا جحا؟"؟ كذلك ألم ينصح شَصَـارُ لخنـافر بـأن يـأتى الـنبىَّ فى المدينة؟ فلماذا اكتفى خُنَافِرُنا بلقاء مُعَاذ بن جبل بعـد كـل هـذا الكلام المشوِّق لرؤية النبى الكريم؟ يا له من كـاهن كسـول! بـل لماذا أراد صنعاءَ من الأصل، ولم يأت لهـا ذكـر فى الحـوار بينـه وبين رَئِيّه؟

ثم إذا كان الأمر على ما ترويه القصة، فهل كان خبر خنافر ليغيب عن كُتُب الحديث؟ كذلك لو كان ما قرأناه هنا صحيحا لقد كان خبر ذلك الكاهن اليمنى سلاحا بتارا فى الدعاية لهذا الدين، فلماذا لم يستغله المسلمون؟ صحيح أنه إنما أسلم، كما رأينا، بأُخَرة، لكن لا شك أن خبره كان يمكن أن يكون ذا نفع جزيل فى معركة الدعاية بحيث يسهِّل إنجاز المهمة الباقية، وهى القضاء على فلول الوثنية فى بلاد العرب، تلك الوثنية التى لم تكن قد خمدت تماما حتى بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وانفجرت متخذةً شكل رِدَّة مستطيرة. ثم مصطلح "السجع المتكلَّف"، هذا المصطلح البلاغى الذى لم يعرفه العرب قبل عصر الازدهار الثقافى فى العصر العباسى، من أين يا ترى للعرب الجاهليين بمعرفته؟ بل إن فى الخطبة سجعا متكلَّفا لا قِبَل للجاهليين به كما هو واضح فى المثال التالى: "خطَّابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار"، علاوة على هذه البهلوانية البلاغية الفنية الجميلة المتمثلة فى هاتين الجملتين اللتين تبادلهما الكاهن والجنى: "قال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ" والتى يصعب علىَّ أن أتصورها من شِيَم الأدب الجاهلى. ليس ذلك فحسب، فهذا الكلام المنسوب للجن، هل يمكن أن نصدقه؟ إن الجن عالم خفىٌّ لا نعرف نحن

البشر عنه شيئا سوى ما جاء فى الـوحى كمـا هـو الحـال فيمـا أنبأنا به رب العزة من كلامهم عندما اسـتمعت طائفـة منـهم إلى القرآن الكريم لأول مرة، أما ما عـدا هـذا فأنـا لا أسـتطيع أن أهضم شيئا منه كما هو الحال هنـا، وبخاصـة أنـه كـلام عـربى، فهل الجن يتحـدثون العربيـة، ويصـطنعون السَّـجْع والجِنَـاس وسائر المحسِّنات البديعية أيضا؟ وبطبيعـة الحـال لا يمكـن القـول بأنهم فى سُورَتَى "الأحقـاف" و"الجـن" قـد اسـتخدموا كـذلك لسان بنى يعرب، إذ الواقع أن ما نقرؤه هنـاك مـن كلامهـم إنمـا هو ترجمة لما قالوه بلغتهم التى لا ندرى نحن البشر عنها شيئا.

على أن القضية لَمّا تنته عنـد هـذا الحـد، إذ نقـرأ قولـه: "كان رَئِيِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عنى، فلمـا شـاع الإسـلام فقدتُه مدة طويلة، وساءني ذلك. فبينا أنـا ليلـةً بـذلك الـوادي نائما إذ هَوَى هُوِىَّ العُقَـاب، فقـال: خنـافر؟ فقلـت: شصـار؟ فقال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْـنَمْ. لكـل مـدة نهاية، وكل ذي أمد إلى غاية. قلت: أجل. فقـال: كـل دولـة إلى أَجَل، ثم يتاح لها حوَل. انتُسخت النِّحَـل، ورجعـت إلى حقائقهـا المِلَل. إنك سَجِيرٌ (أى صديقٌ) موصول، والنصـح لـك مبـذول، وإني آنَسْتُ بأرض الشأم نَفَرًا من آل العُـذَام (يقصـد أنـه قابـل قبيلة من الجن)، حُكّامًا علـى الحُكّـام، يَـذْبُرون ذا رونـق مـن الكلام، ليس بالشِّعر المؤلَّـف، ولا السـجع المتكلَّـف، فأصـغيتُ

فزُجِرْتُ، فعاودتُ فظُلِفْــتُ (أى مُنِعْــتُ)، فقلــت: بم تُهَيْنِمــون؟ وإلام تَعْتَزُون؟ قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عنــد الملــك الجبــار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبــار، واســلك أوضــح الآثــار، تَنْجُ من أُوَار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقــالوا: فرقــانٌ بــين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المَــدَر، ابتُعِــث فظهــر، فجاء بقَوْلٍ قد بَهَر، وأوضحَ نهجًا قــد دَثَــر، فيــه مــواعظُ لمــن اعتبر، ومعاذٌ لمن ازدجر، أُلِّف بالآى الكُبَــر. قلــت: ومــن هــذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشــر. فــإن آمنــتَ أُعْطِيــتَ الشَّبَر (أى الخير)، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقَر. فآمنــتُ يــا خُنَــافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانبْ كــل كــافر، وشــايعْ كــل مــؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أيــن أبغــي هــذا الدين؟ قال: من ذات الإِحَــرِّين (أى الحجــارة السُّــود)، والنَّفَــر اليمانين، أهل الماء والطين". ومعنى هذا الكــلام أن خنــافرا، كمــا هو واضح من مفتتح حديثه، كان يعــرف بمجــيء الإســلام منــذ البداية، لكننا نفاجأ، مــن خــلال أســئلته عــن الــدين الجديــد والرسول الذى جاء به والكتاب الذى نــزل عليــه، بأنــه لم يكــن يعرف شيئا من ذلك بالمرة. فكيف يسوغ فى العقل هذا؟

ولقد تصادف، بعــد كتابــة هــذه الملاحظــات بأيــام، أن كنت أقرأ ما كتبه الدكتور جواد علــى عــن ســجع الكهــان فى كتابه: "المفصل فى تاريخ العرب قبــل الإســلام"، فوجدتــه يقــول

عن هذه القصة إنها "خبر يرجع سنده إلى ابن الكلبي. وقد ذكر في "الأخبار المنثورة" لابن دُرَيْد أنه (أى خُنَافِرًا) أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن. لا أدري كيف حفظه ابن الكلبي ورواه عن والده، الذي صنعه ووضعه، إلا أن يكون والده قد حضر المحاورة فكان يسجلها، وهو ما يُعَدّ من المستحيلات". أى أن فى العلماء العرب من لا يطمئنون مثلى إلى هذه القصة، وإن كان من السهل الجواب على هذا السؤال فى حد ذاته بالقول بأن والد ابن الكلبى، وإن لم يحضر واقعة إسلام خنافر والحوار الذى دار بينه وبين شَصَّار قبلها، قد سمعها مع هذا ممن سمعها بدوره من فم ذلك الكاهن. وعلى هذا فالأفضل هنا اللصوقُ بالأدلة التى اعتمدت أنا عليها بدلا من الالتجاء إلى التشكيك فى ذمة الرواة.

أما فيما يخص حديث شافعِ الصَّدَفِيّ فغريبٌ أن يقول ذلك الكاهن إن مُلْك بنى غسّان أعظم من مُلْك التابعة على الرغم من أن الغساسنة لم يكونوا سوى مملكة صغيرة على حدود الروم لا قيمة لها حقيقية، على حين أن التبابعة كانوا يحكمون دولة كبيرة كاليمن ذات اتساع وتاريخ وحضارة معروفة لم يكن لدُوَيْلَة غسان منها شىء! ثم غريب أيضا أن تترك القصةُ التوراةَ والإنجيلَ وتذهب إلى الزَّبُور لتقول إنه قد وردت فيه البشارة بنبينا الكريم، مع أنه لم يأت فى القرآن ولا

فى الحديث أن بشارةً مثل هـــذه موجـــودةٌ فى الزبـــور! وبالنســـبة لسَطيح ونبوءته لربيعة اللَّخْمىّ هـــل يجـــوز فى العقـــول أن يجـــرؤ كاهن كسطيح على أن يَجْبَه الملك ويُـــدْخِل الغـــمّ عليـــه بقـــول الحقيقة له كاملة ودون تَوْشيَة، مـــع أنـــه كـــان فى مندوحـــة عـــن هذا، إذ لم تكن النبوءة المزعجة لِتقع قبـــل بِضْـــعَة وســـبعين عامـــا يكون هو نفسه خلالهـــا أو الملـــك قـــد مـــات، وكـــان الله يحـــب المحسنين؟ وهذا إن جـــاز لنـــا أن نصـــدق أن سَـــطِيحًا يمكـــن أن يعرف شيئا مـــن أمـــور الغيـــب المحجـــوب عـــن البشـــر والجـــن والملائكة جميعا؟ ثم أليس غريبا ألا يجد كسرى مـــن بـــين كهّانـــه فى مملكته الطويلة العريضة من يســـتطيع أن يَعْبُـــر لـــه رؤيـــاه حـــتى يرسل فيها لكاهن من كهان العرب؟ كذلك مـــن غـــير المعقـــول أن يجرؤ كاهن على أن يَجْبَه رسولَ كســـرى بهـــذا التفســـير المـــزعج للرؤيا، ثم يَجْبَه هذا به عاهلَه دون محاولـــة مـــن جانبـــه لتلطيـــف وقع الأمر. ودَعْنا الآن من التحوير فى تعبير الرؤيا كمـــا قلنـــا مـــن قبل عن رؤيا عاهل اليمن، تلك الرؤيا التى قام ســـطيح هـــو أيضـــا بتفسيرها! ومن الغريب فى الأمر أن أيًّا من كبـــار رجـــال فـــارس، حين بدأ الفتح الإسلامى لبلادهم، لم يتذكر رؤيـــا عاهلـــهم هـــذه، مع أنها ليست من الأشياء التى يمكـــن أن تُنْسَـــى بســـهولة نظـــرا لخطورة موضوعها والظروف الـــتى رُئِيَـــتْ وفُسِّـــرَتْ فيهـــا كمـــا لاحظنا، وإلا فكيف وصلتنا هـــذه الرؤيـــا وتفســـيرها إذا كانـــت

قد امَّحَتْ من الذاكرة الفارسية؟ ثم لا ينبغى أن يفوت انتباهَنا ما جاء فى تعبير شقّ أنمار للرؤيا من عبارات وعقائد قرآنية كقوله: "يوم الفصل" (الذى ورد فى سورة "المرسلات")، وقوله أيضا: "وربِّ السماء والأرض... إن ما أنبأتك به لَحَقّ؟" (المأخوذ من سورة "الذاريات")، وقوله: "يوم الميقات" (وهو مقلوب العبارة القرآنية: "ميقات يوم معلوم" الموجودة فى سورة "الواقعة")، بالإضافة إلى دعاء الأموات للقيام من مرقدهم للحشر والحساب!

كذلك هل يُعْقَل أن ترفض عُفَيْراء خِطْبة الملك لها؟ إن ما قالته فى تعليل هذا الرفض لا يدخل العقل طبعا بحال! ثم متى ذبح النبى قومه؟ وهل الأنصار وحدهم هم الذين نصروه؟ فأين ذهب الصِّدّيق إذن والفاروق وذو النورين وأبو الحسنين والحمزة وجعفر وزيد بن حارثة وأسامة بن زيد وبلال الحبشى وصُهَيْب الرومى وسلمان الفارسى وعبد الله بن سلام وخالد وعمرو وأبو سفيان والمغيرة وأبو دُجَانة والنابغة الجعدى وأبو موسى الأشعرى وأبو هريرة وخنافر وعمرو بن مَعْدِيكَرِب وآلاف بعد آلافٍ مثلهم من غير الأنصار، من قريش ومن خارج قريش، من العرب ومن وراء العرب رضى الله عنهم جميعا؟ أما ارتجاج الديوان الكِسْرَوِىّ وانطفاء النيران فى معابد زرادشت وجفاف بحيرة ساوة وما إلى ذلك فنُعَدِّى عنها لأنها لا

حقيقة لها فى واقع التاريخ، ولذلك لم تتعرض لها كتب المسلمين الأوائل بشىء، وهو ما يذكّرنا بأسطورة انشقاق الهيكل عند وقوع الصَّلْب طبقًا لرواية مؤلّفى (أو بالأحرى: ملفّقى) الأناجيل! ثم لا ينبغى أن نتجاهل الوتيرة الواحدة التى تجرى عليها كل هذه الأحاديث، إذ يقوم كل منها على السؤال من جانب تُبّع، والجواب من جانب الكاهن أو الكاهنة بلا أى تغيير، حَذْوَك النعل بالنعل!

ومما لا يطمئن له قلب الباحث فى خُطَب الجاهليين ورود عبارات لا يمكن أن تكون من كلامهم ولا صدرت عنهم، كما فى الشاهد التالى، وهو من خُطْبة عامر بن الظَّرِب العَدْوانى حين خُطِبَت ابنته عَمْرة، إذ جاء فيها قوله لقومه: "فهل لكم في العِلْم العليم؟ قيل: ما هو؟ قد قلتَ فأصبتَ، وأخبرتَ فصدَقْتَ. فقال: أمورا شتى وشيئا شَيّا، حتى يرجع الميت حيّا، ويعود لاشيء شَيّا"، إذ من المستبعد تماما أن يعرف الجاهليون مصطلح الـ"لاشيء" هذا، فهو لفظ منحوت لا أظنه أبدًا قد سُكَّ ونزل إلى ساحة الكلام قبل العصر العباسى! بيد أن هذا لا يعنى بالضرورة أن يكون النص كله مشكوكا فيه، فإنى لا أجد فى نفسى شيئا ذا بال من أن تكون هذه الخطبة، فيما عدا الكلمة المذكورة، قد قالها ذلك الرجل الجاهلى، إما كما هى أمامنا الآن أو بعد أن تكون الذاكرة أو الأقلام قد مسَّتْها

بعضَ المسّ خلال رحلتها من عصر مـا قبـل الإسـلام إلى عصـر التدوين، وبخاصة أنْ قد رواها لنا أمثال الميـدانى والجـاحظ وابـن عبد ربه حسبما ذكر أحمد زكى صـفوت فى ذيلـها، فضـلا عـن أن السجع فيها ليس متكلّفًا ولا مطّـرِدًا كمـا فى بعـض الخُطَـب الأخرى.

كما أن فى بعض تلك الخُطَب ترفا ثقافيـا وأدبيـا لا يقـدر عليه الجاهليون، ومن ثم كنا لا نطمئن إليها. لنأخـذ مـثلا الـنص التالى: "كان قيس بن رفاعـة يفـد سَـنَةً إلى النعمـان اللَّخْمـيّ بالعراق، وسَنَةً إلى الحارث بن أبي شَـمِر الغَسّـاني بالشـام، فقـال له يوما وهو عنده: يا ابن رفاعـة، بلغـني أنـك تفضّـل النعمـان عليّ. قال: وكيف أفضّله عليـك أَبَيْـتَ اللعـن؟ فـوالله لَقَفَـاك أحسن من وجهه، ولأُمّك أشرف من أبيه، ولأبـوك أشـرف مـن جميع قومه، ولَشمالك أجود مـن يمينـه، ولَحرْمانـك أنفـع مـن نَدَاه، ولَقليلُك أكثر من كثيره، ولَثِمَادك (أى قليـل مائـك) أغـزر من غديره، ولَكُرْسيّك أرفع من سـريره، ولَجَـدْوَلُك أغمـر مـن بحوره، ولَيَوْمك أفضل من شهوره، ولَشَـهْرك أَمَـدّ مـن حَوْلـه، ولَحَوْلُك خـير مـن حُقْبـه (الحُقْـب: القـرن)، ولَزَنْـدك أَوْرَى (أسرع إلى الاشتعال) من زنده، ولَجُنْدك أعزّ مـن جنـده، وإنـك لَمِنْ غسّانَ أربابِ الملوك، وإنه لمن لَخْـمِ الكـثير النُّـوك (الكـثير الحمقى)، فكيف أفضله عليك؟"، فمما لا يطمـئن لـه القلـب فى

قول قيس بن رفاعة للحارث بن أبي شَمِر العبارةُ التالية: "ولَيَوْمُك أفضل من شهوره، ولَشَهْرُك أَمَدّ من حَوْله، ولَحَوْلُك خير من حُقْبه"، إذ إن صياغة مثل تلك العبارة تحتاج إلى ما لا يحسنه الجاهليون من تنوُّق وترفُّه فكرى وأسلوبى يتمثل فى التصاعد بالمعنى من اليوم إلى الشهر إلى الحَوْل إلى الحُقْب فى تسلسلٍ جذاب تأخذ كل حلقة فيه بيد جارتها فى شكلٍ فنّىٍّ لا نظير له لدى الجاهليين. أما سائر الخطبة فلا أجد فيه شيئا يبعث على الريبة.

وإذا كان هناك من الخطب والأحاديث ما يرهقه السجع والجناس والموازنة وغير ذلك من زخارف البديع مما لا نعرفه فى كلام الجاهليين ولا الإسلاميين، فإن هناك على العكس من ذلك خطبًا وأحاديثَ تخلو تماما من مثل ذلك التكلف أو تكتفى من تزاويق البديع بالقليل الذى يسبغ على الكلام شيئا من الرونق دون إسراف كما فى المثال التالى من الحوار الذى دار بين قيسِ بن خُفَاف البُرْجُمِيّ وحاتِم الطائى: "أتى أبو جبيل قيسُ بن خُفَاف البُرْجُميّ حاتمَ طيئ في دماء حَمَلها عن قومه فأسلموه فيها وعجز عنها، فقال: والله لآتيَنَّ من يحملها عني. وكان شريفا شاعرا، فلما قدم عليه قال: إنه وقعتْ بين قومي دماء فتواكلوها، وإني حملتها في مالي وأملي، فقدَّمتُ مالي، وكنتَ أملي. فإن تَحْمِلْها فرُبَّ حقٍّ قد قَضَيْتَه، وهَمٍّ قد كَفَيْتَه،

وإن حال دون ذلك حائل لم أَذْمُمْ يومك، ولم أيأس من غدك.

ثم أنشأ يقول:

حملتُ دماءً للبراجم جَمَّةً ... فجئتك لما أسلمتني البراجمُ
وقالوا سفاهًا: لِمْ حملتَ دماءنا؟ ... فقلت لهم: يكفي الحِمَالةَ حاتمُ
متى آتِهِ فيها يقلْ لِيَ: مرحبًا ... وأهلا وسهلا، أخطأتك الأشائمُ
فيحملها عني، وإن شئتُ زادني ... زيادةَ من حَنَّتْ إليه المكارمُ
يعيش الندى ما عاش حاتمُ طَيِّئٍ ... فإن مات قامت للسخاء مآتمُ
ينادين: مات الجود مَعْكَ فلا ترى ... مجيبًا له ما حام في الجوِّ حائمُ
وقال رجال: أنهب العامَ مالَه ... فقلت لهم: إني بذلك عالِمُ
ولكنه يعطي مِنَ امْوَال طَيِّئٍ ... إذا جلَّف المالَ الحقوقُ اللوازمُ
فيعطي التي فيها الغنى، وكأنه ... لتصغيره تلك العطيةَ جارمُ
بذلك أوصاه عديٌّ وحَشْرَجٌ ... وسعدٌ وعبدُ الله، تلك القماقمُ

فقال له حاتم: إنْ كنتُ لأُحِبّ أن يأتيني مثلك من قومك. هذا مِرْباعي من الغارة على بني تميم، فخذه وافرًا، فإن وفَّى بالحِمَالة، وإلا أكملتُها لك. وهو مائتا بعيرٍ سوى بنيها وفِصَالها، مع أني لا أحب أن تُوَيِسَ قومك بأموالهم. فضحك أبو جبيل وقال: لكم ما أخذتم منا، ولنا ما أخذنا منكم. وأي بعير دفعتَه إليَّ ليس ذَنَبُه في يد صاحبه فأنت منه بريء. فدفعها إليه وزاده مائة بعير، فأخذها وانصرف راجعا إلى قومه، فقال حاتم في ذلك:

أتاني البُرْجُمِيُّ أبو جُبَيْلٍ ... لهمٍّ في حِمَالته طويلِ

فقلت لـــه: خذ المِرْباع رَهْوًا ... فإني لســت أرضى بالقليلِ
على حـــالٍ ولا عوَّدْتُ نفسي ... على عـــلاّتها علَلَ البخيـــلِ
فخـــذها، إنهـــا مائتـــا بعيـــرٍ ... سوى الناب الرذيَّة والفَصيلِ
فلا مَـــنٌّ عليك بهـــا، فـــإني ... رأيتُ المـــَنَّ يُزْري بالجزيـــلِ
فآب البـــرجميّ، ومـــا عليـــه ... مـــنَ اعْباء الحَمَالة من فتيلِ
يجـــرّ الذيل يَنْفُض مِذْرَوَيْـــه ... خفيف الظهر من حملٍ ثقيلِ"

وهذا فضلا عن النكهة الواقعية التى تفعم الـــنص كلـــه مما يعضد اقتناعى بأن تلك الحكايـــة بمـــا فيهـــا مـــن حـــوار وشـــعر صحيحة غير مفتعلة، ومن ثم أقبلها وأنا مطمئن إلى حد كبير.

ومثلهما فى ذلك النص التالى، وهـــو مـــن حـــوار دار بـــين قُبَيْصَة بن نعيم وامرئ القيس الشاعر والملـــك المشـــهور فى مقتـــل والد الأخير: "قدم على امرئ القيس بـــن حجـــر الكنـــدي بعـــد مقتل أبيه رجالٌ من قبائل بني أســـد، وفـــيهم قُبَيْصَـــة بـــن نعـــيم، يسألونه العفو عن دم أبيه، فخرج عليهم في قَبَـــاءٍ وخُـــفٍّ وعمامـــةٍ سوداءَ، وكانت العرب لا تعتمّ إلا في التِّـــرَات (أى عنـــد الثـــأر). فلما نظروا إليه قاموا له وبَدَرَ إليه قبيصـــة فقـــال: إنـــك في المحـــلّ والقدر والمعرفة بتصرف الدهر ومـــا تُحْدِثـــه أيامـــه وتتنقّـــل بـــه أحواله بحيث لا تحتاج إلى تـــذكيرٍ مـــن واعـــظٍ ولا تبصـــيرٍ مـــن مجرّب. ولك من سُؤْدَد منصبك وشرف أعراقـــك وكـــرم أصـــلك فى العرب مَحْتِدٌ يحتمل ما حُمِلَ عليه مـــن إقالـــة العَثْـــرة ورجـــوعٍ

عن الهفوة. ولا تتجاوز الهممُ إلى غاية إلا رجعتْ إليك فوجدتْ عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يَطُول رغباتها ويستغرق طَلِباتها. وقد كان الذي كان من الخَطْب الجليل الذي عَمَّتْ رَزِيَّته نِزَارًا واليمن، ولم تُخْصَص بذلك كِنْدَة دوننا، للشرف البارع كان لحُجْر: التاج والعمَّة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد وطيب الشِّيَم. ولو كان يُفْدَى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه، ولا يلحق أقصاه أدناه. فأَحْمَدُ الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خِلال ثلاث: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا وأعلاها في بناء المكرمات صوتا، فقُدناه إليك بنِسْعَة تذهب مع شفرات حُسَامك بباقي قَصَرته، فنقول: رجلٌ امتُحِن بهالكٍ عزيزٍ فلم يستلَّ سخيمتَهُ إلا تمكينه من الانتقام. أو فداءٌ بما يروح على بني أسد من نَعَمها، فهي ألوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القُضُب إلى أجفانها لم يرددها تسليط الإِحَن على البُرَآء. وإما أن وادعْتَنا إلى أن تضع الحوامل فتُسْدَل الأُزُر، وتُعْقَد الخُمُر فوق الرايات. فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد عَلِمَت العرب أنه لا كُفْءَ لحُجْرٍ في دم وأني لن أعتاض به جملاً ولا ناقةً فأكتسب به سُبَّة الأبد، وفَتَّ العَضُد. وأما النَّظِرة فقد أوجبتْها الأجنّةُ في

بطون أمهاتها، ولن أكون لعَطَبها سببا. وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حَنَقًا، وفوق الأسنّة عَلَقًا

إذا جالت الحرب في مأزِق تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوإ الاختيار، وأبلى الاجترار، بمكروهٍ وأذيّة، وحربٍ وبليّة. ثم نهضوا عنه، وقبيصة يتمثل:

لعلّكَ أن تَستَوْخِم الوِرْدَ إن غَدَتْ كتائبُنا في مأزِق الحرب تُمْطِرُ

فقال امرؤ القيس: لا والله، ولكن أستعذبه. فرُوَيْدًا ينفرجْ لك دُجَاها عن فرسان كندة وكتائب حِمْيَر. ولقد كان ذِكْر غير هذا بي أَوْلَى إذ كنتَ نازلا برَبْعِي، ولكنك قلتَ فأوجبتَ. فقال قبيصة: ما يُتَوَقَّع فوق قدر المعاتبة والإعتاب. فقال امرؤ القيس: هو ذاك".

وكذلك هذه الخطبة التى قالها عبد المطلب بن هاشم جد النبى عليه السلام فى حضرة سيف بن ذى يَزَن حين ذهب إليه وفد العرب يهنئونه بانتصاره على الأحباش وإخراجه إياهم من بلاده: "لما ظفر سيف بن ذي يَزَن بالحبشة أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنّئه وتمدحه، ومنهم وفد قريش، وفيهم عبد المطلب بن هاشم. فاستأذنه في الكلام، فأذن له، فقال: إن الله تعالى أيها الملك أَحَلَّك محلاًّ رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أَرُومَتُه، وعَزَّتْ جرثومتُه، وثبَتَ أصله،

وبَسَقَ فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن. فأنت، أَبَيْتَ اللعن، رأسُ العرب وربيعُها الذي به تُخْصِب، ومَلِكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العمَاد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد. سَلَفُك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خَلَف، ولن يَهْلك من أنت خَلَفُه، ولن يَخْمُل من أنت سَلَفُه. نحن، أيها الملك، أهل حَرَم الله وذمَّته وسدنة بيته. أَشْخَصَنا إليك الذي أبهجك بكشف الكَرْب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المَرْزَئة".

ومثلها فى ذلك خطبة أبي طالب عم النبى عندما ذهب معه لخطْبة خديجة بنت خُوَيْلد له، وهذا نصها: "خَطَبَ أبو طالب حين زواج النبي بالسيدة خديجة فقال: الحمد لله الذي جعلنا من زَرْع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا، وجعلَنا الحكّام على الناس. ثم إن محمد بن عبد الله ابنَ أخي من لا يُوَازَن به فتًى من قريش إلا رَجَحَ عليه بِرًّا وفضلاً وكرمًا وعقلاً ومجدًا ونُبْلاً. وإن كان في المال قُلٌّ فإنما المال ظلٌّ زائلٌ، وعاريَّةٌ مسترجَعَة، وله في خديجة بنت خويلد رغبةٌ، ولها فيه مثل ذلك. وما أحببتم من الصَّدَاق فعَلَيَّ".

وهناك ضرب آخر من الخطب المنسوبة للعصر الجاهلى تثير نوعا آخر من التساؤلات، وهى الخطب التى يقال إن بعضا من وجوه العرب ورؤسائهم قد ألقَوْها فى قصر العاهل

الكِسْرَوِىّ بالمدائن وبمحضرٍ منه ودار الجدال بينــه وبينــهم حــول المقارنة بين فضائل العرب وغيرهم مــن الأمــم بمــا فيهــا فــارس نفسها، إذ يتساءل الإنسان: هل مــن المعقــول أن يجــرؤ أولئــك العرب، الذين لم تكن لهم فى ذلك الحين دولة تحمــيهم مــن بطــش كسرى إذا فكر فى البطش بهــم، علــى أن يتفــاخروا فى وجهــه ذلك الفخر المجلجل الذى يرفع العرب فــوق كــل الأمــم؟ ثم إن الرواية تذكر أن وفــودا مــن الصــين والهنــد والــروم كانــت موجودة فى ذلك الاجتماع تتبــادل التفــاخر والتبــاهى بأصــولها وأعراقها، فهل كان هناك فى تلك الأزمــان مــا يمكــن ببســاطة، ودون افتئات على حقائق الحــوادث لــو صــح مــا تقولــه لنــا الروايــات، أن نســـميه: "حـــوار القوميـــات" أو "حـــوار الحضارات"؟ ولكن فلنقرأ أولا شيئا مــن هــذه الخطــب وقصــتها حتى يكون الكلام عن بينة. تقول الرواية:

"قدم النعمان بن المنذر على كسرى، وعنــده وفــود الــروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهــم، فــافتخر النعمــان بالعرب وفضّلهم على جميع الأمم لا يســتثنى فــارسَ ولا غيرهــا. فقال كسرى، وأخذته عزة المُلْك: يا نعمان، لقــد فكــرتُ فى أمــر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرتُ في حالة مــن يَقْــدَم علــيَّ مــن وفود الأمم فوجدتُ للــروم حظــا فى اجتمــاعِ أُلْفَتــها وعظَــم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وأن لهــا دِينًــا يــبين حلالهــا

وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهلها. ورأيتُ الهند نحوا من ذلك في حكمتها وطبّها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكا يجمعها. والترك والخَزَر، على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضمّ قواصيهم وتُدبِّر أمرهم. ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة. ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلّتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة. يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة. قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذّاتها، فأفضل طعامٍ ظفر به ناعمُهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها. وإنْ قَرَى أحدهم ضيفا (أي أطعمه) عَدّها مكرمة، وإن أطعم أكلة عَدَّها غنيمة. تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التّنوخيّة التي أسس جَدِّي اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوّها فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا. وإن لها مع ذلك آثارا ولَبُوسًا وقرى وحصونا وأمورا تشبه بعض أمور الناس، يعني

اليمن. ثم لا أراكم تستكينون على مـا بكـم مـن الذلـة والقلـة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريـدوا أن تنزلـوا فـوق مراتـب الناس! قال النعمان: أصلح الله الملك. حقّ لأمّـة المَلِـكُ منـها أن يَسْمُوَ فضلها ويَعْظُم خَطْبها وتعلو درجتـها، إلا أن عنـدي جوابـا في كل ما نطق به الملك في غير رد عليـه ولا تكـذيب لـه. فـإن أمَّنني من غضبه نطقتُ به. قال كسرى: قل، فأنت آمن.

قال النعمان: أما أمّتـك أيهـا الملـك فليسـت تُنـازَع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامهـا وبسـطة محلّهـا وبُحْبُوحة عزّها وما أكرمها الله به مـن ولايـة آبائـك وولايتـك. وأما الأمم التي ذكرتَ فأيّ أمة تقرنها بـالعرب إلا فَضَـلَتْها؟ قـال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزهـا ومَنَعَتـها وحسـن وجوههـا وبأسها وسـخائها وحكمـة ألسـنتها وشـدة عقولهـا وأَنَفَتـها ووفائها: فأما عزها ومنعتها فإنها لم تـزل مجـاورة لآبائـك الـذين دوّخوا البلاد ووطّـدوا الملـك وقـادوا الجنـد، لم يطمـع فـيهم طامع، ولم ينلـهم نائـل. حصـونهم ظهـور خيلـهم، ومهَـادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجُنَّتهم السـيوف، وعُـدَّتهم الصـبر، إذ غيرها من الأمم إنمـا عزّهـا مـن الحجـارة والطـين وجزائـر البحور. وأما حُسْن وجوههـا وألوانهـا فقـد يُعْـرَف فضـلهم في ذلك على غيرهم من الهنـد المنحرفـة والصـين المُنْحَفَـة والـروم والترك المشوَّهة المقشَّرة. وأما أنسابها وأحسابها فليسـت أمـةٌ مـن

الأمم إلا وقد جَهِلَتْ آباءها وأصولها وكثيرا مـن أوّلها حـتى إن أحدهم ليُسْأل عمن وراء أبيه دنّيا (أى بعده مباشـرة) فـلا يَنْسُبه ولا يعرفه، وليس أحد من العـرب إلا يسـمى آبـاءه آبًـا فآبًـا، حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم، فـلا يـدخل رجـل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسـبه، ولا يُـدْعَى إلى غـير أبيـه. وأما سخاؤها فإن أدناهم رَجُـلاً الـذي تكـون عنـده البَكْـرة والناب عليها بلاغُهُ في حُمُولـه وشِـبَعه وريّـه فيَطْرُقـه الطـارق الذي يكتفي بالفَلْذة ويجتزئ بالشَّـربة فيَعْقرهـا لـه ويرضـى أن يخرج عن دنياه كلها فيمـا يُكْسِـبه حسـن الأُحدوثـة وطيـب الذكر. وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعـالى أعطـاهم في أشـعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنـه وقوافيـه مـع معرفتـهم الأشـياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشـيء مـن ألسـنة الأجناس. ثم خيلهم أفضـل الخيـل، ونسـاؤهم أعـفّ النسـاء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعـادنهم الـذهب والفضـة، وحجـارة جبالهم الجَزْع، ومطاياهم الـتي لا يُبْلَـغ علـى مثلـها سَـفَر، ولا يُقْطَع بمثلها بلدٌ قَفْر. وأما دينها وشـريعتها فـإنهم متمسـكون بـه حتى يبلغ أحدهم من نُسُكه بدينه أنّ لهـم أشـهُرًا حُرُمًـا وبلـدا محرَّما وبيتا محجوجـا يَنْسـكون فيـه مناسـكهم ويـذبحون فيـه ذبائحهم فيَلْقَى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهـو قـادر علـى أخـذ ثأره وإدراك رَغْمه منه فيحجزه كرمه ويمنعـه دينـه عـن تناولـه

بأذى. وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة، فهي وَلْثٌ (أى عهد) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدَيْنه فلا يَغْلَق رهنه ولا تُخْفَر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به، وعسى أن يكون نائيا عن داره، فيصاب فلا يرضى حتى يُفْنِيَ تلك القبيلة التي أصابته أو تَفْنَى قبيلته لما أُخفِر من جواره، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله. وأما قولك أيها الملك: "يَئِدُون أولادهم" فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار وغيرةً من الأزواج. وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفْتَ منها فما تركوا ما دونها إلا احتقارا لها فعمدوا إلى أجلّها وأفضلها فكانت مراكبَهم وطعامَهم مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقّها ألبانا وأقلّها غائلة وأحلاها مضغة، وإنه لا شيء من اللُّحْمان يعالَجَ ما يعالَج به لحمها إلا استبان فضلها عليه. وأما تحارُبهم وأكْل بعضهم بعضا وتَرْكهم الانقياد لرجل يَسُوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أَنِسَتْ من نفسها ضعفا وتخوَّفت نهوضَ عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يُعْرَف فضلهم على سائر غيرهم فيُلْقُون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأَزِمّتهم. وأما العرب فإن ذلك كثير

فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخَرَاج والوَطْث (أي الوطء) بالعَسْف. وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أتى جَدّ الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الجيش له على مُلْكٍ متسقٍ وأمرٍ مجتمعٍ فأتاه مسلوبا طريدا مُستَصْرِخًا. ولولا ما وَتَرَ به من يليه من العرب لَمَال إلى مجال ولَوَجَد من يجيد الطّعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار. فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال: إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك. ثم كساه من كُسْوته وسرَّحه إلى موضعه من الحيرة.

فلما قدم النعمان الحِيرَة، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى مِنْ تنقُّص العرب وتهجين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زُرَارَة التميميَّين وإلى الحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريَّيْن وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن عُلاثَة وعامر بن الطُّفَيْل العامريّين وإلى عمرو بن الشريد السُّلَميّ وعمرو بن مَعْديكَرِب الزُّبَيْدي والحارث بن ظالم المُرِّيَ. فلما قدموا عليه في الَخَوَرْنَق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وقُرْب جوار العرب منها، وقد سمعتُ من كسرى مقالات تخوفتُ أن يكون لها غَوْر أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العربَ خَوَلاً (أي خُدّامًا) كبعض طماطمته (الطماطمة: الذين لا يحسنون الكلام) في تأديتهم الخَرَاج

إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله. فـاقتصَّ علـيهم مقـالات كسرى وما ردَّ عليه، فقالوا: أيها الملك، وفقـك الله! مـا أَحْسَـنَ ما رددت، وأَبْلَغَ ما حَجَجْتَه بـه! فمُرْنـا بـأمرك وادْعُنـا إلى مـا شئت. قال: إنما أنا رجل منكم، وإنما مَلَكْـتُ وعَـزَزْتُ بمكـانكم وما يتخوَّف من ناحيتكم. وليس شيءٌ أحبَّ إليَّ ممـا سـدَّد الله بـه أمركم وأصلح به شأنكم وأدام بـه عـزكم. والـرأي أن تسـيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسـرى، فـإذا دخلـتم نطـق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غـير مـا ظـنَّ أو حدَّثته نفسه. ولا ينطقْ رجل منكم بما يغضبه، فإنـه ملـك عظـيم السلطان كثير الأعوان مترف معجـب بنفسـه، ولا تنخزلـوا لـه انخزال الخاضع الذليل. وليكن أمرٌ بـين ذلـك تظهـر بـه وثاقـة حُلُومكم وفَضْل منزلتكم وعظـيم أخطـاركم، ولـيكن أول مـن يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي، ثم تتـابعوا علـى الأمـر مـن منازلكم التي وضعتُكم بها، فإنما دعاني إلى التقدمـة إلـيكم علمـي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صـاحبه، فـلا يكـوننَّ ذلـك منكم فيجدَ في آدابكم مطعنا، فإنه ملكٌ متـرفٌ وقـادرٌ مسـلَّط. ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائـف حُلَـل الملـوك، كـلَّ رجـل منهم حُلَّة، وعمَّمه عمامة، وختَّمـه بياقوتـة، وأمـر لكـل رجـل منهم بنجيبة مَهْرِيّة وفرسٍ نَجِيَّة، وكتب معهـم كتابـا: أمـا بعـد، فإن المَلِك ألقى إليَّ من أمر العرب ما قد عَلِـم، وأجبتُـه بمـا قـد

فَهِم مما أحببتُ أن يكون منه على علم ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزتْ دونه بمملكتها وحَمَتْ ما يليها بفضل قوّتها تبلغها في شيء من الأمور التي يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد أوفدتُ، أيها الملك، رَهْطًا من العرب لهم فضلٌ في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم، فلْيسمع الملك ولْيُغْمِضْ عن جفاء إن ظهر من منطقهم، ولْيُكْرِمْني بإكرامهم وتعجيل سَرَاحهم. وقد نسبتُهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم. فخرج القوم في أُهْبَتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم. فلما أن كان بعد ذلك بأيامٍ أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسيَّ عن يمينه وشِماله، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه، وأقام الترجمانَ ليؤدي إليه كلامهم ثم أذن لهم في الكلام.

فقام أكثم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمّها نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركبٌ صعب، والعجز مركبٌ وطيء. آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح

فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاصِّ بالماء. شر البلاد بلاد لا أميرَ بها. شر الملوك من خافه البريء. المرء يعجز لا المحالة. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يُرَاءِ بالنصيحة. أحقّ الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحلّ. حَسْبُك من شرٍّ سماعه. الصمت حُكْمٌ، وقليلٌ فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدَّد نفَّر، ومن تراخى تألَّف. فتعجب كسرى من أكثم ثم قال: ويحك يا أكثم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وَضْعُك كلامك في غير موضعه. قال أكثم: الصدق ينبئ عنك لا الوعيد. قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكثم: رُبَّ قولٍ أنْفَذُ من صَوْل.

ثم قام حاجب بن زُرَارَة التميمي فقال: وَرِيَ زَنْدك، وعَلَتْ يدك، وهِيبَ سلطانك. إن العرب أمة قد غَلُظَتْ أكبادها واستحصدت مِرَّتها ومنعت دِرَّتها، وهي لك وامقة ما تألَّفْتَها، مسترسلة ما لايَنْتَها، سامعة ما سامحتها، وهي العلقم مرارةً، والصابُ غضاضةً، والعسل حلاوةً، والماء الزلال سلاسةً. نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك. ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة. إن نَؤُبْ لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم مَحْمَدتنا، وإن نَذُمّ لم نُخَصَّ بالذم دونها. قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجر التلال

بألوان صخرها! قال حاجب: بل زئير الأُسْد بصَوْلَتها. قال كسرى: وذلك.

ثم قام الحارث بن عباد البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو سنائها. من طال رِشَاؤه كَثُرَ مَتْحُه، ومن ذهب ماله قلَّ مَنْحُه. تناقُل الأقاويل يعرِّف اللُّبَّ، وهذا مقامٌ سيُوجِف بما ينطق به الرَّكْب وتَعْرِف به كُنْهَ حالنا العجمُ والعرب. ونحن جيرانك الأَدْنَوْن، وأعوانك المُعِينون. خيولنا جَمَّة، وجيوشنا فخمة. إن استنجدتَنا فغَيْرُ رُبُض، وإن استطرقتَنا فغير جُهُض، وإن طلبتنا فغير غُمُض. لا ننثني لذعر، ولا نتنكر لدهر. رماحنا طوال، وأعمارنا قصار. قال كسرى: أنفسٌ عزيزة، وأمةٌ ضعيفة. قال الحارث: أيها الملك، وأنَّى يكون لضعيفٍ عِزَّة، أو لصغيرٍ مِرَّة؟ قال كسرى: لو قَصُرَ عمرك لم تستول على لسانك نفسُك. قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرِّرًا بنفسه على الموت فهى منيَّةٌ استقبلها، وجنانٌ استدبرها. والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدُمًا، وأحبسها وهى تَصَرَّف بها، حتى إذا جاشتْ نارها وسَعَرَتْ لظاها وكشفتْ عن ساقها جعلتُ مَقادها رمحى، وبرقها سيفى، ورعدها زئيرى، ولم أقصِّر عن خوض خَضْخَاضها حتى أنغمس فى غمرات لُجَجها، وأكون فُلْكًا لفرسانى إلى بُحْبُوحة كبشها فأستمطرها دمًا، وأترك حُمَاتَها

جَزَر السِّباع وكلّ نَسْرٍ قَشْعَم (أى أقتلهم وأتركهم للسباع والنسور تنهش جثثهم). ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو؟ قالوا: فَعَاله أنْطَقُ من لسانه. قال كسرى: ما رأيت كاليوم وفدا أحْشَد، ولا شهودا أوْفَد.

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلَميّ فقال: أيها الملك، نَعِمَ بالُك، ودام فى السرور حالُك. إن عاقبة الكلام متدبَّرة، وأشكال الأمور معتَبَرة، وفى كثير ثِقْلَة، وفى قليل بُلْغَة، وفى الملوك سَوْرَة العزّ. وهذا منطقٌ له ما بعده، شَرُفَ فيه مَنْ شَرُفَ، وخَمَلَ فيه مَنْ خَمَل. لم نأت لضَيْمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدك (أى عطائك). إن فى أموالنا منتقَدًا، وعلى عزّنا معتمَدًا. إنْ أَوْرَيْنا نارا أَثْقَبْنا، وإنْ أَوِدَ دهرٌ بنا اعتدلنا، إلا أنّا مع هذا لجِوارك حافظون، ولمن رامَكَ كافحون، حتى يُحْمَد الصَّدَر، ويستطاب الخبر. قال كسرى: ما يقوم قَصْدُ منطقك بإفراطك، ولا مدحُك بذمِّك. قال عمرو: كفى بقليلِ قصدى هاديًا، وبأيسر إفراطى مُخْبِرًا. ولم يُلَمْ مَنْ غَرَبَتْ نفسه عما يعلم، ورَضِيَ من القصد بما بلغ. قال كسرى: ما كلُّ ما يعرف المرء ينطق به. اجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال: أحضر الله الملك إسعادا، وأرشده إرشادا. إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غُصّة، وعِيُّ المنطق أشدّ من عِيّ السكوت، وعِثَار القول أنكأ

من عثار الوَعْث. وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نَهْوَى، وغصة المنطق بما لا نَهوى غير مستساغة، وتركى ما أعلم مِنْ نفسى ويعلم مَنْ سمعنى أننى له مطيق أَحَبُّ إلى من تكلُّفى ما أتخوَّف ويُتَخَوَّف منى. وقد أوفدَنا إليك مَلِكُنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونِعْم حاملُ المعروف والإحسان. أنفسنا بالطاعة لك باخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة. قال له كسرى: نطقتَ بعقلٍ، وسَمَوْتَ بفَضْلٍ، وعَلَوْتَ بنُبْل.

ثم قام علقمة بن عُلَاثة العامري فقال: نَهَجَتْ لك سُبُل الرشاد، وخضعت لك رقاب العباد. إن للأقاويل مناهج، وللآراء مَوَالج، وللعويص مخارج، وخير القول أصدقه، وأفضل الطلب أنجحه. إنا، وإن كانت المحبة أحضرتْنا والوفادة قرّبتْنا، فليس مَنْ حَضَرك منا بأفضل ممن عَزَب عنك. بل لو قِسْتَ كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدتَ له فى آبائه دنيًّا أندادا وأكفاء كلُّهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف. يحمى حماه، ويُرْوِى نداماه، ويذود أعداه. لا تخمد ناره، ولا يحترز منه جاره. أيها الملك، من يَبْلُ العربَ يعرف فضلهم، فاصطنعْ العرب، فإنها الجبال الرواسى عِزًّا، والبحور الزواخر طَمّيًّا، والنجوم الزواهر شرفًا، والحصى عددًا، فإن تعرف لهم فضلهم

يُعزّوك، وإن تستصرخهم لا يخذلوك. قال كسرى، وخَشِيَ أن يأتيَ منه كلام يحمله على السخط عليه: حَسْبُكَ! أَبْلَغْتَ وأَحْسَنْتَ!

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال: أطاب الله بك المَرَاشد، وجنَّبَك المصائب، ووقاك مكروه الشَّصَائب (الشدائد). ما أحقَّنا، إذ أتيناك، بإسماعك ما لا يُحْنِق صدرك، ولا يزرع لنا حقدا فى قلبك! لم نَقْدَم أيها الملك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة، ولكن لِتَعْلَم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنّا فى المنطق غير مُحْجمين، وفى الناس غير مقصِّرين. إن جُورينا فغير مسبوقين، وإن سُومينا فغير مغلوبين. قال كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين (وهو يعرِّض به فى تركه الوفاء بضمانه السواد). قال قيس: أيها الملك، ما كنتُ فى ذلك إلا كَوَافٍ غُدِرَ به، أو كخافر أُخْفِرَ بذمّته. قال كسرى: ما يكون لضعيف ضمانٌ، ولا لذليلٍ خَفَارة. قال قيس: أيها الملك، ما أنا فيما أُخْفِرَ من ذمتى أحقّ بإلزامي العارَ منك فيما قُتِلَ من رعيتك، وانْتُهِكَ من حُرْمتك. قال كسرى: ذلك لأن من ائْتَمَنَ الخائنة (أى الخَوَنَة)، واستنجد الأَثَمَة ناله من الخطإ ما نالنى، وليس كل الناس سواء. كيف رأيتَ حاجب بن زرارة؟ لِمَ يُحْكِم قُوَاه فيُبْرِم، ويَعْهَد فيُوفِى، ويَعِد فيُنْجِز؟

قال: وما أحقَّه بذلك! ومـــا رأيتُـــه إلا لى. قـــال كســـرى: القـــوم بُزُلٌ (البازل: الناقة المسنّة)، فأفضلها أشدّها.

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال: كَثُــرَ فنــون المنطــق، ولَبْسُ القول أعمى من حِنْدِس الظلماء، وإنمــا الفخــر فى الفَعــال، والعَجْز فى النجدة، والســؤدد مطاوَعَــة القــدرة. ومــا أَعْلَمَــك بقدْرنا، وأَبْصَرَك بفضلنا. وبــالحَرَى إن أدالــت الأيــام، وثابَــت الأحلام، أن تُحْدث لنا أمورا لها أعلام. قال كســرى: ومــا تلــك الأعلام؟ قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر، علــى أمــرٍ يُــذْكَر. قال كسرى: وما الأمر الذي يُذْكَر؟ قال: ما لي علــمٌ بــأكثر ممــا أخبرنى به مُخْبِر. قال كسرى: مــتى تكاهَنْــتَ يــا ابــن الطفيــل؟ قال: لستُ بكاهن، ولكنى بالرمح طــاعن. قــال كســرى: فــإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء، مــا أنــت صــانع؟ قــال: مــا هَيْبَتى فى قفاي بدون هيبتي في وجهي، ومــا أَذْهَــبَ عــيني عَيْــثٌ، ولكن مطاوَعة العَبَث.

ثم قام عمرو بن مَعْــدِيكَرِب الزُّبَيْــديّ فقــال: إنمــا المــرء بأصغرَيْه: قلبه ولسانه، فبلاغُ المنطــق الصــواب، ومِــلاَك النُّجْعــة الارتياد، وعفو الرأى خير من استكراه الفكــرة، وتوقيــف الخــبرة خير من اعتساف الحــيرة، فاجْتَبِــذْ (اجتــذبْ) طاعتنــا بلفظــك، واكتظم بادرَتنا بحِلْمك، وأَلِنْ لنا كَنَفك يَسْلَس لــك قِيادنــا، فإنــا

أناسٌ لم يُوَقِّسْ صَفَاتَنا (أى لم يخدش صخرتنا) قَرَاعُ مناقير مَنْ أراد لنا قَضْمًا، ولكنْ مَنَعْنا حِمَانا مِنْ كلِّ مَنْ رامَ لنا هَضْمًا.

ثم قام الحارث بن ظالم المُرِّيّ فقال: إن من آفة المنطق الكذب، ومن لؤم الأخلاق المَلَق، ومن خَطَل الرأي خفة الملك المسلَّط. فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن الائتلاف، وانقيادنا لك عن تصاف، فما أنت لِقبول ذلك منا بخَليق، ولا للاعتماد عليه بحَقيق، ولكن الوفاء بالعهود، وإحكام وَلْث العقود. والأمر بيننا وبينك معتدل ما لم يأت مِنْ قِبلك ميل أو زلل. قال كسرى: من أنت؟ قال: الحارث بن ظالم. قال: إن في أسماء آبائك لَدليلا على قلة وفائك وأن تكون أولى بالغدر، وأقرب من الوزر. قال الحارث: إن في الحق مَغْضَبَة، والسَّرْوُ التغافل، ولن يستوجب أحدٌ الحِلْمَ إلا مع القدرة، فلْتُشْبه أفعالُك مجلسَك. قال كسرى: هذا فتى القوم. ثم قال كسرى: قد فهمتُ ما نطقتْ به خطباؤكم، وتفنَّن فيه متكلموكم. ولولا أني أعلم أن الأدب لم يثقِّف أَوَدَكم ولم يُحْكِم أمركم وأنه ليس لكم مَلِكٌ يجمعكم فتنطقون عنده منطقَ الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتُم بما استولى على ألسنتكم وغَلَبَ على طباعكم لم أُجِزْ لكم كثيرا مما تكلمتم به. وإني لأكره أن أجَبِّه وفودي أو أُحْنِق صدورهم، والذي أُحِبّ هو إصلاح مدبركم وتألُّف شواذِّكم والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم. وقد قبلتُ ما كان في

منطقكم من صواب، وصفحتُ عما كان فيه من خلل، فانصرفوا إلى مَلِككم، فأَحْسِنوا مؤازرته، والتزموا طاعته، واردعوا سفهاءكم، وأقيموا أَوَدَهم، وأَحْسِنوا أدبهم، فإن في ذلك صلاح العامة".

وأول شيء يلفت النظر هو: كيف استطاع النعمان أن يجمع هؤلاء الرجال من كل أرجاء بلاد العرب، وهو الذى لم يكن له سلطان إلا على منطقة الحيرة فى شمال شرق الجزيرة العربية؟ وكيف ورد فى كلامه مصطلحا "الوزن والقافية" الشِّعْرِىّ، وهما لفظان لم تكن العرب تعرفهما فى ذلك المعنى آنذاك؟ ثم إن خطبة أكثم بن صيفى ليست فى الواقع خطبة، بل مجموعة من الأمثال التى تُنْسَب إليه وُصِل بعضها ببعض وصلاً متعسِّفًا، إذ ليس لها محور واحد تدور عليه، بل كلمة من الشرق، وكلمة من الغرب، وإن كنا لا نقلل من قيمة كل كلمة فى حد ذاتها، لكننا نستغرب أن تكون هذه هى الخطبة التى انتدب النعمان بن المنذر أكثم لإلقائها فى حضرة كسرى تنبيها له على فضل أمة العرب، على حين لا علاقة بينها وبين هذا الموضوع بتاتًا. كما وردت فى الخطبة عبارة لم يعرفها العرب، فيما نتصور، إلا عندما تقدمت العلوم عندهم ونشأ علم البلاغة وحاول النقاد تقنين الكلام البليغ، ألا وهى عبارة "البلاغة الإيجاز". كذلك هناك كلمة "شريعة" التى استعملها

النعمان للإشارة إلى أحكام الوثنية، والسؤال هو: أكان العرب يستعملون هذه الكلمة فيما أصبحت تُستَعْمَل له بعد الإسلام؟ وهل كان العرب أصلاً يسمّون ما هم عليه من تقاليد جاهلية: "شريعة"؟ لقد بحثت فى "الموسوعة الشعرية" الضوئية عن شواهد فى الشعر الجاهلى لهذه الكلمة فلم أجد إلا بيتا واحدًا لا علاقة له البتة بهذا المعنى. ثم هل تُوَاتِى نَفْسَ أى عربى فى محضر كسرى أن يدعو الفرس بـ"الأعاجم" مثلما فعل الحارث بن عباد البكرى، وهى كلمة مسيئة فى حقهم كما نعرف، إذ تسوى بينهم وبين العجماوات؟

وبالمثل هل من السهل قبول ما جاء فى القصة من أن عمرو بن الشريد قد جَبَهَ ملك الفرس بهذا الكلام الجافى الذى يحمل من التحدى الساطع ما يحمل: "لم نَأْت لضَيْمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدك. إن فى أموالنا منتقَدًا، وعلى عزّنا معتمَدا"؟ أو أن يقرّع الحارث بن ظالم المرّيّ كسرى بهذه الكلمات التى تنصحه بالارتفاع إلى مستوى السلوك اللائق بالملوك: "إن في الحق مَغْضَبَة، والسَّرْوُ التغافل، ولن يستوجب أحدٌ الحِلم إلا مع القدرة. فلْتُشْبِهْ أفعالُك مجلسَك"؟ أو أن يهدده عامر بن الطفيل بما لوّح له به من إمكان انتقاض العرب عليه وخَرِّهم إياه حتى ليغضب كسرى مما قال، بينما هو غير مبالٍ، وكأنه لم يقل شيئا؟ وإنْ خفّفَ من ذلك تنبيهُ النعمان

للعاهل الفارسى منذ البداية إلى خشونة رسله وتعليق كسرى فى النهاية بأنه إنما يصفح عما فى كلامهم من جفاء وخشونة لما يعلمه عنهم من قلة خبرتهم بمخاطبة الملوك. وبالمناسبة فخُطَب أشراف العرب فى قصتنا هذه قد صُبَّتْ فى لغة أقرب إلى الترسُّل منها إلى السجع، وهذا هو الأقرب أن يكون فى مثل ذلك الموقف وتلك الظروف. وفى نهاية التحليل نقول إنه ليغلب على الظن أن يكون لهذه القصة أصل تاريخى وأنها قد وصلت المدوّنين فى العصر العباسى فى خطوطها العامة ثم توسع فيها الرواة فيما بعد، فأضافوا إليها كثيرا من التفاصيل، وجهدوا أن يردّوا، من خلال ما أضافوه، على ما كان الشعوبيون يتنقصّون به العرب فى العصر العباسى ويقلّلون من شأنهم لفتحهم بلادهم وبسطهم سلطانهم عليهم. ولا شك إن إشارة القصة فى بدايتها إلى وجود الترجمان فى تلك المناسبة لَتُشَكِّل لمسة واقعية تزيد مصداقيتها، كما أن ذكر القصة لمعايب العرب وبعض من اشتركوا فى هذا الموقف من خطباء هو مما يعضد الاقتناع بأنها قد وقعت فعلاً على نحو من الأنحاء.

على أن ثَمَّةَ نصوصًا أخرى من الخطب والأحاديث يغلب عليها التكلف فى هندسة العبارة والاستقصاء فى المعنى والتشقيق فى التفاصيل بحيث لا يكاد المتكلم يترك شاردة ولا واردة دون أن يذكرها مما يجعلنا لا نشق فى جاهليتها، كوصف

عصام الكِنْديّة لأم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّـم الشـيباني في الـنص التالي: "لما بلغ الحارثَ بن عمرو مَلِكَ كِنْدَة جمـالُ أم إيـاس بنـت عَوْف بن مُحَلِّم الشيباني وكمالها وقـوة عقلـها أراد أن يتزوجهـا، فدعا امرأةً من كِنْدَة يقال لها: عِصَـام، ذات عقـل ولسـان وأدب وبيان، وقال لها: اذهبي حتى تَعْلَمي لي عِلْمَ ابنـة عـوف. فمضـت حتى انتهت إلى أمها أمامةَ بنت الحارث فأعلمتها مـا قَـدِمَتْ لـه، فأرسلت أمامةُ إلى ابنتها وقالت: أيْ بُنَيّـة، هـذه خالتـك أتـت إليك لتنظر إلى بعض شـأنك، فـلا تسـتري عنـها شـيئا أرادت النظر إليه من وجـه وخلـق، وناطقيهـا فيمـا اسـتنطَقَتْك فيـه. فدخلت عصام عليها فنظرتْ إلى ما لم تر عينُهـا مثلَـه قَـطُّ بهجـة وحسنا وجمالا، فإذا هي أكمل النـاس عقـلا وأفصـحهم لسـانا، فخرجت من عندها وهـي تقـول: تَـرَكَ الخِـداعَ مَـنْ كَشَـفَ القناع، فذهبت مثلا. ثم أقبلتْ إلى الحارث فقـال لهـا: مـا وراءك يا عصام؟ فأرسلها مثلا. قالـت: صَـرَّحَ المَخْـضُ عـن الزبـد، فذهبت مثلا. قال: أخبريني. قالت: أُخْبِرك صـدقًا وحَقًّـا. رأيـتُ جبهة كالمرآة الصـقيلة يزينـها شـعرٌ حالـكٌ كأذنـاب الخيـل المضـفورة، إن أرْسَـلَتْه خِلْتَـه السلاسـل، وإن مَشَـطَتْه قلـتَ: عناقيدُ كَرْمٍ جلاها الوابـل، وحـاجبين كأنهمـا خُطّـا بقلـم، أو سُوِّدَا بحُمَم، قد تقوّسـا علـى عـيني الظبيـة العَبْهَـرَة (البيضـاء الرقيقة البَضّة)، التي لم يَرُعْهـا قـانص ولم يَـذْعَرها قَسْـوَرَة (أي

الأسد)، بينهما أنفٌ كحَدّ السيف المصقول، لم يَخْنسْ به قِصَرٌ ولم يمض به طول، حَفّتْ به وَجْنتان كالأُرْجُوَان، في بياض مَحْضٍ كالجُمَان، شُقَّ فيه فم، كالخاتم لذيذ المُبْتَسَم، فيه ثنايا غُرٌّ ذواتُ أَشَر، وأسنانٌ تبدو كالدُّرَر، وريقٌ كالخمر له نَشْر الروض بالسَّحَر، يتقلب فيه لسان، ذو فصاحة وبيان، يحركه عقل وافر، وجواب حاضر، تلتقي دونه شفتان حمراوان كالورد، يحلبان ريقا كالشهد، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة، رُكِّب في صدرٍ كصدر تمثال دمية، يتصل به عَضُدان ممتلئان لحمًا، مكتنزان شحمًا، وذراعان ليس فيهما عَظْمٌ يُحَسّ، ولا عرْقٌ يُجَسّ، رُكِّبَتْ فيهما كفّان دقيقٌ قَصَبُهما، ليّنٌ عَصَبُهما، تَعْقد إن شئتَ منهما الأنامل، وتُرَكَّب الفصوص في حُفَر المفاصل، وقد تربَّع في صدرها حُقّان كأنهما رمانتان يخرقان عليها ثيابها، تحت ذلك بطنٌ طُوِيَ كطَيِّ القَبَاطي (أي الملابس الرقيقة المُتَّخَذَة من الكَتّان) المُدْمَجَة، كُسِيَ عُكَنًا (العُكَن: ثنيّات البطن) كالقراطيس المُدْرَجَة، تحيط تلك العُكَنُ بسُرَّة كَمُدْهُن العاج المجلوّ، خلْفَ ذلك ظهرٌ كالجدول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر، تحته كَفَلٌ يُقْعِدها إذا نهضتْ، ويُنْهِضها إذا قعدتْ، كأنه دِعْصُ رمْلٍ، لَبَّده سقوط الطل، يحمله فخذان لفّاوان، كأنهما نَضِيد الجُمَان، تحتهما ساقان خَدْلَتان، كالبَرْديّ وُشِّيَتا بشعرٍ أسود، كأنه حلَق الزَّرَد، يحمل

ذلك قدمان، كحَذْو اللسان، فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما فوقهما؟ فأما ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنَظْمٍ أو نَثْر. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوَّجه إياها".

إن هذا لَبكتابة تقرير فنى فى مسابقات العهر (التى يسمونها زورا بـ"مسابقات ملكات الجمال") يضع نُصْبَ عينيه تقديم وصف تفصيلى لكل ملمح أو عضو من أعضاء الفتاة المشتركة فى تلك المسابقات أشبهُ منه بحديثِ خاطبةٍ إلى ملك من ملوك العرب فى تلك العصور، وبخاصة أن الوصف لم يتنزه عن تناول أشد مناطق الجسد حساسية مما من شأنه إثارة غيرة الرجل الكريم حتى لو كان المقصود هو البحث له عن زوجة تمتعه وتَسُرّه! وفضلا عن ذلك فإنى لا أظن أن امرأة عربية فى تلك العصور كانت ترضى بأن تتجرد من ملابسها وتذهب فتستعرض مفاتنها الداخلية على هذا النحو ولا حتى أمام أمها! والطريف أنه، بعد كل ما قالته المرأة الكِنْدِيّة فى وصف جمال الفتاة، تعود فتقول: "فأما ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر". فهل تراها تركتْ شيئا لم تصفه مما يحتاج الرجل معرفته عن المرأة التى يبغى خِطْبَتها؟ ثم إن مقدمة النص تقول إن "الحارثَ بن عمرو ملك كِنْدَة قد بلغه جمالُ أم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم

الشيباني وكمالها وقوة عقلها"، أى أنه كان على علم بجمالها وكمالها، فما معنى كل هذا الوصف الدقيق المفصَّل الذى لا يدل إلا على شيء واحد: أنه لم يكن يعرف عن الفتاة شيئا؟ وإلى جانب هذا لا ينبغى أن ننسى أن تعبيرات مثل "خلْفَ ذلك ظهرٌ كالجدول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر"، "فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما فوقهما؟" لا تصدر غالبا إلا عن مسلم فى العصر العباسى فنازلاً حين كان الأدباء يستخدمون مثل هذه العبارات الماجنة التى يُوهِم ظاهرُها بالتدين رغم ذلك، وهو مجون تشفّ عنه العبارة التالية بدورها أحسن شَفّ: "تحته كَفَلٌ يُقْعِدها إذا نهضتْ، ويُنْهِضها إذا قعدتْ"، فضلا عما فيها من ترفٍ فى تذوق الجمال النسائى لم يكن يعرفه الجاهليون، إلى جانب التلاعب البديعيّ المعقّد الذى لم يكن لهم به عهد، إذ فيها موازنة ومقابلة وسجع وتورية ورَدٌّ للأعجاز على الصدور فى وقت معا. وهناك أيضا المقابلة بين "النظم والنثر" فى الجملة التالية التى وردت قرب نهاية النص: "غير أنه أحسنُ ما وصفه واصفٌ بنَظْمٍ أو نَثْر" بما يدل على الشمول مما لم يكن الجاهليون يعرفونه فى تعبيراتهم، بل إننى لا أظنهم كانوا يستخدمون هاتين الكلمتين بالمعنى الاصطلاحى الذى عُرِفَتا به فى دنيا الأدب والنقد فيما بعد!

كذلك من حق الباحث أن يتساءل فيما يخص هذه القصة ذاتها فى مرحلتها اللاحقة قائلاً: أمن المعقول أن أمًّا من الأمهات حين تريد أن تنصح بنتها فى ليلة زفافها تلجأ إلى مثل هذه العبارات المسجوعة المجنَّسة المتوازنة (رغم ما فى السجع والجناس والتوازن هنا من بساطة) كما فى النص التالى الذى تخاطب فيه أمامةُ بنت الحارث بنتَها أم إياس التى مر بنا آنفا وصف عصام الكندية العجيب لها؟: "أيْ بُنَيَّة، إن الوصية لو تُركَتْ لفَضْل أدب تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امرأةً استغنتْ عن الزوج لغَنَى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهنّ خُلِق الرجال. أيْ بُنَيَّة، إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْت، وخلَّفْت العُشّ الذي فيه دَرَجْت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بمُلْكه عليك رقيبًا ومَليكًا، فكوني له أَمَةً يكن لك عبدًا وشيكا. يا بُنَيَّة، احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحُسْن، والماء أطيب الطِّيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهُدُوّ عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع مَلْهَبة، وتنغيص النوم مَغْضَبة، والاحتفاظ ببيته وماله،

والإرعاء على نفسه وحَشَمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحَشَم جميل حسن التدبير. ولا تفشي له سرا، ولا تعصي له أمرا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوْغَرْت صدره. ثم اتَّقي مع ذلك الفرحَ إن كان تَرِحًا، والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحًا، فإن الخَصْلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافَقَة، يكن أطول ما تكونين له مرافَقَة. واعلمي أنك لا تَصِلين إلى ما تحبين حتى تُؤْثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهتِ، والله يَخير لك". لا أظن أن الأم، حتى لو كانت أديبة، يمكن أن تنهج فى حديثها الشفوى المباشر مع ابنتها هذا النهج، بخلاف ما لو قصدت أن تُخَلِّف وراءها عملا من الأعمال الأدبية التى تبقى على مدى الزمان، فإنها حينئذ تحتشد لذلك وتجتهد فى كتابة نصيحة محبَّرة موشَّاة لبنتها ولكل بنات العالمين، وكذلك للقراء والأدباء أيضا، على مدار الدهر، لكن هذا شىء آخر غير ما نحن بسبيله الآن. أم ترى هناك من يقول معترضًا: ومن أدراك بأن تلك الأم لم تُرِدْ ذلك ولم تفعله، وبخاصة أننا هنا إزاء مَلِك وزوجته وحماته لا ناسٍ من عُرْض الطريق؟ على كل حال فإنى معجبٌ إعجابًا شديدًا بكلام الأم وأجده يرن فى سمعى

رنين الذهب، ويهَشّ قلبي إليه هَشَاشَ الأرض العطشى لوابل الغيث المُحْيِى!

والواقع أن انشغالى بمسألة بروز السجع والجناس وما إليه فى كثير من خطب الجاهليين سَبَبُه افتقادى لذلك فى نظيراتها من خُطَب الرسول والخلفاء الراشدين، اللهم إلا ما جاء عَفْوًا بين الحين والحين. فلماذا كان كثير من الخُطَب التى وردتنا عن عصر ما قبل الإسلام على هذا النحو من الاهتمام بالسجع والجناس والتوازن بخلاف ما عليه الخُطَب فى صدر الإسلام بوجه عام، فضلا عن أن السجع والمحسنات البديعية فيها كانت، كما يُفْهَم من الرواية، أمرا ارتجاليًّا؟ فهل يستطيع الخطباء، وبالذات فى ذلك العصر قبل أن يلتفت العرب إلى هذه التزاويق ويصبح الحرص عليها جزءا من التركيبة الذهنية الإبداعية عندهم، أن يرتجلوا كلاما مُحَسَّنا بالبديع على هذا النحو الذى نراه فى عدد من الخطب الجاهلية؟ هذه هى النقطة التى تحيك فى صدرى بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التى يؤدى إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ. أيكون المسلمون الأوائل قد نفروا من الجرى خلف السجع بسبب ارتباطه بالكهان؟ أتراهم كانوا يُلْقُون بكل ثقلهم وراء المضمون والوصول به إلى الإقناع وتحويله إلى واقع

تطبيقى بدلا من المتعة الفنية المتمثلة هنا فى البـديع فى حـد ذاتهـا، إذ كانوا بصدد تكوين دولة تضـم العـرب جميعـا لأول مـرة فى تاريخهم المعروف، ثم بصدد صـراع ضـارٍ مـع القـوى العالميـة الكبرى حولهم، صراع حياة أو موت، فلم يكـن لـديهم الوقـت ولا البـال للاهتمـام بالسـجع والمحسـنات البديعيـة؟ أتـرى الجاهليين، وهم الأميون، كانوا يعوّلـون علـى موسـيقى السـجع والجناس والتوازن لتسهيل حفـظ النصـوص النثريـة كالخطـب والمنافرات؟ مرة أخرى أجدنى أقول: هذه هى النقطـة الـتى تحيـك فى صدرى بالنسبة لصحة نصـوص الخطـب الجاهليـة، أمـا مـا سوى ذلك من ملاحظات فما أسـهل التعامـل معهـا والخـروج منها بالنتائج التى يؤدى إليها المنطق كما رأينـا فيمـا مـرّ. ومـع ذلك فها هو ذا الجاحظ يقـرر أن العـرب فى جاهليتـهم كـانوا يعتمدون السجع فى بعض ضروب الخطابـة كالمنـافرة والمفـاخرة، والترسُّل فى بعضها الآخر كمـا هـو الحـال فى خطـب الصـلح والمعاهدات (الجاحظ/ البيـان والتبـيين/ مطبعـة لجنـة التـأليف والترجمة والنشـر/ ١/ ٢٨٩- ٢٩٠، و٣/ ٦)، وهـو مـا يـدل على أنه لا يجد فيها شيئا مما يحيك فى صدرى تجـاه هـذه المسـألة. وأحسب أن موقف الجاحظ أحـرى بـالقبول مـن مـوقفى لأنـه كان أعرف بالأدب العربى قبل الإسلام مـن واحـد مثلـى لقربـه من عصر الجاهلية ومعرفته الموسـوعية بالثقافـة العربيـة وآدابهـا

كما هو معلوم للجميع، فوق أنه كان أديبا كبيرا، وبلاغيا عجيبا، وناقدا ذواقة للكلام، ودارسا ومحللا للنصوص والأساليب من الطراز الأول، ومتكلما يصعب أن يوجد له نظيرٌ مُسَامِت.

هذا، وقد وردتْنا عن الجاهليين ضروب من الخطب المختلفة الموضوعات صحيحة كانت أو مصنوعة: فمنها الخطب الوعظية كخُطَب قُسّ بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ، وخطب الصلح بين المتخاصمين كخطبة مَرْثَد الخير فى الإصلاح بين سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب. ومنها خطب التعزية كتلك التى عزَّتْ بها وفودُ العرب سلامةَ ذا فائش فى موت ابنه، وكان من بين المتكلمين يومها الملبَّب بن عوف وجعادة بن أفلح، وكذلك خطبة أكثم بن صيفى فى تعزية عمرو بن هند فى ابن أخيه. ثم خطب النكاح كالخُطْبة التى ألقاها أبو طالب فى خِطْبَة خديجة لمحمد ابن أخيه، وتلك التى قالها عامر بن الظَّرِب حين خُطِبت ابنته. ومنها خُطَب المنافرات كتلك التى تبودلت بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطُّفَيْل العامريين. ومنها خطب السفارات، كما هو الحال فى مجموعة الخطب التى خطبها بعض رؤساء العرب فى حضرة كسرى فى إيوانه. ومنها خطب الكهان والكواهن التى يتنبأون فيها بالغيب حسبما كانوا يعتقدون. ومنها خطب الوصايا كتلك الخطبة

التى ألقاها ذو الإصبع العَدْوانىّ على ابنــه، ونظيرتهــا الــتى ألقاهــا قيس بن زهير على بنى النمر بن قاسط، وكــذلك الخطبــة الرائعــة التى يقال إن أمامة بنت الحارث قد وصَّــتْ بهــا ابنتَهــا أُمَّ إيــاس عند زفافها على الحارث بن عمــرو مَلِــك كِنْــدَة... إلخ. وكــان العرب يخطبون فى الأسواق والمجــالس والقصــور الملكيــة وعنــد الكعبة وعلى نَشَزٍ من الأرض وفى الحرب. كمــا كــانوا يخطبــون وقوفًا، وعلــى الرواحــل، أو مســندين ظهــورهم إلى الكعبــة... وهكذا. وكان من عادتهم فى الخطابة، كما ألمعنا مــن قبــل، لُــبْس العمامة والإمساك بالعصا، تلك العــادة الــتى عمــل الشــعوبيون على التنقص منها والإزراء على العــرب بســببها، فتصــدى لهــم الجاحظ مبيّنًا فضل العصا فى صفحات طويلة انثــال عليــه الكــلام فيه انثيالا فى كتابه: "البيان والتبيين". وقد مر بنــا أثنــاء دراســتنا لهذا الفن عند الجاهليين طائفــة مــن مشــاهير خطبــائهم، وهــذه أسماء طائفة أخرى منهم: سهيل بــن عمــرو وعتبــة بــن ربيعــة وقيس بن الشماس وسعد بن الربيع وهانئ بن قبيصــة وزهــير بــن جناب وربيعة بن حُذَار ولبيد بن ربيعة وهرم بــن قطبــة الفــزارى وعمرو بن كلثوم التغلبى وحنظلة بن ضرار الضَّبّىّ.

والآن أترك القارئ مــع هــذه النصــوص الخطابيــة الــتى وصلتنا عن ذلك العصر: فمنها خطبة مرثــد الخــير الــتى ســلفت الإشارة إليها آنفا، وهذا نصــها: "إن التخــبط وامتطــاء الهَجَــاج

(أي العناد وركوب الـرأس)، واسـتحقاب اللّجَـاج، سـيقفكما على شَفَا هُوّة في تورُّدِهـا بـوار الأصـيلة، وانقطـاع الوسـيلة، فتلافَيَا أمركما قبل انتكـاث العَهْـد، وانحـلال العَقْـد، وتشـتت الألفة، وتباين السُّهْمة (أي القرابـة)، وأنتمـا في فسـحة رافهـة، وقدمٍ واطدة، والمودَّة مُثرِيَة، والبُقْيَا مُعْرِضَـة. فقـد عـرفتم أنبـاء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصـيح، وخـالف الرشـيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقـب سـوء سـعيهم، وكيف كان صُيُور أمورهم. فتلافَوُا القُرْحَـة قبـل تفـاقم الثّـأي (أي قبل انتشار الفساد) واستفحال الداء، وإعـواز الـدواء. فإنـه إذا سُفِكَت الـدماء، اسـتحكمت الشـحناء، وإذا اسـتحكمت الشحناء، تقضَّبَتْ عُرَى الإبقاء، وشمل البلاء".

ومنها خطبة قُسّ بـن سـاعدة الإيـاديّ في سـوق عكـاظ يلفت أنظار السامعين إلى صروف الدهر وما ينبغـي أن يعتـبر بـه العاقل: "أيها الناس، اسمعوا وَعُوا: من عـاش مـات، ومـن مـات فات، وكل ما هو آتٍ آت. ليلٌ داجٍ، ونهـارٌ سـاجٍ، وسمـاءٌ ذات أبراجٍ، ونجـومٌ تَزْهَـر، وبحـارٌ تَزْخَـر، وجبـالٌ مُرْسَـاة، وأرضٌ مُدْحاة، وأنهـارٌ مُجْـرَاة. إن في السـماء لَخَبَـرًا، وإن في الأرض لَعِبَرًا. ما بال الناس يـذهبون ولا يرجعـون؟ أَرَضُـوا فأقـاموا أم تُرِكوا فناموا؟ يُقْسِم قُسٌّ بالله قَسَـمًا لا إثم فيـه إن لله دينـا هـو

أرْضَى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه. إنكم لتأتون من الأمر منكرا". ويُرْوَي أن قُسًّا أنشأ بعد ذلك يقول:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائرْ
لما رأيتُ مواردًا للموت ليس لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغرْ
لا يرجع الماضي إليَّ ولا من الباقين غابرْ
أيقنتُ أني لا محالة حيث صار القوم صائرْ

ومنها كذلك خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشا على إكرام حجاج البيت الحرام: "كان هاشم بن عبد مناف يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشا فيقول: يا معشر قريش، أنتم سادة العرب: أحسنها وجوها، وأعظمها أحلاما، وأوسطها أنسابا، وأقربها أرحاما. يا معشر قريش، أنتم جيران بيت الله: أكرمكم بولايته، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره. فأكرموا ضيفه وزوار بيته، فإنهم يأتونكم شُعْثًا غُبْرًا من كل بلد. فوَرَبِّ هذه البَنيَّة لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتُكموه. ألا وإني مخرجٌ من طيِّب مالي وحلاله ما لم يُقْطَع فيه رَحِم، ولم يُؤْخَذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام، فواضِعُه. فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فَعَل، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يُخرِج رجل منكم من ماله

لكرامة زوار بيت الله ومعونتـهم إلا طيِّبًا: لم يؤخذ ظلمًا، ولم يُقطَع في رحم، ولم يُغتصَب".

ومنها هذه الكلمة التى نَفَّرَ فيها نُفَيلُ بن عبد العُزَّى (جدُّ عمر بن الخطاب) عبدَ المطلب (جَدَّ الرسول) على حرب بن أمية: "تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة فأبى أن يُنَفِّر بينهما فجعلا بينهما نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رياح، فقال لحرب: يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوْسَم منك وسامة، وأقلّ منك ملامة، وأكثر منك ولدا، وأجْزَل صَفَدا (أى أكثر عطاءً)، وأطول منك مِذْوَدا (أقوى لسانا). وإني لأقول هذا، وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جَلْد المريرة، جليل العشيرة، ولكنك نافرت مُنَفَّرًا. فغضب حرب وقال: إن من انتكاس الزمان أن جُعِلْتَ حَكَمًا".

ومنها وصية ذى الإصبع العَدْوانىّ لابنه عند إشرافه على الموت: "يا بُنَىّ، إن أباك قد فَنِىَ وهو حىّ، وعاش حتى سئم العيش، وإني مُوصيك بما إن حفظتَه بلغتَ في قومك ما بلغتُه، فاحفظ عنى: ألِنْ جانبك لقومك يحبوك، وتواضعْ لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشئ يُسَوِّدوك (أى يجعلوك سيّدا عليهم). وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم. واسمح بمالك،

واحْمِ حريمك، وأعزز جارك، وأَعِنْ مـــن اســـتعان بـــك، وأكـــرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ، فإن لـــك أَجَـــلاً لا يَعْـــدُوك، وصُنْ وجهك عن مسألة أحد شيئا، فبذلك يتم سُؤْدَدُك".



المجتمع الجاهلي من القرآن

كان عرب الجاهلية فى عمـومهم يعبـدون آلهـة متعـددة، وكانوا لا يتصورون أن يكـون الإلـه واحـدا، وعنـدما جـاءهم الرسول الكريم بالتوحيد لقى منهم التكـذيب والعنـت الشـديد، وأخذ الأمرُ منه زمنا طويلا حتى اقتنعوا أخيرا بما جـاءهم بـه. بـل إنه، بعد أن أنفق فى الدعوة بمكة ثلاث عشـرة سـنة بـذل فيهـا كل جهد ممكن وغير ممكن وتعـب تعبًـا بالغًـا، لم يـؤمن بـه إلا القليلون مما اضطره هو ومن آمن معه من أهـل مكـة إلى الهجـرة ليثرب، وعندئذ تغير وجه المسيرة الدعويـة، وانتـهى الأمـر بـأن أسلمت الجزيرة العربية كلها لا مكة فحسـب. وكـانوا فى بـداءة الأمر يستغربون منه، عليه السلام، أن يهـاجم الأوثـان ويغضـبون لذلك أعنف الغضب، بل لقد فكر مشـركو مكـة فى قتلـه أو فى حبسه لولا أن نبهه الله سبحانه وأمره بتـرك موطنـه والـتروح إلى بلد جديد يكون فيه مصير الـدعوة الجديـدة أكثـر توفيقـا: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِـكَ الَّـذِينَ كَفَـرُوا لِيُثْبِتُـوكَ أَوْ يَقْتُلُـوكَ أَوْ يُخْرِجُـوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْـرُ الْمَـاكِرِينَ" (الأنفـال/ ٣٠). ومما نزل من الوحى فى هذا الموضوع قوله تعـالى: "أَجَعَـلَ الآلِهَـةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَـيْءٌ عُجَـابٌ* وَانْطَلَـقَ الْمَـلأُ مِـنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَـتِكُمْ إِنَّ هَـذَا لَشَـيْءٌ يُـرَادُ" (ص/ ٥- ٦). وسبب نزول هاتين الآيتين، على مـا ترويـه كتـب أسـباب

النزول والتفاسير، أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شَقَّ ذلك على قريش فأَتَوْا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك. فاستَحْضَرَ أبو طالب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال: هؤلاء قومك يسألونك السَّوَاء، فلا تَمِلْ كل الميل عليهم. فقال صلى الله عليه وسلم: ماذا يسألونني؟ فقالوا: ارفضنا وارفض ذِكْر آلهتنا (أي اتركنا ولا تتعرض لنا ولا لها)، وندَعك وإلهك. فقال: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم، أَمُعْطِيَّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتَدين لكم بها العجم؟ فقالوا: نَعَمْ، وعَشْرًا. فقال: قولوا: لا إله إلا الله. فقاموا وقالوا: "أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ!". وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعدما بكَّتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين بعضهم لبعض: اصبروا واثبتوا على عبادة آلهتكم، فإن مكالمته لا تنفعكم. إن هذا الأمر لَشَيْءٌ من ريب الزمان يراد بنا فلا مردّ له، أو إن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة والترفع على العرب والعجم لشيءٌ يريده كل أحد، أو إن دينكم لشيءٌ يُطْلَب ليؤخذ منكم. ما سمعنا بالذي يقوله في الملة التي أدركْنا عليها آباءنا، أو في ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الملل، فإن النصارى يثلّثون. ما هذا إلا كذبٌ اختلقه محمد. وهناك خبر

آخر يبين لنا مدى تمسك الكفار بأوثانهم وكراهيتهم أن يسمعوا فيها شيئا يخالف اعتقاداتهم بشأنها. وخلاصته، كما جاء عند الواحدى فى "أسباب النزول"، أن "خمسة نَفَر: عبد الله بن أبي أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ائْتِ بقرآن ليس فيه تَرْكُ عبادة اللات والعُزَّى". وجاء أيضا فى ذلك الكتاب ذاته أن "وفد ثقيف أَتَوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فسألوا شططًا وقالوا: متِّعْنا باللات سَنَةً، وحَرِّمْ وادينا كما حَرَّمْتَ مكةَ: شجرها وطيرها ووحشها. فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وقد تتالت الآيات التى تنبههم إلى سخف هذا اللون من التفكير والاعتقاد، لكنّ تشبُّثهم بما فى رؤوسهم كان عنيفا، وهذا يفسر التكرار الكثير لدعوة التوحيد فى القرآن الكريم والحملة على الشرك: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا به شَيْئًا" (الأنعام/ ١٥١)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُون اللَّه مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّه قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس/ ١٨)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُون اللَّه آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا" (مريم/٨١)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِه آلِهَةً

لا يَخلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخلَقُونَ وَلا يَملِكُونَ لأنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفعًا وَلا يَملِكُونَ مَوتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا" (الفرقان/ ٣)، "وَلا تَجعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" (الذاريات/٥١)... إلخ. وقد كانوا مع ذلك يؤمنون بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر ونزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها: "وَلَئِن سَأَلتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤفَكُونَ" (العنكبوت/٦١)، "وَلَئِن سَأَلتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكثَرُهُمْ لا يَعقِلُونَ" (العنكبوت/ ٦٣)، "وَلَئِن سَأَلتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ" (الزخرف/ ٩). ومع ذلك فـ"إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَستَكبِرُونَ* وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجنُونٍ" (الصافات/ ٣٥)، "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَستَبشِرُونَ" (الزمر/٤٣- ٤٥)، إذ كانوا يعتقدون أنهم شفعاؤهم عنده سبحانه وأنهم هم الذين يقرّبونهم إلى الله زُلْفَى: "وَيَعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشرِكُونَ"

(يونس/ ١٨)، "مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" (الزمر/ ٣).

وكان القرآن الكريم ينبههم دائما أن أولئك الآلهة المزعومين لا يملكون لهم شيئا من نفع أو ضر، وأن الشفاعة إنما هى لله وحده، ليس للأوثان منها أىّ نصيب: "وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ* وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ" (الأنعام/ ٩٣- ٩٤)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس/ ١٨)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا" (الفرقان/ ٣)، "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (الروم/ ١٢- ١٣)، "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ * قُلْ

لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (الزُّمَر/٤٣).

وكان من أوثانهم اللات والعُزَّى ومناة، وقد تهكم القرآن على شركهم وعقليتهم المتخلفة التى تسوِّل لهم أن هذه الأوثان هى بنات الله: "أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى* أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى" (النجم/ ١٩- ٢١). وتناول المفسرون اللاّت والعُزَّى ومناة فقالوا إن اللات كانت لثقيف بالطائف (وقيل: بنخلة) تعبدها قريش، وأوردوا ما يقال من أنها سُمِّيَتْ باسم رجل كان يَلُتّ عندها السمن بالسَّويق بالطائف ويُطْعمه الحاجّ، وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثنا. أما العُزَّى فكانت لغطفان، وهي شجرةُ سَمُرَة، وبَعَثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليها بعد الفتح خالدَ بنَ الوليد فقطعها، فخرجت منها، كما تقول بعض الروايات، شيطانة منشورة الشعر تصيح: يا ويلاه، وهي واضعة يدها على رأسها، فجعل يضرب بالسيف حتى قتلها، ورجع فأخبر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام: تلك العُزَى، ولن تُعْبَد أبدا. وأما مَنَاة: فصخرة كانت لُهَذْيل وخُزَاعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت لثقيف. وكأنها سُمِّيَتْ: "مناة" لأنّ دماء النسائك كانت تُمْنَى عندها، أي تُرَاق. وجاء فى "أسباب النزول" للواحدى أن "الأنصار كانوا يحجّون لمناة،

وكانت مناة حَذْوَ قُدَيْد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة".

وكانت هناك أوثان أخرى ذكرت أسبابُ النزول اثنين منها هما إساف ونائلة، اللذان تقول الروايات إنهما كانا على الصفا والمروة على الترتيب. يقول الواحدى: "كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له: إساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تُدْعَى: نائلة. فزعم أهل الكتاب أنهما زَنَيَا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ووضعهما على الصفا والمروة ليُعْتَبَر بهما. فلما طالت المدة عُبِدَا من دون الله تعالى، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مَسَحوا الوَثَنَيْن". وكان المشركون يقولون إنّ هذه الأصنام هى بنات الله، وكانوا يعبدونها ويزعمون أنها شفعاؤهم عند الله تعالى رغم نفورهم من البنات ووأدهم لهن، فقيل لهم: "ألكُمُ الذَّكرُ ولهُ الأُنثى؟"، إذ كانوا، كما قلنا، يكرهون خِلْفَة الإناث، فأراد الله أن يَلْفتهم إلى سخافة تفكيرهم وحُمْق تصرفهم حين ينسبون إليه الإناث اللاتى يكرهونهن بل يقتلونهن أحيانا، ثم يختصون أنفسهم بالذُّكْران!

على أن هذه الأصنام ليست هى وحدها بنات الله وشركاءه، بل هناك الجن والملائكة أيضا: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يَصِفُونَ" (الأنعام/ ١٠٠)، "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ* لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ" (الأنبياء/٢٦- ٢٨)، "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سبأ/ ٤٠- ٤١)، "فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ* أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ* أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ* وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ* أَفَلا تَذَكَّرُونَ* أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ* فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ" (الصافات/ ١٤٩- ١٥٨)، "وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ* أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ* وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ" (الزخرف/ ١٥- ١٩)، وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" (الذاريات/ ٥١)، "أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ" (الطور/

٣٩)، "إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى" (النجم/ ٢٧).

وقيل إن المقصود فى آية "الأنعام" ليس الجن بل الملائكة، الذين عبدهم عرب الجاهلية قائلين إنهم بنات الله، وقد سماهم القرآن: "جِنًّا" لاجتنانهم (أى لاختفائهم)، تحقيرا لشأنهم. وقيل: بل المقصود بـ"الجن" الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو لأنهم كانوا يقولون إن الله خالق الخير وكلّ ما هو نافع، والشيطان خالق الشر وكلّ ما هو ضارّ. وبقريب من هذا فسَّر ابن الكلبى النص القرآنى، إذ قال حسبما نقل الواحدى: "نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله تعالى وإبليس أخوان، والله خالق الناس والدوابّ، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب". وقد حاول الزمخشرى، فى تفسيره لآيات "الصافات"، أن يسوِّغ تسمية الملائكة: "جِنًّا" بقوله إن جنس الملائكة والشياطين واحد، وهو جنس الجن، "ولكنَّ مَنْ خَبُثَ من الجن ومَرَدَ وكان شرًّا كله فهو شيطان، ومن طَهُرَ منهم ونَسُكَ وكان خيرًا كله فهو مَلَك. فذَكَرَهم في هذا الموضع باسم جنسهم، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعًا منهم وتقصيرًا بهم".

أما أنا فأرى أن الجن هنا إنما هم الجن الذين نعرفهم لا الملائكة، وليس هناك أى دليل على أن الجن فى هذه الآية أو

فى أى موضع آخر من القرآن المجيد هـم الملائكـة. وإن فى القـول بذلك لَخَلْطًا بـين الألفـاظ والمفـاهيم يفسـد تفسـير القـرآن إفسادا. ثم لماذا يحقّر القرآن الملائكـة، وهـم عبـاد مُكْرَمـون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلـون مـا يـؤمَرون ولا يعرفـون معـنى الاستكبار حسبما وصفهم الله سـبحانه فى الآيـة ٥٠ مـن سـورة "النحل" والآيتين ٢٦- ٢٧ من سورة "الأنبيـاء"، ولا ذنـب لهـم فى أن العرب كانوا يشركونهم بالله؟ كما أن قولـه تعـالى: "وَيَـوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُـمَّ يَقُـولُ لِلْمَلائِكَـة أَهَـؤُلاءِ إِيَّـاكُمْ كَـانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَـلْ كَـانُوا يَعْبُـدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سـبأ/ ٤٠- ٤١) هـو أكـبر دليـل على أن الجن شيء، والملائكة شيء آخر، فهـا هـم أولاء الملائكـة تنكر أن يكون المشركون قد عبدوهم، وتؤكـد فى الوقـت ذاتـه أنهم إنما كانوا يعبدون الجن، بما يعنى أن كلا منـهما فريـق مختلـف تماما عن الفريق الآخر. وليس بعـد قـول لله قـول! ثم إن الجـن مكلَّفون، أما الملائكة فهم لا يعصون الله فى شيء، ممـا يـدل علـى أنهم غـير داخلـين فى التكليـف، وإلا لكـان منـهم المطيعـون والعصاة، فضلا عن أن الجن مخلوقون مـن نـار حسـبما صـرَّح القرآن الكريم، والملائكة ليسـوا كـذلك. ومعـنى قولـه تعـالى: "وخَرَقوا له بنين وبنات بغير علـم" أنهـم افْتَـرَوْا بجهـلٍ فـاحشٍ زاعمين أن له سبحانه بنين وبنات، فقالـت اليهـود: عُزَيْـرٌ ابـن

الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله. وكان "بنو مليح يعبدون الملائكة" كما جاء على لسان ابن الزِّبَعْرَى فى سبب نزول قوله تعالى: "إنَّكُم وَمَا تَعبُدونَ من دونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أنتُم لَها وارِدونَ". وكان الجن فى نظرهم يعلمون الغيب، ولهذا حكى القرآن الكريم قصتهم مع سليمان عليه السلام وكيف أنهم ظلوا يعملون فى السخرة تحت إمرته حتى بعد أن مات، إذ كانوا يَرَوْنَه مستندا بذقنه إلى العصا فيحسبون أنه لا يزال حيا، إلى أن أكلت النمل العصا فخرّ عليه السلام. فعندئذ، وعندئذ فقط، عرفوا أنه قد مات. ولو كانوا يعلمون الغيب ما ظلوا يعملون ويقاسون فى تلك السخرة العذاب المهين: "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِه إلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ منسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ" (سبأ/ ١٤).

ولم يكن جمهور العرب يؤمنون بالآخرة، فلا بعث عندهم ولا حساب، وليس إلا الدنيا، التى إذا ما انتهت فقد انتهى كل شيء بالنسبة للإنسان. وكانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون مَلَك الموت وقَبْضَ الأرواح بأمر الله. وكانوا يضيفون كل حادثة تَحْدُث إلى الدهر والزمان، فالدهر يُفْنى ولا يعيد من يُفْنيه. وكانوا يجادلون النبى

فى ذلك مجادلة لا تنتهى، محتجين بأنه من غير الممكن أن يعود الإنسان إلى الحياة كرة أخرى بعد أن يصبح عظاما ورُفاتا، وإلا فأين آباؤهم الأولون؟ ولماذا لم يرجعوا إلى الحياة من قبل؟ وإذا كانت هناك آخرة فلماذا لا تأتى؟ وإن كثرة الآيات التى تتناول هذا الموضوع وتعرض جدالهم وسَخَرهم بما كانوا يسمعون من الآيات القرآنية التى تتحدث عن البعث لدليل على أن نكرانهم كان من القوة والحدة بمكان: "وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا* قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا* أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا" (الإسراء/٤٩- ٥١)، "وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا" (مريم/ ٦٦)، "يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ

اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ" (الحج/ ٥- ٧)، "قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ" (النمل/ ٨٢- ٨٣)، "بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا" (الفرقان/ ١١)، "وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" (السجدة/ ١٠)، "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" (سبأ/ ٣)، "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ" (الصافات/ ١٦- ١٧)، "إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ* إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ* فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الدخان/ ٣٤- ٣٦)، "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ* وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجاثية/ ٢٤- ٢٥)، "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ" (ق/ ٣)، "قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ* يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ" (الذاريات/ ١٠- ١٢)، "زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (التغابن/ ٧)، "يَقُولُونَ أَئِنَّا

لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ* أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً* قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ" (النازعات/ ١٠- ١٢).

ومما رُوِىَ عن الكفار فى هذا المجال "أن أبي بن خلف أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم بالٍ يفتّته بيده، وقال: أترى الله يُحْيِى هذا بعدما رُمّ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: نَعَمْ، ويبعثك ويدخلك النار". كما رُوِىَ أن عُتْبَة وشَيْبَة وأبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا البَخْتَرِيّ والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تُعْذَروا به. فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم سريعا وهو يظن أنه بدا في أمره بَدَاء (أى غيروا موقفهم منه)، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه تعنُّتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا والله لا نَعْلَم رجلاً من العرب أَدْخَلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك. لقد شتمت الآباء وعبْتَ الدين وسَفَّهْتَ الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، وما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت به لتطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سَوَّدْناك علينا، وإن كنت تريد مُلْكًا ملَّكْناك علينا، وإن كان هذا الرَّئِيُّ الذي يأتيك تراه قد غلب

عليك (وكانوا يسمّون التابع من الجن: الرَّئيّ) بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه أو نُعذَر فيك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بي ما تقولون. ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله عز وجل بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليَّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلّغتُكم رسالة ربي ونصحتُ لكم. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبِر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم. قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غير قابل منا ما عرضْنا فقد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضْيَق بلادا ولا أقلّ مالاً ولا أشدّ عيشا منا. سَلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك، فلْيُسَيِّرْ عنا هذه الجبال التي ضيّقَتْ علينا ويبسط لنا بلادنا ويُجْرِ فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن ممن يُبْعَث لنا منهم قُصَيّ بن كلاب، فإنه كان شيخًا صَدُوقًا، فنسألهم عما تقول: حَقٌّ هو؟ فإن صنعتَ ما سألناك صدَّقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول". ووجه الشاهد فى الخبر أنهم تحدَّوْه، ضمن ما تحدَّوْه به، أن يأتي لهم بمن مات من آبائهم، وعلى رأسهم جَدّه قُصَيّ بن كلاب، إذ كانوا، كما قلنا، يَرَوْنَ استحالة عودة الميت إلى

الحياة، أما من يقول بغير هذا فعليــه أن يُثْبِــت مــا يقــول ويعيــد الموتى إلى الدنيا كرة أخرى!

وثمة خبر فى "أسـباب الـنزول" للواحـدى يفسّـر سـبب نزول قوله عز وجل: "وَأَقسَموا بِاللهِ جَهـدَ أَيمـانِهِم لا يَبعَـثُ اللهُ مَن يَموتُ"، وفيه أنه "كان لرجل من المسـلمين علـى رجـل مـن المشركين دَيْن فأتاه يتقاضـاه، فكـان فيمـا تكلّـم بـه: والـذي أرجوه بعد الموت. فقال المشرك: وإنك لتزعم إنـك لَتُبْعَـث بعـد الموت؟ فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فـأنزل الله تعـالى هـذه الآية". وكانوا يتهكمون بما ينزل بـه القـرآن فى أوصـاف الجنـة والنار، كالذى يُرْوَى عن أبى جهل من أنـه "لمـا ذكـر الله تعـالى الزَّقُّوم خُوِّف به هذا الحي من قـريش، فقـال أبـو جهـل: هـل تدرون ما هذا الزقوم الـذي يخـوفكم بـه محمـد...؟ قـالوا: لا. قال: الثَّريد بالزبد! أمَا والله لئن أمكننـا منـها لنَتَزَقَّمَنَّهـا تَزَقُّمـا. فأنزل الله تبارك وتعالى: "وَالشَجَرَةَ المَلعُونَـةَ فِي القُـرآنِ وَنُخَـوِّفُهُم فَما يَزيدُهُم إِلا طُغيانًا كَبيرًا"...". ومن هـذا الـوادى أيضـا مـا جاء فى بعض الروايات مـن أن "خَبّـاب بـن الأَرَتّ كـان قَيْنـا، وكان يعمل للعاص بن وائـل السَّـهْمِيّ، وكـان العـاص يـؤخر حقه، فأتاه يتقاضاه، فقال العاص: ما عنـدي اليـوم مـا أَقْضِـيك. فقال: لستُ بمفارقك حتى تقضيني. فقـال العـاص: يـا خبـاب، مالك؟ ما كنـتَ هكـذا! وإنْ كنـتَ لَتُحْسِـن الطلـب. فقـال

خباب: ذاك أني كنت على دينك، فأما اليوم فأنا على الإسلام مفارق لدينك. قال: أولستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا وفضةً وحريرًا؟ قال خبّاب: بلى. قال: فأخِّرْني حتى أقضيك في الجنة، استهزاءً. فوالله لئن كان ما تقول حقًّا، إني لأفضل فيها نصيبًا منك". وكان هذا الاستهزاء يتكرر كلما نزل شيء من القرآن فى تعداد نعَم الجنة، ومن ذلك ما ورد فى النص التالى لدى الواحدى: "كان المشركون يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه ولا ينتفعون به، بل يكذبون به ويستهزئون ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لَنَدْخُلَنَّها قبلهم، ولَيَكُونَنَّ لنا فيها أكثر مما لهم. فأنزل الله تعالى هذه الآية: "أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُم أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ* كَلاَّ"...".

فإذا انتقلنا إلى العبادات الجاهلية وجدنا مثلا قوله تعالى: "إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ" (الأنفال/ ١٩). أى أنهم كانوا يتجهون بالدعاء لله، وقد سلف القول إنهم كانوا يؤمنون بوجوده سبحانه، وإن عَزَّ على عقولهم المغلقة أن تفهم أن الله بطبيعته لا يمكن أن يكون إلا إلها واحدا، بل كانوا يشركون به آلهة أخرى. ومعنى الاستفتاح هو الدعاء إلى الله أن يظهر لهم الحق من الباطل. وقد وردت أكثر من رواية فى ذلك فى تفسير الطبرى فقيل: "كان

المشركون حين خرجوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة (أى فى غزوة بدر) أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا: اللهمّ انصر أعَزّ الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين. فقال الله: "إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الفَتْحُ". يقول: نَصَرْتُ ما قلتم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم"، وقيل: "استفتح أبو جهل فقال: اللهمّ، أيُّنا (يعني محمدا ونفسه) كان أَفْجَرَ لك اللهمّ وأَقْطَعَ للرَّحم فأَحِنْهُ (أى أَهْلِكْه) اليوم. قال الله: إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الفَتْحُ". كما نقرأ فى ذات السورة قوله سبحانه: "وَإذْ قَالُوا اللّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" (الأنفال/ ٣٢- ٣٣). وقد جاء فى تفسير الطبرى: "قال رجل من بني عبد الدار يقال له: النضر بن كَلَدَة: "اللّهُمّ إنْ كانَ هَذا هُوَ الحَقّ منْ عنْدكَ فَأمْطِرْ عَلَيْنا حجارَةً مِنَ السّماء أو ائْتنا بعَذاب أليم". فقال الله: "وَقالُوا رَبّنا عَجّلْ لَنا قطّنا قَبْلَ يَوْمِ الحساب"، وقال: "وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادَى كمَا خَلَقْناكُمْ أوّلَ مَرّة"، وقال: "سَأَلَ سائلٌ بعَذاب وَاقِعٍ* للْكافِرِينَ...". قال عطاء: لقد نزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله". أما فى تفسير الآية الثانية فقد أورد فيها، ضمن ما

أورد، قول من قال: وما كان الله ليعذّب هؤلاء المشركين من قريش بمكة وأنت فيهم يا محمد، حتى أُخرجك من بينهم، وَما كانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وهؤلاء المشركون يقولون: يا ربّ غفرانك، وما أشبه ذلك من معاني الاستغفار بالقول... وقوله: وَما لَهُمْ ألاّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ؟ (أى) في الآخرة". أى أهم، رغم شركهم، كانوا يدعون الله بما يريدون على غباء فيهم وعناد وانغلاق ذهن وقلب! كما أهم، رغم شركهم، كانوا يستغفرون الله كما جاء فى بعض الأقوال!

ومن عباداهم كذلك ما ورد فى قول رب العزة: "وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " (الأنفال/ ٣٥)، وتفسيره ما ورد عند شيخ المفسرين: "كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله: "قُلْ مَنْ حَرّمَ زِينَةَ اللّه التي أخْرَجَ لِعِبادِه"، فأُمروا بالثياب... كانت قريش يعارضون النبيّ صلى الله عليه وسلم في الطواف يستهزئون به، يصفرون به ويصفقون... كانوا ينفخون في أيديهم". كما أن فى القرآن آية تنهى عن السجود للشمس أو القمر، مما يدل على أن هناك من كانوا يسجدون لهما: "وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا

للْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للَّـهِ الَّـذِي خَلَقَهُـنَّ إِنْ كُنْـتُمْ إِيَّـاهُ تَعْبُـدُونَ" (فُصِّلَتْ/ ٣٧).

ولعل القارئ قد تنبه لمـا جـاء فى كـلام الطـبرى مـن أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت الحرام عـراة، وإن كنـت أتصـور أن يكون بعضهم فقط هم الـذين يفعلـون ذلـك لا كلـهم. وفى تفسير قوله تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَـا عَلَـيْكُمْ لِبَاسًـا يُـوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِـكَ مِـنْ آيَـاتِ اللَّـهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ* يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَـنَّكُمُ الشَّـيْطَانُ كَمَـا أَخْـرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَـهُمَا لِيُرِيَهُمَـا سَـوْآتِهِمَا إِنَّـهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَـا الشَّـيَاطِينَ أَوْلِيَـاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَـالُوا وَجَـدْنَا عَلَيْهَـا آبَاءَنَـا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُـونَ عَلَـى اللَّـهِ مَا لا تَعْلَمُونَ* قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُـوهَكُمْ عِنْـدَ كُـلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَـا بَـدَأَكُمْ تَعُـودُونَ* فَرِيقًـا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَـذُوا الشَّـيَاطِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَـبُونَ أَنَّهُـمْ مُهْتَـدُونَ* يَـا بَنِـي آدَمَ خُـذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْـجِدٍ وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا وَلا تُسْـرِفُوا إِنَّـهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَـةَ اللَّـهِ الَّتِـي أَخْـرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّـذِينَ آمَنُـوا فِـي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَـةِ كَـذَلِكَ نُفَصِّـلُ الآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ"

(الأعراف/ ٣٦- ٣٢) يقول الطبرى ما زُبْدَته أنــه، جــلّ ثنــاؤه، يبين للجهلة من العرب الذين كــانوا يتعَــرَّوْن أن لبــاس التقــوَى هو الحياء. وقد ابتدأ سبحانه الخــبر عــن إنزالــه اللبــاس الــذي يــواري سَــوْآتنا والرِّيَــاش توبيخــا للمشــركين الــذين كــانوا يتجرّدون في حــال طــوافهم بالبيــت، ويــأمرهم بأخــذ ثيــابهم والاستتار بها في كلّ حال مع الإيمان به واتبــاع طاعتــه، إذ كــانوا يطوفون بالبيت عُراةً متحججين بقــولهم: "نطــوف كمــا ولــدتنا أمّهاتنا"، فتضع المرأة على قُبُلها النّسْعة أو الشيء فتقول:

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلّه   فَمَا بَــدَا مِنْهُ فَلا أُحِــلّهُ

فعُذلوا على ما أَتَوْا من قَبيح فعلهم وعُوتبــوا عليــه، فكــان جوابهم: وجدنا على مثل ما نفعــل آباءنــا، فــنحن نفعــل مثلمــا كانوا يفعلون، ونقتدي بَهْديهم ونستنّ بسُــنّتهم، والله أمرنــا بــه، فنحن نتبع أمره فيه. فيقول الله جلّ ذكره لنبيــه محمــد صــلى الله عليه وسلم: قل يا محمــد لهــم إن الله لا يــأمر بالفحشــاء، أى لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومَساويها. أتقولون، أيهــا النــاس، علــى الله ما لا تعلمون؟ أتَرْوُون على الله أنه أمــركم بــالتعرّي والتجــرّد من الثياب واللباس للطــواف، وأنــتم لا تعلمــون أنــه أمــركم بذلك؟ لقد كانوا يطوفــون عــراة: الرجــال بالنــهار، والنســاء بالليل، فأمرهم الله بالزينة، والزينــة: اللبــاس. وكانــت العــرب تطوف بالبيت عراةً إلا الحُمْس: قريش وأحلافهم.

وكانت قريش ومَنْ وَلَدَتْه قريش، وهم الذين كانوا يُسَمَّوْن في الجاهلية: "الحُمْس"، يقولون: لا نخرج من الحَرَم. فكانوا لا يشهدون موقف الناس بعَرَفة معهم، فأمرهم الله بالوقوف معهم والإفاضة من عَرَفات، وهي التي كان يُفيض منها سائر الناس غير الحُمْس. وعن عائشة: كانت قريش ومن كان على دينها، وهم الحُمْس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن قَطين الله. ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكني الحلّ مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، فيَحلّ لهم ما يحلّ لهم، ويَحْرُم عليهم ما يَحْرُم عليهم. وكانت كِنَانة وخُزَاعة قد دخلوا معهم في ذلك، ثم ابتدعوا في ذلك أمورا لم تكن، حتى قالوا: لا ينبغي للحُمْس أن يَأْقطوا الأَقط، ولا يَسْلأوا السَّمْن وهم حُرُم، ولا يدخلوا بيتا من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الجلد طَوَال إحرامهم. ثم غالَوْا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعامٍ جاءوا به معهم من الحلّ في الحَرَم إذا جاءوا حُجّاجًا أو عُمّارًا، ولا يطوفوا بالبيت إذا قَدِمُوا أوّل طوافهم إلا في ثياب الحُمْس، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة. فحَمَلُوا العربَ على ذلك، وكان مَنْ سواهم يقفون بعرفة، فأمرهم الله بالوقوف

معهم: "ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (البقرة/ ١٩٩). وكان القوم في جاهليتهم، بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فكانوا يذكرون آباءهم في الحج: فيقول بعضهم: كان أبي يطعم الطعام، ويقول بعضهم: كان أبي يضرب بالسيف، ويقول بعضهم: كان أبي جَزّ نواصي بني فلان. فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكرهم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، فنزل قوله عز وجل: "فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا" (البقرة/ ٢٠٠).

وكان الأنصار في الجاهلية إذا أَهَلَّ أحدهم بحجّ أو عُمْرة لا يدخل دارا من بابها إلا أن يتسوّر حائطا، وأسلموا وهم كذلك. فأنزل الله تعالى ذكره: "وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (البقرة/ ١٨٩)، ونهاهم عن صنيعهم ذاك، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها. فلما حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجّة الوداع أقبل يمشي ومعه رجل من أولئك، وهو مسْلم. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم باب البيت احتبس الرجلُ خلفه وأبى أن يدخل قائلا: يا رسول الله، إني أحْمَس.

يقصد أنه مـحْرِم، وكان أولئك الذين يفعلون ذلك يُسَمَّوْن: "الحُمْس". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وأنا أيضا أحْمَسُ (أي أنه عليه السلام من قريش)، فادْخُلْ"، فدخل الرجل.

وكان في تعاملات أهل الجاهلية بَغْيٌ وطاعةٌ للشيطان، فكان الحَيّ مثلا إذا كان فيهم عُدّة ومَنَعة، فقَتَل عبدُ قومٍ آخرين عبدًا لهم، قالوا: "لا نَقْتُل به إلا حُرًّا"، تعزُّزًا لفضلهم على غيرهم في أنفسهم، وإذا قتلت امرأةُ قومٍ آخرين امرأةً لهم، قالوا: لا نَقْتُل بها إلا رجلاً. فأنزل الله هذه الآية يخبرهم أن العبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فنهاهم عن البغي: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (البقرة/ ١٧٨).

وكان اليتامى يُظْلَمون ولا يُرْحَمون وتُؤْكَل حقوقهم، وقد نزلت فيهم آيات متعددة: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ* وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" (الماعون/ ١- ٣)، "فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ* يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ

مسكينًا ذَا مَتْرَبَـةٍ" (البلـد/ ١١- ١٦)، "لَـيْسَ الْبِـرَّ أَنْ تُوَلُّـوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِـنَّ الْبِـرَّ مَـنْ آمَـنَ باللَّـهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِـيِّينَ وَآتَـى الْمَـالَ عَلَـى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْـنَ السَّـبِيلِ وَالسَّـائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَـاةَ وَالْمُوفُـونَ بِعَهْـدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّـرَّاءِ وَحِـينَ الْبَـأْسِ أُولَئِـكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقـرة/ ١٧٧)، "كَـلاَّ بَـل لا تُكْرِمُـونَ الْيَتِـيمَ* وَلا تَحَاضُّـونَ عَلَـى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ* وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا* وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّـا جَمًّـا" (الفجـر/ ٢٠)، "وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِـيَ أَحْسَـنُ حَتَّـى يَبْلُـغَ أَشُـدَّهُ" (الأنعـام/ ١٥٢، والإسـراء/ ٣٤)، "وَآتُـوا الْيَتَـامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّـبِ وَلا تَـأْكُلُوا أَمْـوَالَهُمْ إِلَـى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَـانَ حُوبًـا كَـبِيرًا* وَإِنْ خِفْـتُمْ أَلاَّ تُقْسِـطُوا فِـي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَـاءِ مَثْنَـى وَثُـلاثَ وَرُبَـاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ ذَلِـكَ أَدْنَـى أَلاَّ تَعُولُوا* وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَـةً فَـإِنْ طِـبْنَ لَكُـمْ عَـنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا* وَلا تُؤْتُـوا السُّـفَهَاءَ أَمْـوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُـوهُمْ وَقُولُـوا لَهُـمْ قَوْلا مَعْرُوفًا* وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَـاحَ فَـإِنْ آنَسْـتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْـوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَـا إِسْـرَافًا وَبِـدَارًا

أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَــنْ كَــانَ فَقِــيرًا فَلْيَأْكُــلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْــوَالَهُمْ فَأَشْــهِدُوا عَلَــيْهِمْ وَكَفَــى بِاللَّهِ حَسِــيبًا" (النســاء/ ٢- ٦)، "إِنَّ الَّــذِينَ يَــأْكُلُونَ أَمْــوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُــونِهِمْ نَــارًا وَسَيَصْــلَوْنَ سَــعِيرًا" (النساء/ ١٠)، "وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُــلِ اللَّــهُ يُفْتِــيكُمْ فِــيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَــاءِ اللاَّتِــي لا تُؤْتُــونَهُنَّ مَا كُتِــبَ لَهُــنَّ وَتَرْغَبُــونَ أَنْ تَنْكِحُــوهُنَّ وَالْمُسْتَضْــعَفِينَ مِــنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُــوا مِــنْ خَيْــرٍ فَــإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا" (النساء/ ١٢٧).

وبالنسبة للآيات المارّ ذكرهــا فى صــدر ســورة "النســاء" يقول ابن عطيــة فى "المحــرَّر الــوجيز" إنهــا فى أوصــياء الأيتــام، والمراد ما كان بعضهم يفعله من تبديل الشاة الســمينة مــن مــال اليتيم بالهزيلة من ماله، والدرهم الطيب بــالزائف مــن مالــه، وإن أولئك اليتامى كانوا ممنوعين من الميراث ومحجــورين. والآيــة نَــصٌّ في النهي عن قصد مــال اليتــيم بالأكــل والتمــوّل علــى جميــع وجوهه. وقالت عائشة رضي الله عنها: نزلــت في أوليــاء اليتــامى الذين يعجبهم جمــال وليّــاتهم فيريــدون أن يبخســوهن في المهــر لمكان ولايتهم علــيهن، فقيــل لهــم: أَقْسِــطوا (أى اعــدلوا) في مهورهن. فمن خاف ألا يُقْسِــط فلْيتــزوجْ مــا طــاب لــه مــن الأجنبيــات اللــواتي يكايســن في حقــوقهن (أى يــدافعن عنــها

ويناضلن دونها). ويقول الثعالبي، في تفسيره المسمَّى: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، إن النهي في الآية ١٢٧ من سورة "النساء" خاصّ بـ"ما كانت العرب تفعله من ضَمّ اليتيمة الجميلة بدون ما تستحقه من المهر ومن عَضْل الدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل". وفي "أكل التراث" المنهى عنه في سورة "الفجر" يقول إنهم كانوا لا يورِّثون النساء ولا صغار الأولاد، إنما كان يأخذ المالَ من يقاتل ويحمي الحَوْزَة. وقد أورد ابن عطية حديثًا للنبي صلى الله عليه وسلم عما رآه ليلة الإسراء جاء فيه: "رأيت أقواما لهم مَشَافِرُ كمشافر الإبل، وقد وُكّلَ بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يَجْعَل في أفواههم صخرا من نار تخرج من أسافلهم. قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما". وأورد الزمخشري ما رُوِيَ من "أنه يُبْعَث آكِلُ مال اليتيم يوم القيامة، والدُّخَان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه، فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا".

وكان ثَمَّ ظلم شنيع يقع على الصغار في ذلك المجتمع الوثني، وهو ما كانت تمارسه بعض القبائل من وأد البنات، تلك العادة الوحشية التي ندَّد بها القرآن مرارا ونهى عنها وشدد في النهي تشديدا عظيما: "وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ

دينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ" (الأنعام/ ١٣٧)، "وَلا تَقْتُلُوا أَولادَكُمْ مِنْ إمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ" (الأنعام/ ١٥١)، "وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإيَّاكُمْ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا" (الإسراء/ ٣١)، "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (النحل/ ٥٨- ٥٩)، "أَم اتَّخَذَ ممَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ" (الزخرف/ ١٦- ١٨). وفى هذه العادة المتوحشة يقول البغوى، عند تفسير الآيات ٥٨- ٥٩ من سورة "النحل"، إن "مُضَرَ وخُزَاعَةَ وتَميمًا كانوا يدفنون البنات أحياء خوفا من الفقر عليهن وطَمَعِ غير الأَكْفَاء فيهن. وكان الرجل من العرب إذا وُلِدَتْ له بنت وأراد أن يستحييها ألبسها جُبَّةً من صوف أو شعر وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسيةً قال لأمها: "زَيِّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها"، وقد حفر لها بئرا في الصحراء. فإذا بلغ بها البئر قال لها: "انظري إلى هذه البئر"، فيدفعها من خلفها في البئر ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض.

فذلك قوله عز وجل: "أيمسكه على هُون أم يَدُسّه في التراب؟". وكان صَعْصَعَة عَمُّ الفرزدق (بل جَدّه في الواقع) إذا أحس بشيء من ذلك وجَّه إلى والد البنت إبلاً، يُحْيِيها بذلك. فقال الفرزدق يفتخر به:

وعَمِّي الذي مَنَعَ الوائدا ت فأحيا الوئيدَ فلم تُوأد"

وفى الآية السابعة من سورة "النساء" يطالعنا قوله تعالى: "للرِّجَال نَصيبٌ ممَّا تَرَكَ الْوَالدَان وَالأَقْرَبُونَ وَللنِّسَاء نَصيبٌ ممَّا تَرَكَ الْوَالدَان وَالأَقْرَبُونَ ممَّا قَلَّ منْهُ أَوْ كَثُرَ نَصيبًا مَفْرُوضًا"، وسبب نزولها أن من العرب من لم يكن يورِّث النساء ويقول: "لا يُوَرَّث إلا من طاعَنَ بالرمح وقاتَلَ بالسيف"، فنزلت هذه الآية. ومن ذلك أن أم كحلة مات عنها زوجها أَوْس بن سُوَيْد وترك لها بنتا، فذهب عَمّ بنيها إلى ألاّ ترث، فذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال العَمّ: "هي، يا رسول الله، لا تقاتل ولا تحمل كَلاًّ ويُكْسَب عليها ولا تَكْسِب". ولا يقف ظلم النساء لدى عرب الجاهلية عند هذا الحد، فقد ذكرت الآيات التالية من نفس السورة ألوانا أخرى من الغبن الذى كُنّ يتعرَّضْن له على أيدى الرجال: "يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا يَحلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لتَذْهَبُوا ببَعْض مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إلاَّ أَنْ يَأْتينَ بفَاحشَة مُبَيِّنَة وَعَاشرُوهُنَّ بالْمَعْرُوف فَإنْ كَرهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا

وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا* وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا* وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا" (النساء/ ١٩- ٢١). وقد علّق الزمخشرى على هذا قائلا: "كانوا يَبْلُون النساء بضروب من البلايا ويظلمونهن بأنواع من الظلم، فزُجروا عن ذلك: كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة ألقى ثوبه عليها وقال: أنا أحقّ بها من كل أحد. فقيل: "لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كَرْهًا"، أي أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تُحَاز المواريث، وهن كارهات لذلك أو مُكْرَهات. وقيل: كان يمسكها حتى تموت، فقيل: لا يحلّ لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن، وهن غير راضيات بإمساككم. وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حَبَسها مع سوء العشرة والقهر لتفتدي منه بمالها وتختلع. فقيل: ولا تَعْضُلوهنّ لتَذْهَبوا ببعض ما آتيتموهن. والعَضْل: الحبس والتضييق... "إلا أن يأتين بفاحشة مبينة"، وهي النشوز وشَكَاسة الخُلُق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة، أي إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن، فقد عُذِرْتم في طلب الخلع... فإن فعلتْ حَلّ لزوجها أن يسألها الخُلْع... وكانوا يسيئون معاشرة النساء فقيل لهم: "وعاشروهن بالمعروف"،

وهو النَّصَفَة في المبيت والنفقة والإجمالُ في القول... "وإن أردتم استبدال زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا أتأخذونه بهتانا وإثمًا مبينًا* وكيف تأخذونه وقد أفضَى بعضكم إلى بعضٍ وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا؟". وكان الرجل إذا طَمَحَتْ عينه إلى استطراف امرأة بَهَتَ التي تحته ورماها بفاحشة حتى يُلْجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها. فقيل: "وإن أردتم استبدال زوجٍ...". وكانوا يَنْكحون رَوَابَّهم (أى زوجات آبائهم)، وناسٌ منهم يمقتونه من ذَوي مروءاتهم، ويسمّونه: "نكاح المَقْت". وكان المولود عليه يقال له: المَقْتيّ". وفى الطبرى عن ابن عباس: "كان أهل الجاهلية يحرّمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين". وفى الحديث: "لم يصبنا عيبٌ من عيوب الجاهلية فى نكاحها ومَقْتها".

وبالنسبة لعلاقة الفرَاش يقول الزمخشرى، تعليقا على قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (البقرة/ ٢٢٢)، إن "أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فَرْشٍ ولم يساكنوها في بيتٍ كفعْل اليهود والمجوس. فلما نزلت أخذ

المسلمون بظاهر اعتزالهن فأخرجوهن من بيوتهم. فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله، البرد شديد، والثياب قليلة. فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرنا بها هلكت الحُيَّض. فقال عليه الصلاة والسلام: إنما أُمِرتم أن تعتزلوا مُجَامَعَتَهُنَّ إذا حِضْنَ، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعْل الأعاجم".

وكان المجتمع الجاهلى يقوم، فيما يقوم، على نظام الرقيق، وكان الأرقاء يعامَلون بقسوة، فأوصى الإسلام بهم خيرا، ودعا إلى التقرب إلى الله وإحراز الأجر الجزيل بعتقهم. كما وَصَّى بمساعدتهم من أموال الزكاة والكفّارات والصدقات فى الافتكاك من الرق إن أرادوا المكاتبة لإعتاق أنفسهم من كسب يدهم، وكذلك مساعدتهم فى الزواج والاستعفاف. ومن رحمته سبحانه بالإماء المستضعفات أنْ أنزل آية تمسح عار البِغَاء وإثمه عن الأَمَة المُكْرَهة على ذلك من قِبَل سيدها القوّاد. وكان لعبد الله بن أُبَيّ رأسِ الضلال والنفاق أَمَةٌ أَمَرَها فزَنَتْ، فجاءت ببُرْد، فقال لها: ارجعي فازْني. قالت: والله لا أفعل. إنْ يَكُ هذا خيرا فقد استكثرتُ منه، وإن يَكُ شرّا فقد آن لي أن أَدَعه". وقد نزل فى ذلك كله قوله جل شأنه: "وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ

عَلِيمٌ* وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِه وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (النور/ ٣٢- ٣٣).

وكان الجاهليون يتعاملون بالرِّبَا، بل بالربا الفاحش الذى لا يرحم، ومن هنا نرى القرآن يصور الربا صورة شديدة البشاعة، ويحمل على المرابين حملة شعواء مناديا بالرحمة والتسامح مع الضعفاء والعاجزين الذين لا يقدرون على تسديد الدَّيْن، أو على الأقل إنظارهم والصبر عليهم حتى يمكنهم السداد: "وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ" (الروم/ ٣٩)، "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّه فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ

عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُـمْ يَحْزَنُـونَ* يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَـا إِنْ كُنْـتُمْ مُـؤْمِنِينَ* فَـإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَإِنْ تُبْـتُمْ فَلَكُـمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْـرَةٍ فَنَظِـرَةٌ إِلَـى مَيْسَـرَةٍ وَأَنْ تَصَـدَّقُوا خَيْـرٌ لَكُـمْ إِنْ كُنْـتُمْ تَعْلَمُـونَ" (البقرة/٢٧٥- ٢٨٠)، "يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا لا تَـأْكُلُوا الرِّبَـا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُـوا اللَّـهَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُـونَ" (آل عمـران/ ١٣٠). ولم يكن عرب الجاهلية هم وحدهم الـذين يرابـون، بـل هناك أيضًا اليهود أساتذة الربا وشياطينه، وقـد هـاجمهم القـرآن المجيد مبينا كيـف أن الله عاقبـهم عقابـا شـديدا جَـرَّاءَ ذلـك الاستغلال الإجرامى القاسى فى التعامـل مـع المحتـاجين: "فَـبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُـمْ وَبِصَـدِّهِمْ عَـنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا* وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْـهُ وَأَكْلِهِـمْ أَمْـوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِـنْهُمْ عَـذَابًا أَلِيمًـا" (النسـاء/ ١٦٠- ١٦١).

وحين حرّم الإسلام الربا لم يتسـامح فيمـا كـان لا يـزال منه قائما، بل رفض أن يأخذ المرابون أيـة فوائـد علـى قروضـهم رغم أنه غض البصر عما سلف منه فى الجاهليـة قبـل مجيئـه. وفى تفسير الطبرى: "كانت ثقـيف قـد صالـحت النبـيّ صـلى الله عليه وسلم علـى أن ما لهم من ربـًا علـى النـاس ومـا

كان للناس عليهم من ربًا فهو موضوع (أى مُلْغى). فلما كان الفتح استعمل عتّابَ بن أُسَيْد على مكة، وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة، وكانت بنو المغيرة يُرْبُون لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير. فأتاهم بنو عمرو يطلبون رِبَاهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتّاب بن أُسَيْد، فكتب عتّاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت: "يا أيّهَا الّذينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنينَ* فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِه..."، فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتّاب وقال: "إنْ رَضُوا، وَإلاّ فَآذِنْهُمْ بحَرْبٍ". وقال رسول الله فى خطبته يوم الفتح: "ألاَ إنّ ربا الجاهليّةِ مَوْضُوعٌ كُلّهُ، وَأوّلُ ربًا أبْتَدِئُ بِهِ رِبَا العَبّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطّلب".

وكان المَيْسِر، وهو القِمَار، من الآفات التى ابْتُلِيَ بها عرب الجاهلية، و"كانوا يتقامرون على الأموال حتى ربما بقي المقمور فقيرا فتَحْدُثُ من ذلك ضغائن وعداوات" كما يقول الثعالبي. وقد أورد الطبرى عن ابن عباس: "كان الرجل فى الجاهلية يخاطر (أى يقامر) على أهله وماله، فأيهما قَمَرَ صاحبَه (أى غلبه فى القمار) ذهب بأهله وماله". ومن هنا

نستطيع أن نفهم تشديد التحريم لـه فى قولـه سـبحانه: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ" (المائدة/ ٥)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة/ ٩٠). وفى القمار يقول الطبرى إنهم "كانوا يياسرون (أى يتقامرون) على الجَزُور (وهو الجمل أو الناقة المُعَدّان للذبح)، وإذا أفلج الرجلُ منهم صاحبَه (أى كَسَبَه) نَحَرَه، ثم اقتسموا أعشارا على عدد القِدَاح (السهام). وفي ذلك يقول أعشى بني ثعلبة:

وجَزُورِ أيْسارٍ دَعَوْتُ إلى النَدَى ونياطِ مُقفِرَةٍ أخافُ ضَلالَها"

ويزيد الزمخشرى الأمر تفصيلا فيقول: " كانت لهم عشرة أقداح، وهي الأزلام والأقلام: الفَذّ والتَّوْأم والرقيب والحِلْس والنَّافِس والمُسْبِل والمُعَلَّى والمَنِيح والسَّفِيح والوَغْد. لكل واحد منها نصيب معلوم من جَزُور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء (وقيل: ثمانية وعشرين)، إلا لثلاثة، وهي المَنِيح والسَّفيح والوَغْد. ولبعضهم:

لِيَ في الدنيا سهامٌ ليس فيهنّ رَبيحُ وأساميهنّ وَغْدٌ وسفيحٌ ومَنيحُ

للفذّ سهم، وللتوأم سهمان، وللرَّقيب ثلاثة، وللحلْس أربعة، وللنَّافس خمسة، وللمُسْبِل ستة، وللمُعَلَّى سبعة. يجعلونها في الرِّبَابة،

وهي خريطة، ويضعونها على يَدَيْ عَدْل، ثم يجلجلـها (أي يحرّكهـا) ويُدْخِل يده فيُخْرِج بِاسْم رَجُلٍ رَجُلٍ قِدْحًا منها. فمن خرج له قـدْحٌ من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القِدْح. ومن خرج له قِدْحٌ مما لا نصيب له لم يأخذ شيئا وغَرِمَ ثمن الجزور كله. وكـانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك ويذمّون من لم يدخل فيه، ويسمونه: البَرَم".

وفى الآيتين تحريم للأزلام أيضا، وهى سـهامٌ ثلاثـةٌ متشـابهةٌ كانوا يضعونها فى كنانة، ثم يحركونها حتى تختـلط ولا يمكـن تمييـز أحدها عن الآخر، ثم يمد الكاهن يـده فيسـحب منـها واحـدا. فإذا كان هذا السهم مكتوبـا عليـه :"افعـل"، فـإن الشـخص المُستَقْسِم يفعل ما كـان ينـوى أن يفعلـه، وإن خـرج السـهم المكتوب عليه: "لا تفعل"، فإنه لا يفعل مـا كـان يريـد، أمـا إذا كان السهم غير مكتـوب عليـه شـيء أُعِيـد تحريـك السـهام وبدأت عملية الاستقسام من جديد. وقد اسـتبدل الإسـلام بهـذه الطريقة الوثنية طريقـة أخـرى تـربط الإنسـان بربـه، وهـى "الاستخارة". ونترك الإمام الطبرى يشـرح الأمـر بقلمـه كمـا كتبه عند تأويله للآية الخامسة مـن سـورة "المائـدة": "ذلـك أن أهل الـجاهلـية كـان أحـدهم إذا أراد سـفرا أو غـزوًا أو نـحو ذلك أجال القِدَاح، وهـي الأزلام (أى هَـزّ الكنانـة بمـا فيها من سـهام)، وكانـت قِـدَاحا مكتوبـا علـى بعضـها:

نهاني ربي، وعلى بعضها: أمرني ربي. فإن خرج القدْح الذي هو مكتوب عليه: "أمرني ربي" مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك. وإن خرج الذي عليه مكتوب: "نهاني ربي" كَفَّ عن المضيّ لذلك وأمسك. فقيل: "وأنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأزلامِ"، لأنهم بفعلهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أزلامهم أن يَقْسِمْنَ لهم. ومنه قول الشاعر مفتخرا بترك الاستقسام بها: "ولَمْ أَقْسِمْ فتَرْبُتَني القُسُومُ". وأما "الأزلام" فإن واحدها "زَلَم"، ويقال "زُلَم"، وهي القداح التي وصفنا أمرها". وهذه الأزلام كانت عند الكهنة، وكانوا هم الذين يقومون بعملية الاستقسام حسبما أورد الطبرى عن السُّدِّيّ.

ومن الملاحظ تكرير القرآن النهى عن التطفيف فى الكيل والميزان وتوعُّده بالعقاب الشديد من يصنع ذلك. وواضح أن العرب كانوا لا يراعون القِسْطَاس المستقيم، وإلا لم يكن القرآن ليتحدث فى ذلك الموضوع ويكرر القول فيه: "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ" (الأنعام/ ١٥٢)، "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً" (الإسراء/ ٣٥)، "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" (الرحمن/ ٩)، "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ"

(المطففين/ ١- ٣). وفى الطبرى: "عن عبد الله قال: قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة لَيُوفُون الكيل. قال: وما يمنعهم من أن يوفوا الكيل، وقد قال الله: "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ"... "يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"؟... وعن ابن عباس قال: لما قَدِم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله: "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ"، فأَحْسَنوا الكيل".

إلا أننى لا أستطيع أن أفهم كيف تكون الآيات الأخيرة قد نزلت فى أهل المدينة، والسورة كلها، كما يقول الطبرى نفسه فى بداية تفسيره لها، سورة مكية! ثم إن أهل المدينة كانوا مشهورين بدماثة الطبع ولم تُعْرَف عنهم شكاسة فى الخلق والمعاملات التجارية كالذى كان مشهورا عن مكة وأهلها فى الجاهلية، علاوة على أن القرآن إنما كرّر النهى عن الغَبْن فى المكاييل والموازين فى المرحلة المكية، بخلافه فى المرحلة المدنية، التى لم يتزل فيها شىء فى ذلك. ولا ينبغى أن نغفل عن أن المكيين كانوا، فى المقام الأول، تجارًا لا زُرّاعًا كاليثربيين. بل إن الحديث عن شيوع الغش فى المعاملات التجارية فى بعض الأمم القديمة وتلاعبها فى الكيل والميزان، وهى أمة شُعَيْب عليه السلام، إنما كان فى "الأعراف" و"هود" و"الشعراء"، وهى مما نزل فى مكة لا المدينة. أفترى القرآن إذن كان يستبق الحوادث

ويهاجم اليثربيين قبـل الميعـاد؟ الـذى أراه هـو أن المقصـودين بالكلام عن الكيل والميزان إنما هـم المكيـون قبـل غيرهـم، وإن كنت لا أستبعد سواهم من العرب مـن هـذا الانحـراف الخلقـى. وبالمناسبة فـإن الواحـدى والسـيوطى مـثلا فى كتابيهمـا عـن "أسباب النزول" يقولان نفس ما قاله الطبرى.

أما الطاهر بـن عاشـور فى "تفسـير التحريـر والتنـوير" فيورد اختلاف العلماء فى مكية السـورة أو مدنيتـها، لينتـهى إلى أنها مما نزل بين مكة والمدينة. ثم أضـاف قـائلا: "وعـن القُرَظِـيِّ: كان بالمدينة تجار يطففـون الكيـل، وكانـت بياعـاتهم كسَـبْت القمار والملامسة والمنابذة والمخاصرة، فأنزل الله تعـالى هـذه الآيـة فخرج رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم إلى السـوق وقرأهـا، وكانت عادة فَشَتْ فيهم من زمـن الشـرك فلـم يـتفطَّن بعـض الذين أسلموا من أهل المدينة لما فيه من أكل مـال النـاس، فأُرِيـدَ إيقاظهم لذلك، فكانـت مقدمـة لإصـلاح أحـوال المسـلمين في المدينة مع تشنيع أحوال المشـركين بمكـة ويثـرب بـأنهم الـذين سَنُّوا التطفيف. وما أنْسَبَ هذا المقصد بـأن تكـون نزلـت بـين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعـاملات التجاريـة قبـل أن يدخل إليها النبي صلى الله عليه وسلم لـئلا يشـهد فيهـا منكـرًا عامًّا، فإن الكيل والوزن لا يخلـو وقـت عـن التعامـل بهمـا في الأسواق وفي المبادلات". ولكنى، رغـم هـذا، مـا زلـت أرى أن

"المطففين" سورة مكية لأسلوبها وموضوعاها اللذين يشبهان أسلوب الوحى المكى وموضوعاته، وأقصى ما يمكن أن أفكر فيه هو أن يكون الرسول قد قرأها على أهل يثرب مُهَاجَرَه إليهم، فقد قلت إننى لا أستبعد أن يكون من العرب من كان يطفِّف فى الكيل والميزان من غير أهل مكة، إلا أن المكيين، فى نظرى، هم المقصودون أوّلاً وفى الأساس بهذه الآيات. أيًّا ما يكن الأمر فقد كان الجاهليون يتلاعبون فى مكاييلهم وموازينهم بما يأباه الخلق الشريف والذكاء التجارى الحصيف كما يصنع كثير من التجار فى المجتمعات المتخلفة مما لا نجده فى نظيراقا المتقدمة رغم أها ربما لا تدين بدين سماوى، لكنه الحس التجارى السليم والقانون اليقظ الحريص على سلاسة الحياة وراحة البال حتى ولو لم يكن الحفاظ على القيم الخلقية فى حد ذاهّا هو المراد!

وبالنسبة للأطعمة كان الجاهليون يحرِّمون البَحِيَرَة والسائبة والحامى، وفى ذات الوقت يأكلون المَيْتَة، سواء ماتت ميتة طبيعية أو كانت منخنقة أو موقوذة (وهى المضروبة ضربا شديدا حتى تموت، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى تموت ثم يأكلونها)، أو كانت متردِّية أو منطوحة. وكانوا يقولون عن الميتة إن الله قتلها، فكيف تكون حراما، ويكون ما قتله (أى ذبحه) البشر

حلالا؟ وكانوا يستغربون أن يعلن الرسول وأصحابه أنهم يتبعون أمر الله ثم يقولوا مع ذلك إن ما ذبحوه حلال، وما ذبحه الله حرام! كذلك كانوا يأكلون الدم وما أُهِلَّ به لغير الله وما ذُبح على النُّصُب. وفى كلامنا عن الأمثال فى العصر الجاهلى إشارة إلى أكلهم الدم. وفى الطبرى أنهم "كَانُوا إِذَا أَرَادُوا ذَبْح مَا قَرَّبُوهُ لآلِهَتِهِمْ سَمَّوْا اسْم آلِهَتِهِمْ الَّتِي قَرَّبُوا ذَلِكَ لَهَا وَجَهَرُوا بِذَلِكَ أَصْوَاتَهُمْ، فَجَرَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قِيلَ لِكُلِّ ذَابِح يُسَمِّي أَوْ لَمْ يُسَمِّ، جَهَرَ بِالتَّسْمِيَة أَوْ لَمْ يَجْهَر: "مُهِلّ". فَرَفْعهمْ أَصْوَاتَهُمْ بِذَلِكَ هُوَ الإِهْلال الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّه تَعَالَى". كما يقول القرطبى إن ما أُهِلَّ به لغير الله هو "ذَبِيحَة الْمَجُوسِيّ وَالْوَثَنِيّ وَالْمُعَطِّل: فَالْوَثَنِيّ يَذْبَح لِلْوَثَنِ، وَالْمَجُوسِيّ لِلنَّارِ، وَالْمُعَطِّل لا يَعْتَقِد شَيْئًا فَيَذْبَح لِنَفْسِهِ". و"النُّصُب" هى الأَوْثَان مِنْ الْحِجَارَة، وكَانَتْ تُجْمَع فِي الْمَوْضِع مِنْ الأَرْض، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُقَرِّبُونَ لَهَا، وَلَيْسَتْ بِأَصْنَام، لأن الصَّنَم يُصَوَّر وَيُنْقَش، وَهَذِهِ حِجَارَة. فَكَانُوا إِذَا ذَبَحُوا نَضَحُوا الدَّم عَلَى مَا أَقْبَلَ مِنْ الْبَيْت وَشَرَّحُوا اللَّحْم وَجَعَلُوهُ عَلَى الْحِجَارَة.

أما البَحيرة والسائبة والوَصيلة والحامى فكانت النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ أَبْطُنًا خَمْسًا أَوْ سَبْعًا شَقُّوا أُذُنَهَا وَقَالُوا: هَذِهِ بَحِيرَة، وكَانَ الرَّجُل يَأْخُذ بَعْض مَاله فَيَقُول: هَذِهِ سَائِبَة، وكَانُوا إِذَا

وَلَدَتِ النَّاقَةُ الـذَّكَرَ أَكَلَـهُ الـذُّكُور دُون الإِنَـاث، وَإِذَا وَلَـدَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْن قَالُوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا، فَـلا يَأْكُلُونَهُمَـا. فَـإِذَا مَاتَ الذَّكَر أَكَلَهُ الذُّكُور دُون الإِنَـاث. وكَـانَ الْـبَعِير إِذَا وَلَـدَ وَوَلَدَ وَلَدُه قَالُوا: قَدْ قَضَى هَذَا الَّذِي عَلَيْه، فَلَـمْ يَنْتَفِعُـوا بِظَهْـرِه وقَالُوا: هَذَا حَامٍ. وقيل أيضـا: كـانوا إذا نتجـت (أى ولـدت) الناقة خمسة أَبْطُنٍ إناثا بُحِرَتْ (شُقَّتْ) أذنهـا فحُرِّمَـتْ، وقيـل إن الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان الخامس ذَكَـرًا بحـروا أذنـه فأكله الرجال والنساء، وإن كـان الخـامس أنثـى بحـروا أذنهـا وكانت حرامًا على النسـاء لحمهـا ولبنـها. وقيـل: إذا نتجـت الناقة خمسة أبطن من غير تقييـد بالإنـاث شـقّوا أذنهـا وحرّمـوا ركوبها ودَرّها. والسائبة: الناقة تُسَـيَّب، أو الـبعير يُسَـيَّب نـذرًا على الرجل إن سلّمه الله من مرض أو بلّغـه منزلـه فـلا يُحْـبَس عن رعي ولا ماء ولا يركبه أحد. وقيل: هي الـتي تُسَـيَّب لله فـلا قيد عليها ولا راعي لها. وقيل: هي التي تابعت بـين عشـر إنـاث ليس بينهن ذَكَر، فعند ذلك لا يُرْكَـب ظهرهـا ولا يُجَـزّ وَبَرهـا ولا يَشْرَب لبنَها إلا ضـيف. والوَصِـيلة قيـل: هـي الناقـة إذا وَلَدَتْ أنثى بعد أنثى، وقيل: هي الشاة، كانـت إذا وَلَـدَتْ أنثـى فهي لهم، وإن ولدت ذكـرًا فهـو لآلهتـهم، وإن ولـدت ذكـرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يـذبحوا الـذَّكَر لآلهتـهم. وقيـل: كانوا إذا ولدت الشاةُ سبعة أَبْطُـن نظـروا: فـإن كـان السـابع

ذكرا ذُبح فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تُركَتْ في الغنم، وإن كان ذكرا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يُذْبَح لمكانها، وكان لحمها حرامًا على النساء، إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء. والحام: الفحل الحامي ظهره عن أن يُرْكَب، وكانوا إذا رُكِبَ وَلَدُ الفحل قالوا: حُمِىَ ظهره فلا يُرْكَب، فجاء الإسلام فحرَّم هذا كله. ومن الأخبار التى وردت عن ذبحهم لآلهتهم ما رُوِىَ عن ابن عباس من "أن بلالاً لما أسلم ذهب إلى الأصنام فسَلَحَ عليها، وكان عبدًا لعبد الله بن جُدْعان، فشكا إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم ومائةً من الإبل يَنْحَرونها لآلهتهم".

وكانت الخمر شائعة بين الجاهليين شيوعًا مستطيرًا يعرفه كل من قرأ الشعر الجاهلى، ولقد أخذت هذه المسألة فى أول الإسلام بعض الوقت إلى أن كفّوا عن تعاطى أم الخبائث ممتثلين لأمر الله، وذلك بعد أن تدرج بهم القرآن مرحلة بعد مرحلة كما هو معروف من النصوص القرآنية حتى أقلعوا عنها إقلاعا لم يحدث من قبل ولا من بعد فى أى مجتمع أو حضارة بشرية!

والآن مع بعض النصوص القرآنية التى تتحدث فى موضوع الطعام والشراب والحلال والحرام منهما: "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ"

(البقرة/ ١٧٣)، "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ" (المائدة/ ٣)، "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ" (المائدة/ ١٠٣)، "قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ" (الأنعام/ ١٤٥)، "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ" (النحل/ ١١٥- ١١٦)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة/ ٩٠). ولا أدرى أكان من العرب الوثنيين من كان يأكل لحم الخنزير أم لا، لكن المؤكد أن النصارى كانوا وما زالوا يأكلونه رغم أنه محرَّم فى شريعة موسى عليه السلام، التى أكد المسيح أنه إنما أتى لتكميلها لا لنقضها، إلا أن بولس اليهودى ما إن دخل النصرانية حتى

أشاع فيها الاضطراب وألغى كل ما جاءت به تلك الشريعة تقريبا، ومن بين ما ألغاه تحريم الخنزير.

ولأن المجتمع العربى فى الجاهلية مجتمع رعوى فى الأساس كان اللبن من أغذيتهم الرئيسية. وكان من أطعمتهم أيضا العسل، يحصلون عليه من النحل الذى يعيش فى الجبال أو على غصون الأشجار. كما كانوا يطيّبون شرابهم بالكافور والزنجبيل والمسك: "إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا" (الإنسان/ ٥). وقد امتنّ الله عليهم بهذا كله: "وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ* وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل/ ٦٦- ٦٩)، "وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى" (محمد/ ١٥)، "وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً "(الإنسان/ ١٧)، "يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ* خِتَامُهُ مِسْكٌ" (المطففين/ ٢٥- ٢٦).

وفى تفسير قوله تعالى على لسان الشيطان متحدثا عن بنى آدم: "ولأُضلَّنَّهم ولأُمَنِّيَنَّهم ولآمُرَنَّهم فليُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام، ولآمُرَنَّهم فلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله" (النساء/ ١١٩) يقول الزمخشرى: "تَبْتيكُهم (أى تَبْتيك عرب الجاهلية الوثنيين) الآذان: فِعْلُهم بالبحائر. كانوا يشقّون أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذَكَرًا، وحرَّموا على أنفسهم الانتفاع بها. وتغييرهم خلق الله: فَقْءُ عين الحامي وإعفاؤه من الركوب". وفى قوله سبحانه: "وَجَعَلُوا للَّه ممَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْث وَالأَنْعَامِ نَصيبًا فَقَالُوا هَذَا للَّه بزَعْمِهِمْ وَهَذَا لشُرَكَائنَا فَمَا كَانَ لشُرَكَائهِمْ فَلا يَصلُ إلَى اللَّه وَمَا كَانَ للَّه فَهُوَ يَصلُ إلَى شُرَكَائهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (الأنعام/ ١٣٦) نرى لونا آخر من اعتقاداتهم الوثنية التى كان لها تأثير على أحكام الطعام عندهم، إذ كانوا يجعلون لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونَتَاج دوابّهم نصيبا، ولآلهتهم نصيبا من ذلك يَصْرِفونه على سَدَنَتها والقائمين بخدمتها. فإذا ذهب ما خصصوه لآلهتهم عوَّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غني عن ذلك. وقوله: "فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله"، أي إلى المصارف التي شرع الله الصَّرْف فيها كالصدقة وصلة الرَّحِم وقِرَى الضيف. ومعنى عبارة "وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم"، أي يجعلونه لآلهتهم وينفقونه في مصالحها. وفى "الكشاف" للزمخشرى أنهم

"كانوا يعيّنون أشياءَ من حرثٍ ونتاجٍ لله، وأشياءَ منها لآلهتهم، فإذا رَأَوْا ما جعلوه للّه زاكيا ناميا يزيد في نفسه خيرا رجعوا فجعلوه للآلهة، وإذا زَكَا ما جعلوه للأصنام تركوه لها واعتلُّوا بأن الله غني. وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها". وفي قوله سبحانه: "فلا يصل إلى الله" يقول: "أي لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليه من قِرَى الضِّيفان والتصدق على المساكين"، أما قوله: "فَهُوَ يصل إلى شركائهم" فمعناه أنهم ينفقونه على الأوثان "في ذبح النسائك عندها والإجراء على سَدَنتها ونحو ذلك". أو كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله، وهذا معنى آخر للآية الكريمة.

وفي الآيتين ١٣٨– ١٣٩ من نفس السورة نقرأ قوله عز شأنه: "وَقَالُوا هَذِه أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إلا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّه عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ* وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِه الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ". و"الحِجْر" هو التضييق، والمقصود أنهم يَقْصرونها على طرفٍ دون آخر. ذلك أنهم كانوا إذا عيَّنوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا: "لا يَطْعَمها إلا من نشاء"، يَعْنُون خَدَم

الأوثان والرجال دون النساء. أما الأنعام التى حُرِّمَت ظُهُورهَا فهى البحائر والسوائب والحَوامي. ثم هناك الأنعام التى لا يُذْكَر اسم الله عليها في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام. وقيل: لا يحجّون عليها ولا يُلَبُّون على ظهورها. أى أنهم قسّموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعامٌ حِجْرٌ، وهذه أنعامٌ محرَّمة الظهور، وهذه أنعامٌ لا يُذْكر عليها اسم الله. ليس ذلك فحسب، بل كانوا يقولون أيضا: "ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا، وإن يكن مَيْتَةً فهم فيه شركاء". أى أن ما وُلِد من أجنّة البحائر والسوائب حيًّا فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما وُلِد منها ميتًا اشترك فيه الذكور الإناث. وفى ذات السياق أيضا ورد قوله سبحانه: "وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ" (النحل/ ٥٦)، ومعناه أنهم كانوا يجعلون لآلهتهم التي لا علم لها (لأنها جماد، فهى لا تدرى ماذا يجعلون لها وماذا لا يجعلون) نصيبا مما رزقهم الله من الزروع والأنعام يتقربون بذلك إليها.

فإذا انتقلنا من موضوع الدين والعقيدة والحلال والحرام من الطعام إلى البيئة وجدنا تكرارا لذكر الجبال فى آيات كثيرة من القرآن المجيد، وهذا أمر طبيعى، فالجزيرة العربية مملوءة بالجبال: "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ" (هود/ ٤٢)، "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ" (إبراهيم/ ٤٦)،

"وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" (النحل/ ٦٨)، "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا" (النحل/ ٨١)، "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا" (طه/ ١٠٥)، "وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ" (فاطر/ ٢٧)، "أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا" (النبأ/٦– ٧)، "وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ" (النازعات/ ٣٢– ٣٣). كما أشار القرآن، فى آية مشهورة، إلى ظاهرة أخرى من ظواهر البيئة العربية هى ظاهرة السراب: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا" (النور/ ٣٩).

وعلى ذكر السراب فإن الماء شحيح فى الجزيرة العربية، ومن هنا فكثيرا ما يمنّ الله على العرب بإنزاله من السماء ماء يُحيِي الأرض بعد موتها: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة/ ٢٢)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا" (الأنعام/ ٩٩)، "وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ" (الأنفال/

١١)، "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ" (الزُّمَر/ ٢١)، "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ" (المُلْك/ ٣٠)، "وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا" (النبأ/ ١٤-١٦). والإبل هى أيضا من حيوانات الجزيرة العربية، وهى مما ورد ذكره فى كتاب الله، بل هى الحيوان الوحيد الذى لفت القرآن نظر العرب إلى عجيبة الخلق فيه: "أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" (الغاشية/ ١٧-٢٠)، ومعروف أن الجمل هو سفينة الصحراء.

وبالنسبة للمساكن التى كان يقطنها العرب فى الجاهلية فإن القرآن يشير إلى ضربين: البيوت العادية، وهى بيوت أهل الحضر، وكانوا أقل عددا فى بلاد العرب من أهل الصحراء آنذاك، ثم بيوت الوَبَر والشَّعْر والجلد، وهى الخيام، التى لا يعرف سكان البوادى غيرها نظرا لتنقلهم المستمر وراء الغيث والمرعى: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ" (النحل/ ٨٠).

أما الحيوانات والطيور والطيور والزواحف والحشرات التى كانت تعيش فى بلادهم أو يعرفونها ولو سماعا فقد ذكر القرآن منها الخيل والبغال والحمير والجمال (أو الإبل) والبقر والمَعْز والضأن والفيل والسَّبُع والأسد (الذى استخدم له القرآن كلمة "قَسْوَرَة") والقِردَة والكلب والخنزير والغراب والهدهد والسلوى والضفادع والحوت والحية والثعبان والجوارح والنحل والجراد والبعوضة والعنكبوت والذباب والنمل والقُمَّل: "إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا" (البقرة/ ٢٦)، "الْمَنَّ وَالسَّلْوَى" (البقرة/ ٥٧، والأعراف/ ١٦٠، وطه/ ٨٠)، "بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ" (البقرة/ ٦٨)، "بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا" (البقرة/ ٦٩)، "إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا" (البقرة/ ٧٠)، "وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ" (البقرة/ ٢٦٩)،"وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ" (المائدة/ ٣)، "وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ" (المائدة/ ٤)، "فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" (المائدة/ ٣١)، "قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ" (المائدة/ ٦٠)، "وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا

ممَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ إِنَّـهُ لَكُـمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ* ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَـيْنِ وَمِـنَ الْمَعْـزِ اثْنَـيْنِ قُـلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّـا اشْـتَمَلَتْ عَلَيْـهِ أَرْحَـامُ الأُنْثَيَـيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِـنَ الْبَقَـرِ اثْنَـيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْـهِ أَرْحَـامُ الأُنْثَيَـيْنِ" (الأنعام/١٤٢- ١٤٤)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَـادُوا حَرَّمْنَـا كُـلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَـيْهِمْ شُـحُومَهُمَا إِلاَّ مَـا حَمَلَـتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَـا أَوْ مَـا اخْـتَلَطَ بِعَظْـمٍ" (الأنعـام/ ١٤٦)، "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَـرَادَ وَالْقُمَّـلَ وَالضَّـفَادِعَ وَالـدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ" (الأعراف/ ١٣٣)، "فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْـبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَـثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَـثْ" (الأعـراف/ ١٧٦)، "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْـلِ تُرْهِبُـونَ بِـهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَـدُوَّكُمْ وَآخَـرِينَ مِـنْ دُونِهِـمْ لا تَعْلَمُـونَهُمُ اللَّـهُ يَعْلَمُهُمْ" (الأنفال/ ٦٠)، "هَذِهِ نَاقَـةُ اللَّـهِ لَكُـمْ آيَـةً" (هـود/ ٦٤)، "يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْـدَ مَتَاعِنَـا فَأَكَلَـهُ الذِّئْبُ" (يوسف/ ١٧)، "وَقَالَ الْمَلِـكُ إِنِّـي أَرَى سَـبْعَ بَقَـرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ" (يوسـف/ ٤٣)، "وَالْخَيْـلَ وَالْبِغَـالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُـقُ مَـا لا تَعْلَمُـونَ" (النحـل/ ٨)، "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِـذِي مِـنَ الْجِبَـالِ بُيُوتًـا وَمِـنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" (النحل/ ٦٨)، "وَكَلْـبُهُمْ بَاسِـطٌ ذِرَاعَيْـهِ

بالْوَصيدِ" (الكهف/ ١٨)، "فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا" (الكهف/ ٦١)، "قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى* قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى" (طه/ ١٨- ٢٠)، "نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ" (الأنبياء/ ٧٨)، "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ" (الحج/ ٧٣)، "فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ" (الشعراء/ ٣٢)، "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ" (النمل/ ١٨)، "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ" (النمل/٢٠)، "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (العنكبوت/ ٤١)، "إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ" (لقمان/ ١٩)، "فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ" (الصافات/ ١٤٢)، "قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ" (ص/ ٢٤)، "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا" (الجمعة/ ٧)، "كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ" (المدثر/ ٥١)، "أَفَلا

يَنظُرُونَ إِلَى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" (الغاشية/١٧)، "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" (الفيل/ ١).

وأما الثمار والفواكه والنباتات والأشجار التى كان يعرفها العرب فقد ذكر القرآن منها التين والزيتون والأعناب والرمان والنخيل والبقل والعَدَس والبصل والقثّاء والفُوم (وهو الثوم أو الحنطة) والقمح واليقطين (القَرْع) والخَمْط (الأراك) والأثْل (الطرفاء) والسِّدْر والطَّلْح والريحان والقَضْب والأبّ والضَّريع: "فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا" (البقرة/ ٦١)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (الأنعام/ ٩٩)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ" (الأنعام/ ١٤١)، "وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ" (يوسف/ ٤٣)، "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا" (الكهف/ ٣٢)، "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا" (مريم/

٢٥)، "وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ" (طـه/ ٧١)، "يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ" (النور/ ٣٥)، "وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ" (سبأ/ ١٦)، "وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ" (الصافات/ ١٤٦)، "وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ" (ق/ ٩)، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠)، "فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ* وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ" (الرحمن / ١١- ١٢)، "فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ" (الرحمن/ ٦٨)، "فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ" (الواقعة/ ٢٨- ٢٩)، "فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ" (الواقعة/ ٨٩)، "مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ" (الحشر/ ٥)، "فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا*فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا* وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً* وَحَدَائِقَ غُلْبًا* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ" (عبس/ ٢٤- ٣٢)، "لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ" (الغاشية/ ٦)، "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ" (التين/١).

وتبقى المعادن والجواهر والملابس: "وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ" (آل عمران/ ١٤)، "فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ (أى الفضة) هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ" (الكهف/ ١٩)، "لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ

منْ ذَهَـب وَيَلْبَسُـونَ ثيَابًـا خُضْـرًا مـنْ سُـنْدُس وَإسْـتَبْرَق" (الكهف/ ٣١)، "يُحَلَّوْنَ فيهَا مـنْ أَسَـاورَ مـنْ ذَهَـب وَلُؤْلُـؤًا وَلبَاسُهُمْ فيهَا حَريـرٌ" (الحـج/ ٢٣، وفـاطر/ ٣٣)، "وَأَلَنَّـا لَـهُ الْحَديدَ" (سبأ/ ١٠)، "وَأَسَـلْنَا لَـهُ عَـيْنَ الْقطْـر"(سـبأ/ ١٢)، "وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحدَةً لَجَعَلْنَا لمَـنْ يَكْفُـرُ بـالرَّحْمَن لبُيُوتهمْ سُقُفًا منْ فضَّـة وَمَعَـارجَ عَلَيْهَـا يَظْهَـرُونَ" (الزخـرف/ ٣٣)، "فَلَوْلا أُلْقيَ عَلَيْه أَسْـورَةٌ مـنْ ذَهَـب" (الزخـرف/ ٥٣)، "يَلْبَسُـونَ مـنْ سُـنْدُس وَإسْـتَبْرَق مُتَقَـابلينَ" (الـدخان/ ٥٣)، "وَيَطُوفُ عَلَيْهمْ غلْمَانٌ لَهُـمْ كَـأَنَّهُمْ لُؤْلُـؤٌ مَكْنُـونٌ" (الطـور/ ٢٤)، "يَخْرُجُ منْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَـانُ" (الـرحمن/ ٢٢)، "يُرْسَـلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ منْ نَار وَنُحَاسٌ فَـلا تَنْتَصـرَان" (الـرحمن/ ٣٥)، "كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَـانُ" (الـرحمن/ ٥٨)، "وَأَنْزَلْنَـا الْحَديـدَ فيه بَأْسٌ شَديدٌ وَمَنَافعُ للنَّـاس" (الحديـد/ ٢٥)، "وَجَـزَاهُمْ بمَـا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَريرًا" (الإنسان/ ١٢)، "وَيُطَافُ عَلَـيْهمْ بآنيَـة مـنْ فضَّة وَأَكْوَاب كَانَتْ قَوَاريرَ" (الإنسان/ ١٥).

وفى القرآن المجيد أيضًا ذكْرٌ لمكة ويثـرب والمدينـة ولسـان العرب، وقريش ورحلتيها إلى الشام والـيمن، والكعبـة وإبـراهيم أبى العرب وابنه إسماعيـل، وسـقاية الحجـيج وعمـارة المسـجد الحرام، وسبإ وعاد وثمـود ومَـدْيَن، وهُـود وصـالح وشُـعَيْب، واليهود والنصـارى والصـابئين والمَجُـوس، والشِّـعْر والشـعراء

والكُهّان والنفّاثات فى العُقَد، والأشهر الحُـرُم، وهـى ذو القعـدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وكانوا يتوقفـون فيهـا عـن القتـال والأخذ بالثأر ويجعلونهـا شـهور هدنـة، وإن كـانوا أحيانـا مـا يستمرون فيه معوِّضين عنها بشهور أخـرى يتوقفـون فيهـا عـن المعارك، وهو ما يسمونه: "النَّسِىء". كمـا كـان الأخـذ بالثـأر تقليدا جاهليا راسخا فى أعماق الـنفس العربيـة، ولكـنْ بالمقابـل كانت مكة بما فيها الكعبة حَرَمًا آمنا لا يجـوز الأخـذ بالثـأر فيـه مهما كانت الأسباب والمغريات، ولذلك يقـال: "البلـد الحـرام"، و"البيت الحرام"، و"المسجد الحرام". وقد كان هـذا كلـه جـزءا من حياة العرب وجغرافيتهم وتـاريخهم وثقافتـهم ودينـهم: "وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بالْحَقِّ وَمَـنْ قُتِـلَ مَظْلُومًـا فَقَـدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّه سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْـلِ (بالأخـذ بالثـأر) إنَّـهُ كَانَ مَنْصُورًا (باقتصاص الدولة من القاتل أو بأخـذها الديـة منـه لأوليـاء القتيـل حسـبما يختـارون)" (الإسـراء/ ٣٣)، "إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّـاسِ لَلَّـذِي بِبَكَّـةَ (أى مكـة) مُبَارَكًـا وَهُـدًى لِلْعَالَمِينَ* فيه آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْرَاهِيمَ وَمَـنْ دَخَلَـهُ كَـانَ آمِنًـا وَلِلَّه عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْـهِ سَـبِيلاً وَمَـنْ كَفَـرَ فَإنَّ اللَّه غَنِيٌّ عَـنِ الْعَـالَمِينَ" (آل عمـران/ ٩٦– ٩٧)، "وَهُـوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّـةَ مِـنْ بَعْـدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا* هُـمُ الَّـذِينَ كَفَـرُوا

وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ" (الفتح/ ٢٤- ٢٥)، "لإيلاف قُرَيْش* إيلافهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْف" (قريش/ ٢)، "جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (المائدة/ ٩٧)، "وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا" (الأحزاب/ ١٣)، "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (البقرة/ ١٢٥- ١٢٩)، "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ" (الحج/ ٧٨)، "أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ

آمَنَ باللَّه وَالْيَوْمِ الآخرِ وَجَاهَدَ فـي سَـبيلِ اللّـه" (التوبـة/ ١٩)، "وَقَالَت الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَـاءُ اللَّـه وَأَحبَّـاؤُهُ قُـلْ فَلـمَ يُعَذِّبُكُمْ بذُنُوبكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَـرٌ ممَّـنْ خَلَـقَ يَغْفـرُ لمَـنْ يَشَـاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَللَّه مُلْـكُ السَّـمَاوَات والأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا وَإِلَيْه الْمَصيرُ" (المائدة/ ١٨)، "يَا أَيُّهَـا الَّـذينَ آمَنُـوا لا تَتَّخـذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَـنْ يَتَـوَلَّهُمْ مـنْكُمْ فَإِنَّهُ منْهُمْ إنَّ اللَّهَ لا يَهْدي الْقَـوْمَ الظَّـالمينَ" (المائـدة/ ٥١)، "إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَالَّذينَ هَادُوا وَالصَّابئُونَ وَالنَّصَارَى مَـنْ آمَـنَ باللَّـه وَالْيَوْمِ الآخرِ وَعَملَ صَالحًا فَلا خَوْفٌ عَلَـيْهِمْ وَلا هُـمْ يَحْزَنُـونَ" (المائـدة/ ٦٩)، "إنَّ الَّـذينَ آمَنُـوا وَالَّـذينَ هَـادُوا وَالصَّـابئينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّـذينَ أَشْـرَكُوا إنَّ اللَّـهَ يَفْصـلُ بَيْـنَهُمْ يَوْمَ الْقيَامَة إنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ شَـهيدٌ" (الحـج/ ١٧)، "لَقَـدْ كَانَ لسَبَإٍ في مَسْكَنهمْ آيَةٌ جَنَّتَان عَـنْ يَمـينٍ وَشـمَالٍ" (سـبأ/ ١٥)، "وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُـعَيْبًا فَقَـالَ يَـا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللَّـهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخرَ وَلا تَعْثَـوْا فـي الأَرْضِ مُفْسـدينَ* فَكَـذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارهـمْ جَـاثمينَ* وَعَـادًا وَثَمُـودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مـنْ مَسَـاكنهمْ وَزَيَّـنَ لَهُـمَ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّـبيلِ وَكَـانُوا مُسْتَبْصـرِينَ" (العنكبـوت/ ٣٦– ٣٨)، "قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَـا يَعْبُـدُ آبَاؤُنَـا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ في أَمْوَالنَا مَا نَشَاءُ إنَّكَ لأَنْتَ الْحَلـيمُ الرَّشـيدُ* قَـالَ

يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ* وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ" (هود/ ٨٧– ٨٩)، "وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" (النحل/ ١٠٣)، "وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ" (الشعراء/ ١٩٢– ١٩٥)، "وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا" (الأحقاف/ ١٢)، "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ" (يس/ ٦٩)، "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" (الشعراء/ ٢٢٤)، "فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ* أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ" (الطور/ ٢٩– ٣٠)، "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ* وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الحاقة/ ٤٠– ٤٣)، "وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ" (الفلق/ ٤)، "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ* إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ

يُضَلُّ به الَّذينَ كَفَرُوا يُحلُّونَــهُ عَامًــا وَيُحَرِّمُونَــهُ عَامًــا ليُوَاطئُــوا عدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّــنَ لَهُــمْ سُــوءُ أَعْمَــالهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْــدي الْقَــوْمَ الْكَــافرينَ" (التوبــة/ ٣٦- ٣٧)، "إِنَّمَــا أُمرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذه الْبَلْدَة الَّــذي حَرَّمَهَــا وَلَــهُ كُــلُّ شَــيْءٍ وَأُمرْتُ أَنْ أَكُونَ منَ الْمُسْــلمينَ" (النمــل/ ٩١)، "أَوَلَــمْ نُمَكِّــنْ لَهُمْ حَرَمًا آمنًا يُجْبَى إِلَيْه ثَمَرَاتُ كُــلِّ شَــيْءٍ رزْقًــا مــنْ لَــدُنَّا" (القَصَص/ ٥٧)، "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَــا حَرَمًــا آمنًــا وَيُتَخَطَّــفُ النَّاسُ منْ حَوْلهِمْ أَفَبِالْبَاطــلِ يُؤْمنُــونَ وَبنعْمَــة اللَّــه يَكْفُــرُونَ" (العنكبوت/ ٦٧)، "يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُــوا لا تُحلُّــوا شَــعَائرَ اللَّــه وَلا الشَّهْرَ الْحَــرَامَ وَلا الْهَــدْيَ وَلا الْقَلائــدَ وَلا آمِّــينَ الْبَيْــتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً منْ رَبِّهِمْ وَرِضْــوَانًا وَإِذَا حَلَلْــتُمْ فَاصْــطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَــدُّوكُمْ عَــنِ الْمَسْــجد الْحَــرَام أَنْ تَعْتَدُوا" (المائدة/ ٢)، "سُبْحَانَ الَّــذي أَسْــرَى بعَبْــده لَــيْلاً مــنَ الْمَسْجد الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْــجد الأَقْصَــى الَّــذي بَارَكْنَــا حَوْلَــهُ" (الإسراء/ ١).

كما أبرز القرآن فى أكثــر مــن موضــع تمسُّــك العــرب الجاهليين بما تركه لهم الأجــداد والآبــاء مــن عــادات وتقاليــد تمسكا حديديًّا: "وَإِذَا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَــالُوا بَــلْ نَتَّبِــعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْه آبَاءَنَا أَوَلَــوْ كَــانَ آبَــاؤُهُمْ لا يَعْقلُــونَ شَــيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ" (البقرة/ ١٧٠)، "وَإِذَا قيلَ لَهُمْ تَعَــالَوْا إِلَــى مَــا أَنْــزَلَ

اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ" (المائدة/ ١٠٤)، "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ" (الزخرف/ ٢٢).

وبالإضافة إلى الكلام عن الوثنيين نجد القرآن الكريم يتحدث عن عقائد اليهود والنصارى مبينًا أن كُلاً من الطائفتين كانوا يرددون أهم أبناء الله وأحباؤه، وأن اليهود كانوا يقولون إهم لن يعذَّبوا يوم القيامة إلا أياما معدودات، وأن منهم من كان يجعل عُزَيْرًا ابن الله مثلما كان النصارى يقولون إن المسيح هو ابن الله، وإن كان الأخيرون يثلِّثون الألوهية، ومنهم من كان يعبد مريم والمسيح مع الله. بل لقد اتخذوا من أحبارهم ورهباهم أربابا من دون الله يتبعون ما أدخلوه لهم فى الدين من عقائد وعبادات وشرائع ما أنزل الله بها من سلطان. كما ذكر القرآن تحريف الفريقين لكتبهم، ونَصَّ على الأطعمة المحرَّمة على اليهود وما أضافوه إليها مما لم يحرّمه سبحانه عليهم، وهو لحم الإبل، وأشار إلى عقيدهم فى النبوة وأها محصورة طبقا لدعواهم فى بنى إسرائيل، وزَعْمهم أن الله قد عَهِدَ إليهم ألا يؤمنوا بأى رسول إلا إذا أتاهم بقربان تنزل عليه من السماء نار تلتهمه، وأنه سبحانه لم يجعل عليهم فى غير اليهود سبيلا، ومن ثم كان من حقهم أن يسرقوهم ويخونوا أماناهم معهم

دون خوف من عقاب الله، وادعائهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" (المائدة/ ١٨)، "قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجمعة/ ٦)، "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ (أى بنى إسرائيل) قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" (آل عمران/ ٢٤)، "وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (التوبة/ ٣٠- ٣١)، "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (المائدة/ ١٧)، "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ

وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَار* لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (المائدة/ ٧٢-٧٣)، "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ" (المائدة/ ١١٦)، "وَإِنَّ مِنْهُمْ (أي من اليهود) لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ" (البقرة/٧٨- ٧٩)، "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ" (النساء/ ٤٦)، "فَبِمَا نَقْضِهِمْ (أي بني إسرائيل) مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا

يَصْنَعُونَ" (المائدة/ ١٣- ١٤)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" (الأنعام/ ١٤٦)، "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران/ ٩٣)، "الَّذِينَ قَالُوا (أي اليهود) إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران/ ١٨٣)، "وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (من يهود المدينة) آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ* وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (آل عمران/ ٧٢- ٧٥)، "وَقَوْلِهِمْ (أي اليهود) إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ

وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء/ ١٥٧– ١٥٨). ويبقى المجوس، وهناك آية قرآنية تتحدث عن التثنية فى الألوهية هذا نصّها: "وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُون" (النحل/٥١)، وأقرب ما يمكن أن يفد إلى الذهن هنا ثَنَوِيَّة فارس، إذ كانوا يعبدون إلهين: واحدا للنور، والآخر للظلمة. وأغلب الظن أنه كان هناك عرب يؤمنون بها تأثرًا بالفرس.

الأنساب والأحلاف والديانات والمعارف والفنون والأيام والنيران والأسواق

أنساب العرب: اتفق علماء العرب القدماء على تقسيم العرب إلى نوعين: عاربة ومستعربة، قائلين إن العاربة هم العرب الأوائل الذين فهّمهم الله اللغة العربية ابتداءً فتكلموا بها، فقيل لهم: عاربة، إما بمعنى الراسخة في العروبية، وإما بمعنى المبتدعة لها. وقد يقال لهم: العرب العَرْباء. وأما المستعربة فهم الذين دخلوا في العروبية من بعد العُجْمَة. ثم اختُلف في من هم العرب العاربة ومن هم العرب المستعربة، فذهب بعضهم إلى أن العاربة هم عاد وثمود وطَسْم وجَدِيس وأُمِيم وعَبِيل والعمالقة وعبد صنم وجُرْهُم وحضرموت وحَضُوراء وبنو ثابر والسَّلَف ومن في معناهم. والمستعربة هم بنو قحطان بن عابر وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابر وإسماعيل عليه السلام كانت عجمية، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان في زمانهم، وتعلم بنو إسماعيل العربية من جُرْهُم ومن بني قحطان حين نزلوا عليه وعلى أمه بمكة. وذهب آخرون إلى أن بني قحطان هم العاربة، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط. كذلك قسم المؤرخون أيضًا العرب إلى بائدة وغيرها: فالبائدة هم الذين بادوا ودَرَسَتْ آثارهم كعاد وثمود وطَسْم وجَدِيس وجُرْهُم الأولى. ويلحق بهم مَدْيَن، فإنهم ممن ورد القرآن

بهلاكهم. وغير البائدة هم الباقون في القرون المتـأخرة بعـد ذلـك كجُرْهُم الثانية وسَبَا وبني عدنان. ثم منهم مـن بـاد بعـد ذلـك كجُرْهُم، ومنهم من تأخر حتى الآن كبقايا سَبَا وبني عدنان.

وينقسم العرب إلى قبائل، والقبيلـة هـي عمـاد الحيـاة في البادية، بها يحتمي الأعرابي في الـدفاع عـن نفسـه وعـن مالـه. والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمـع شـتاتها هـو "النسـب"، ويفسّر ذلك ارتباطُ أبناء القبيلة كلها بنسـب واحـد ودم واحـد. ويرجع أهلُ الأنسـاب نسـبَ كـل قبيلـة إلى جـدّ أعلـى، ثم يرجعون أجداد القبائل إلى أجدادٍ أقدم... وهكـذا، حـتى يصـلوا إلى الجَدَّيْن الأخيرين: قحطان وعدنان. وقـد حفظـت الكتابـات العربية الجنوبية أسماء عدد كـبير مـن القبائـل لم يعـرف أسمـاءَ أكثرها أهلُ الأخبار، وهي تفيدنا فائدة كـبيرة في الوقـوف علـى تلك القبائل الـتي كانـت قـد هلكـت أو انحلّـت واختلطـت بالقبائل الأخرى. وتتألف القبيلـة مـن بيـوت يختلـف عـددها باختلاف حجم القبيلة واختلاف المواسم. والقبيلـة هـي الحكومـة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي، وما تقـرره هـذه الحكومـة يطـاع وينفَّذ، وبها يستطيع أن يأخذ حقه من المعتدي عليـه. وقـد أطلـق أهل الأنساب لفظة "القبيلة" على الحَضَر أيضًـا: فقـريش قبيلـة، والأوس قبيلة، والخزرج قبيلة، وثقيف قبيلة. ووطـن القبيلـة هـو المضارب التي تنزلها والأماكن الـتي يمتـد نفوذهـا إليهـا، فهـو

يتقلص ويتسع حسب نفوذ القبيلة. وتتألف القبيلة من عمائر، كما تتألف العمائر من أقسام أقلّ. ويقول علماء العرب إن هناك تجمعات أكبر حجمًا من القبيلة أطلقوا عليها: "الشعوب"، ومثالها بنو قحطان وبنو عدنان، فكل منهما شَعْب، وما دونهما قبائل. ولفظة "الشعب" من الألفاظ الواردة في نصوص الخط المسند، وهي فيها بمعنى "قبيلة"، وتُكْتَب: "شعبن"، أي "الشعب"، لأن حرف النون في أواخر الأسماء أداة للتعريف في اللغات العربية الجنوبية. ويلي الشعبَ في اصطلاح أهل النسب: القبيلةُ، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة. فالشعب هو النسب الأبعد مثل عدنان و قحطان، والقبيلة مثل ربيعة ومضر، والعمارة مثل قريش وكنانة، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم، ومثل بني هاشم وبني أميّة، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس. وجعل "ابن الكلبي" مرتبةً بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة، وهي رَهْط الرجل.

وقسّم النويري النظام القبلي عند العرب إلى عشر طبقات مبتدئا بـ"الجِذْم"، أى الأصل، وهو قحطان وعدنان، وهذه هى الطبقة الأولى. ثم الجماهير، وهي الطبقة الثانية. ثم الشعوب، وهى الطبقة الثالثة. ثم الطبقة الرابعة: القبيلة، وهي التي دُونَ الشعب، وتَجْمَع العمائر. ثم الطبقة الخامسة: العمائر،

وهي التي دون القبائل، وتجمع البطون. ثم الطبقة السادسة: البطون، وهي التي تجمع الأفخاذ. ثم الطبقة السابعة: الأفخاذ، وهي أصغر من البطون، والفَخِذ تجمع العشائر. ثم الطبقة الثامنة: العشائر، واحدها عشيرة، وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء. ثم الطبقة التاسعة: الفصائل، واحدها فصيلة، وهم أهل بيت الرجل وخاصته. ثم الطبقة العاشرة: الرهط، وهم الرجل وأسرته. وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي الأسرة، أي "البيت"، فهي نواة القبيلة، ومنها نبتت شجرتها التي يختلف حجمها وعدد أغصانها وفروعها باختلاف منبتها والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها. وقد اصطلح علماء النسب على أن للعرب بعد قحطان وعدنان أربعة أركان: ربيعة ومضر ويمن وقضاعة. ولا يمكن أن يخرج نسب عربي أصيل عن أصل من هذه الأصول.

وأسماء القبائل عند العرب على خمسة أَضْرُب: أولها أن يُطْلَق على القبيلة لفظة "الأب" كعاد وثمود ومدين ومن شاكلهم. وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى: "وإلى عاد"، "وإلى ثمود"، "وإلى مدين"، يريد بني عاد وبني ثمود. وأكثر ما يكون ذلك في الشعوب والقبائل العظام، لا سيما في الأزمان المتقدمة، بخلاف البطون والأفخاذ ونحوهما. وثانيهما أن يطلق على القبيلة لفظ "بنو فلان"، وأكثر ما يكون ذلك في البطون

والأفخاذ والقبائل الصغار، وبخاصة في الأزمـان المتـأخرة. وثالثهـا أن تَرِد القبيلة بلفـظ الجمـع مـع الألـف والـلام كالطـالبيين والجعافرة ونحوهما، وأكثـر مـا يكـون ذلـك في المتـأخرين دون غيرهم. ورابعها أن يعبر عنها بـــ"آل فـلان" كـآل ربيعـة وآل فضل وآل علي وما أشبه، وأكثـر مـا يكـون ذلـك في الأزمنـة المتأخرة لا سيما في عرب الشـام في زماننـا، والمـراد بـــ"الآل" الأهل. وخامسها أن يعـبر عنـها بـــ"أولاد فـلان"، ولا يوجـد ذلك إلا في المتأخرين في أفخاذ العرب على قلة.

وغالب أسماء العرب منقولة ممـا يخالطونـه ويجاورونـه مـن الحيوان كـ"أسد ونمر"، أو من النبات كـــ"نبـت وحنظلـة"، أو مـن الحشـرات كـــ"حيـة وحـنش"، أو مـن أجـزاء الأرض كـ"فِهْر وصخر" ونحوه. والغالب على العـرب تسـمية أبنـائهم بمكروه الأسماء كـ"كلب وحنظلـة وضـرار وحـرب"، وتسـمية عبيدهم بـمحبوب الأسماء كـ"فلاح ونجاح". ويحكـى أنـه قيـل لواحد منهم: لم تسـمون أبنـاءكم بشـر الأسمـاء نحـو "كلـب وذئب"، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو "مـرزوق وربـاح"؟ فكـان جوابه: إنما نسمي أبناءنا لأعـدائنا، وعبيـدنا لأنفسـنا. يريـد أن الأبناء مُعَدّة للأعداء فاختاروا لهم شـر الأسمـاء، والعبيـد مُعَـدّة لأنفسهم فاختاروا لهم خـير الأسمـاء. وكـان العـرب يتعـززون بانتسابهم إلى اليمن، فكان من ينقلب علـى نسـبه يتخـذ لنفسـه

نسبًا يمانيًّا لأجل أن الملوك كانت في اليمن، مثـل آل النعمـان بـن المنذر مـن لخـم، وآل سـليح مـن قضـاعة، وآل محـرق، وآل العرنجج، وهو حِمْيَرَ الأكبر.

وكان هناك، إلى جانب النسب، نـوع ارتبـاط آخـر بـين القبائل العربية هو الأحلاف، التى كانت حاجـة الأعـراب إليهـا أكثر وأشد من حاجة الحضر، إذ الغـزو في الباديـة ضـرورة مـن ضرورات الحياة لفقرها وشحها ولانبساط أرضـها وعـدم وجـود حواجز طبيعية تعوق الغزو وتحمي المغزوّ منـه، فاضـطُرّت القبائـل إلى اصطناع حماية طبيعية لها هـي الأحـلاف. وغايـة الأحـلاف حماية المال والنفس وكبح جماح المعتـدين، وهـذه هـى الأحـلاف الدفاعية. أما الأحلاف الهجوميـة الـتي تُعْقَـد لتحقيـق أغـراض هجومية، مثل غزو حلف حلفًـا آخـر، أو قبيلـة ضـخمة قبيلـةً ضخمةً أخرى، فإنهـا لا تعمَّـر طـويلا كمـا تعمَّـر الأحـلاف الدفاعية لأن أسباب انعقادها تزول بتنفيذ مـا اتُّفِـق عليـه. وقـد يتحطم الحلف بسـبب ظهـور اخـتلاف فى المصـالح أو طـروء مصالح لم تكـن في حسـبان المتحـالفين يـوم عقـدوا حلفهـم، فيتصدع بنيان الحلف ويتهدم ليظهر محله حلف آخر جديد.

أما الحَضَر، فإن لهم من حماية أرضـهم ومـن طبيعـة الحيـاة التي يحيونها ما يخفف مـن حاجتـهم إلى الحِلْـف القبلـي ويجعـل أحلافهم طرازا آخر، فقد منحتهم الطبيعة حجرًا صَـلْدًا بَنَـوْا بـه

أبراجًا وحصونًا ومعاقل حَمَوْا بها مساكنهم من طمع الطامعين، ولا سيما الأعراب الذين لا يسهل عليهم اقتحام الحصون ولا تهديمها لعدم وجود أسلحة لديهم تؤثر فيها. كما أمدتهم بمواد بناء مكنتهم من إنشاء الحيطان والأسوار حولها. وغاية ما فعله الحضر من الأحلاف هو تحالفهم مع من أحاط بهم من الأعراب لضمان عدم تحرشهم بهم أو لمنع الأعراب الآخرين من مثل هذا التحرش، وكذلك عقد معاهدات مع القبائل لمرور تجارتهم من أرضها بأمن وسلام مقابل هدايا أو أرباح أو أموال تدفع إلى ساداتها تأليفًا لقلوبهم وضمانًا لعدم احتكاك أحد منهم بهم.

ومن أهم القبائل القحطانية التي كان لها شأن يذكر عند ظهور الإسلام حِمْيَر وكَهْلان. ومن مجموعة حمير: قُضَاعة في رأي من جعل قضاعة من اليمن. ومن قضاعة: كلب وأسد، ومن أسد: تنوخ. وأما مجموعة كهلان فتتألف من الأزد وهَمْدان ومَذْحِج وطَيِّ، ومن الأزد: غسان والأوس والخزرج وربيعة من القبائل العربية الكبيرة العدد. وقد عُرِفَتْ "ربيعة" بـ"ربيعة الفرس". وإنما قيل له: "ربيعة الفرس" لأنه (كما جاء عند القدماء) أُعْطِيَ من ميراث أبيه الخيل، وأُعْطِيَ أخوه مُضَر الذهب فسُمِّيَ: "مضر الحمراء". وأُعْطِيَ أنمار أخوهما الغنم فسُمِّيَ: "أنمار الشاة". وذُكِر أيضًا أن نزارًا لما حضرته الوفاة آثر إيادًا بولاية الكعبة، وأعطى مُضَر ناقة حمراء، فسُمِّيَ:

"مضر الحمراء"، وأعطى ربيعة فرسه، فسُمُّوا: "ربيعة الفرس"، وأعطى أنمار جارية له تسمى: "بجيلة" فحضنت بنيه، فسُمِّيَ: "بجيلة أنمار". ومن أشهر قبائل مضر: قريش، حتى إن الناس كانوا إذا قالوا: "مُضَرِيّ" انصرف ذهنهم إلى معنى "قرشي" لاشتهار قريش بالمضرية.

ولقد أُطْلِقَ على بعض القبائل ألقاب فقيل: كِنْدَة الملوك، ومَذْحِج الطعّان، وهَمْدان أحلاس الخيل، والأَزْد أُسْد البأس. وبعض هذه الألقاب ألقاب حسنة جميلة، وبعضها ألقاب تشير إلى قوة وشدة، وبعضها لا غضاضة فيه. وهي ألقاب كانت القبائل المسمّاة بها تتخذها مفخرا وسبيلا إلى المباهاة، أو على الأقل لا ترى بها بأسًا. غير أن هناك ألقابا أخرى تشير إلى استصغار شأن القبيلة التي نُعتت بها، مثل "القَيْن" و"الأجارب" و"الأقارع" و"قُرَاد" وما شاكل ذلك، ولم تر الأجيال التالية عارا في مثل تلك الألقاب. واشتهرت طَيِّئ بالجود لموقع حاتم وأوْس بن حارثة منها. وعُرِفَتْ باهلة باللؤم، حتى ضُرِب بها المثل فقيل: "لؤم باهلة". واشتهر بنو ثُعَل بالرمي. واكتسبت مُذْلِج شهرة واسعة في القيافة، إذ اختصت بها من بين سائر العرب. وبرَّز بنو لِهْب في العيافة، فهم أَزْجَر العرب وأَعْيَفهم. وعُرِفَت إياد بخطبائها، وملوك غَسّان بثريدهم فقيل: "ثريدة غسان". وعُرِفت كندة بغلاء مهور بناتهم. وعُرِفت "خُزَاعة" بالجوع والأحاديث، أي أنهم يجمعون بين الفقر والدعاوَى الفارغة.

وفى كتب التراث نقرأ كلاما كثيرا فى هذا الموضـــوع: ففـــى "الاشتقاق" مثلا لابن دُرَيْد أن بنى لِهْب أَعْيَفُ العـــرب وأَزْجَـــرُهم للطير. وفى "عيون الأخبار" لابن قُتَيْبَة أن كُثَيِّر عَزّة الشاعر الأمـــوى المعروف احتاج ذات مرة أن يستعين بأحد من العافة فدُلَّ على بـــنى لِهْب، وكانت عيافتهم له دقيقة حسبما ورد فى الخبر، فقال فى ذلك:

تَيَمَّمتُ لِهْبًا أَبتَغي العلم عِندَهُم وَقَـــد رُدَّ عِلمُ العَائفينَ إلى لِهْبِ

ومن الشواهد المتداوَلة فى باب "المبتدإ والخبر" من كتب النحو البيت التالى، ويُنْسَب لرجل من طَـــيِّئ:

خبيرٌ بنـــو لِهْبٍ، فلا تَكُ مُلْغيًا مقـــالةَ لِهْبِيٍّ إذا الـــطيرُ مـــرَّتِ

وفى "البيان والتبيين" يقول الجاحظ فى التقـــديم لبيـــت شـــعر يمدح فيه صاحبُه خطيبًا إياديًّا من الخوارج الأزارقـــة: "وقـــد ذكـــر الشَّاعرُ زيدَ بنَ جنـــدبٍ الإيـــاديّ الخطيـــبَ الأزرقـــيَّ في مرثيتـــه لأبي دُوَادِ بنِ حَرِيزٍ الإيادي حيثُ ذكره بالخَطَابـــة وضـــرب المثـــلَ بخطباء إياد فقال:

كقُسِّ إيادٍ أو لقيط بن مَعْبَـــدٍ وعُذْرَةَ والمِنْطيق زيد بن جُنْدب"

وفى "البيان والتبيين" أيضـــا "أن رســـول اللّـــه صـــلى الله عليـــه وسلم قال: لا تغالُوا بالنّساء فإنمـــا هُـــنّ سُـــقْيا اللّـــه... (وعـــن) مُجالد عن الشَّعبي: قال رســـول اللّـــه صـــلى الله عليـــه وســـلم: اللهمَّ أذهبْ مُلكَ غسَّـــان، وضَـــعْ مهـــور كِنْـــدة". وفى كتـــاب "البخلاء" يتعجب بطـــل إحـــدى القصـــص مـــن براعـــة قـــوم فى

الاستدلال على الحقائق الغائبة من بعض الشـواهد الـتى لا تلفـت نظر الآخرين فيقول: "هذه والله القيافة، ولا قيافـة بـنى مُـدْلج". وفيه أيضا: "قيل لرجل من العرب: قـد نزلْـتَ بجميـع القبائـل، فكيف رأيت خزاعـة؟ قـال: جـوع وأحاديـث". وفى "العقـد الفريد": "ومن بني ثُعَل عمرو بن المُسـبِّح. كـان أرمـى العـرَب، وإيّاه يَعْني امرؤ القَيْس بقوله:

رُبَّ رام من بَني ثُعَلٍ   مخْرجٌ كَفَّيْه من قُتَرِه

وأدرك النبيَّ عليه الصلاة والسلام وهو ابـن خمـس ومائـة سنة فأسْلَم". ويقول المرادى صـاحب "سِـلْك الـدُّرَر فى أعيـان القرن الثانى عشر" إن بنى ثُعَل "قبيلة مـن العـرب رمـاة يُضْـرَب بهم المثل لجـودة رمـيهم". وفى "الـوافى بالوَفَيـات" للصـفدى: "وكانت العرب تستنكف مـن الانتسـاب إلى باهلـة حـتى قـال الشاعر:

وما ينفع الأصلُ من هاشمٍ   إذا كانت النفس من بـاهلهْ

وقال الآخر:

ولو قيل للكلب: يا باهلـيُّ عَوَى الكلب من لؤم هذا النسبْ

وقيل لأبي عبيدة: يقال إن الأصـمعي دُعِـيَ في النسـب إلى باهلة. فقال: هذا مـا يمكـن. فقيـل: ولِمَ؟ قـال: لأن النـاس إذا كانوا من باهلة تبرَّؤا منـها، فكيـف يجـيء مـن لا هـو منـها فينتسب إليها؟". وفى "ثمار القلـوب فى المضـاف والمنسـوب" لأبى

منصور الثعالبي وتحت عنوان "لؤم باهلة" نقرأ: "ولم تزل العرب تصف باهلة باللؤم في الجاهلية والإسلام، ثم خَفِيَتْ منهم تلك الصفة، وشَرُفَتْ بقُتَيْبَة بن مُسْلِم وبنيه حتى قال القائل:

إذا ما قريشٌ خلا مُلْكُها فإن الخلافة في باهلَهْ

ومما يُحْكَى من لؤم باهلة أنه قيل لأعرابي: أيسرّك أن لك مئة ألف درهم وأنت باهلي؟ فقال: لا والله. فقيل: أفيسرّك أن لك حُمْرَ النعم وأنك منها؟ قال: اللهم لا. قيل: أفيسرك أنك في الجنة وأنت باهلي؟ قال: نعم، ولكن بشريطة ألا يعلم أهلها أنني منها". وتحت عنوان "فيما يضاف ويُنْسَب إلى القبائل" من ذات الكتاب نجد قائمة الألقاب القبلية التالية: "إيلاف قريش، تيه بني مخزوم، جود طيء، لؤم باهلة، رُمَاة بني ثعل، قيافة بني مدلج، عيافة بني لهب، خطباء إياد، ثريدة غسان، مهور كِندة، حَرّة بني سليم". وفي "العقد الفريد" لابن عبد ربه: "سأل زيادٌ دَغْفلاً (النسّابة) عن العَرَب، فقال: الجاهليّة لليَمن، والإسلامُ لمُضَر، والفَيْنَة بينهما لرَبيعة. قال: فأخبِرْني عن مُضر. قال: فاخِرْ بكنانة، وكاثِرْ بتَميم، وحارِبْ بقَيْس، ففيها الفُرسان والأنجاد، وأما أسَد ففيها دَلٌّ وكِبْر. وسأل مُعاويةُ بن أبي سُفيان دَغْفلاً فقال له: ما تقولُ في بني عامر بن صَعْصعة؟ قال: أعْناق ظِبَاء، وأعجاز نساء. قال: فما تقول في بني أسد؟ قال: عافَةٌ قَافَة، فُصحاءُ كافَة، قال: فما

تقول في بني تميم؟ قال: حَجَرٌ أخْشَن إن صادفْته آذاك، وإن تركتَه أعْفاك. قال: فما تقول في خُزاعة؟ قال: جُوع وأحاديث؟ قال: فما تقول في اليَمن؟ قال: شِدَّة وإباء". ويقول ابن حمدون صاحب "التذكرة الحمدونية": "كان ملوك غسان يوصفون بالترفُّه والنعمة، فيقال: ثريدة غسان، كما يقال: فَالُوذ ابن جُدْعان، ومَضيرة أبي سفيان"... إلخ.

ولكلِّ قبيلة جد تنتمي إليه وتباهي به. وقد يكون هذا الجدّ جدًّا حقيقيًّا، أي إنسانًا عاش ومات وساد القبيلة وترك أثرًا كبيرًا فيها حتى نُسبت القبيلة إليه. وقد يكون الجد اسم حلْف تكوّن وتألّف من قبائل عديدة حتى عُرِفَتْ به وصار كأنه اسم جدها. ومن هذا القبيل اسم "تَنُوخ" على حد زعم أهل الأخبار، فقد رَوَوْا أن تنوخ قبائل عديدة اجتمعت وتحالفت وأقامت في مواضعها. وقد يكون الجدّ اسم موضع أقامت القبيلة به فنُسبت إليه كما يقول أهل الأخبار عن اسم "غسان". وقد يكون اسمَ إله نُسب عُبّاده إليه مثل "بنو سعد العشيرة"، و"تالب ريام" جد قبيلة "همدان". وقد يكون اسم حيوان أو نبات أو ما إلى ذلك مما يدخل في دراسة أصول الأسماء ومصادرها واشتقاقاتها.

ولا تقيم المصالح السياسية للقبائل وزنًا للأُخُوّة والنسب، فإذا اختلفت المصلحة لم تجد القبائل عندئذ أية

غضاضة في الانفصال عن قبيلة مؤاخية لها لتتحالف مع قبيلة أخرى ضدها. فـ"عَبْس" مثلاً تحالفت مع "بني عامر" في حرب البسوس على "ذبيان"، وهي أختها. وتحالفت "ذبيان" مع "تميم" على "عبس" مع ما بين "تميم" وبين "عبس" و"ذبيان" من عداء قديم. ووقعت حروب بين "تغلب" و"بكر" مع صلة الرحم والقرابة القوية التي كانت تربط بين القبيلتين الأختين. ولكل قبيلة أرض تعيش عليها وتنزل بها وتعدّها ملكًا لها تنتشر بها بطونها وعشائرها، ولا تسمح لغريب بالنزول فيها والمرور بها إلا بموافقتها ورضاها. وقد اختص كل بطن منها بناحيته فانفرد بها وعدّها أرضه. وتمتد أرض القبيلة إلى المواضع التي تصل بيوتها إليها، وتعيّن الحدود بتَلٍّ أو وادٍ أو ما شاكل ذلك. ونظرًا إلى عدم تثبيت القبائل أحيانًا لحدودها على الأرض برسم معالم بارزة لها صارت الحدود سببًا من أسباب النزاع المستمر والقتال الدائم بينها.

وتُعَدّ مواضع الماء في أرض القبيلة بمثابة قِبْلة لأبنائها، يستقون منها ما يحتاجون إليه من "إكسير الحياة". ولكل قبيلة حق حماية أرضها، شأنها في ذلك شأن الدول. وإذا أراد غريب اجتياز أرضها فلا بد أن يكون في حماية أحد أفرادها. وإذا كان المجتاز جماعة، كأن يكون قافلة أو قبيلة أو حيًّا يريد التنقل إلى أرض أخرى عبر تلك الأرض، فعليه أخذ إذن من القبيلة يخوّله

المرور بها، و إلا تعرض للمنع والقتال. لـذا كـان لا بـد للتجّـار من ترضية شيوخ القبائل للسـماح لهـم بـالمرور بـدفع إتـاوات تعارفت القبائل آنذاك على أخذها من العابرين.

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة مثل الملـك بالنسـبة لمملكتـه، فهو الرئيس والمرجع والمسؤول عن أتباعـه في السـلم والحـرب، يقصده ذوو الحاجات من أبنـاء القبيلـة إن احتـاجوا إلى حاجـة. وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل، وقد ينصّـب نفسـه ملكًـا عليها، كالذي فعله ملوك كندة من بني آكـل الـمُرَار وغيرهـم من الملوك. وربما لا نخطئ إذا ما قلنـا إن أكثـر مؤسسـي الأسـر المالكة في بلاد العرب كانوا سادات قبائـل في الأصـل، اسـتغلوا مواهبهم وإمكانات قبيلتهم وسخّروها في سـبيل الحصـول علـى المـُلْك فنالوه. وعلى من يسود قومـه أن يتحلـى بخـلال حميـدة وسجايا طيبة تجعل الناس يعترفون بسيادته علـيهم: كـأن يتحمـل أذى قومه، وأن يكون شـريفًا في أفعالـه حليمًـا كريمًـا يتجاهـل السفهاء فـلا يغضـب ولا يثـور، وأن يكظـم غيظـه ويحتـرم الآخرين مهمـا تكـن منـازلهم، وأن يؤلـف بينـهم ويكتسـب محبتهم، وأن يكون ملاذهم فى أوقـات الحاجـة، وأن يفـتح بيتـه وقلبه للجميع فيكرم كل من يفد إليه من كـبير أو صـغير. وعلـى الرئيس أيضا أن يكـون في مقدمـة القـوم في الحـروب والغـزو، وأن يكون شجاعًا لا يهاب المـوت، وأن يكـون واضـع خطـط

الحرب. والرئيس هو روح القبيلة وشعارها، فإذا أصيب بمكروه أو جَبُنَ في القتال أو خَرّ صريعًا في المعركة هربت قبيلته وتراجعت القهقرى، إلا إذا وُجد في القبيلة من يؤجج فيها نار الحماسة ويبث فيها العزيمة للوقوف والصمود.

ومن واجب الرئيس الإشراف على توزيع الغنائم، ومن حقه المِرْبَاع إن كان من ذوي المِرْبَاع. وعليه أن ينفق من جيبه على الضيوف، وأن يفتح بيته للقادمين إليه ويستقبلهم بوجه فرح بشوش، وأن يرعى شؤون قبيلته ويسأل عن أبنائها، وأن يسعى لفكّ من يقع من أبناء عشيرته أسيرًا في أيدي قبيلة أخرى، وأن يشارك قومه في تحمل الدّيَات حين يعجز رجال القبيلة عن حملها، وأن يعين أتباعه في كل جناية يجنونها. ومن هنا جاء قولهم: "سيّدٌ معمَّم"، يريدون أن كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه. ومن أعراف الحُكْم عند القبائل أن يشاور سيد القبيلة أشراف قبيلته ووجوهها في الأمور الهامة ليستنير برأيهم. ومن شأن هذه المشورة أن تساعد سادات القبائل مساعدة كبيرة في التمكن من إدارة أمور القبيلة إدارة حسنة ترضي الغالبية، وقد تُوصِّل الرئيس إلى النجاح والنصر في الغزو فيرتفع اسمه ويعلو نجمه. ورأي أشراف القبيلة هو مجرد مشورة لا تلزم سيد القبيلة العمل بموجبها، فقد ينبذه ويعمل برأيه، لا سيما إذا كان متجبرًا عنيدًا. وقد يكون

النجاح حليفه فتزداد هيبته بين أتباعه، وقد يُمْنَى بخسارة فادحة فتقضي عليه وعلى رئاسته، وربما قضت على حياته أيضًا. والنظام القبلي هو نظام استشاري، الرأي فيه لأصحاب الرأي فقط، أما الأفراد العاديّون فلا رأي لهم في تسيير الأمور، إلا إذا برز أحدهم وظهر في قبيلته بمواهب يُعْتَرَف بها كالحكمة والشرف، فعندئذ قد يدخل في عداد أُولي الرأي.

والنسب عند العربي هو جرثومة العصبية وأساسها، ولهذا كان يحرص على حفظ شجرة نسبه ويرفعها إلى جملة طويلة من الأجداد. وقد وجد السائحون أعرابًا سردوا لهم نسبهم سَرْدًا من غير كتاب مكتوب إلى عشرات من الأجداد، وتأكدوا بعد فحوص واختبارات أن ما سُرِد عليهم كان صحيحًا في الغالب. ونفس الشيء مع أهل المدَر، فهم يحرصون أيضا على حفظ نسبهم، وإن لم يكن كحرص أهل الوَبَر. وقد عثر الآثاريون على نقوش جاهلية ذكرت أسماء جملة أجداد لكاتبيها، وهو ما يثبت عناية العرب في الجاهلية بتدوين أنسابهم وحفظها. وقد يستلحق إنسان شخصًا ما، أي يُلْحِقه بنسبه ويجعله في حمايته وعصبيته. وقد يكون الشخص المستلحَق صريحًا معروف النسب، وقد يكون أسيرًا أو مولًى أو عبدًا، فيسميه المستَلْحِق: "مولاه" وينسبه إلى نفسه. ويقال للمستلحَق: "الدَّعِيّ"، ومثله المتبنَّى، وهو الذي تبناه رجل

ودعاه: "ابنه". وحُكْم الدعيّ عند الجاهليين هو حُكْم النسب الصحيح والبنوة الشرعية. لذلك كان الجاهليون يورّثونه كما يورّثون الأبناء.

ولـ"الجوار" صلة كبيرة بالنسب والعصبية عند للعرب، فقد يتوثق الجوار وتقوى أواصره فيصير نسبًا، و عندئذ يدخل نسب "المستجير" في نسب "المجير" ويصيران نسبا واحدا هو نسب هذا الأخير. وقد اندمجت بـ"الجوار" أنساب كثيرة من القبائل الصغيرة أو القبائل التي تشعر بخوف من قبيلة أخرى أكبر منها فتُضْطَرّ إلى طلب "جوار" قبيلة أكبر منها تدافع عنها وتحمي حيالها ومالها. فإذا استجار شخص بآخر أو استجارت قبيلة بأخرى اكتسب هذا الجواز صبغة قانونية، ووجب على المجير المحافظة على حق الجوار، و إلا نزلت المسبّة به وازدراه الناس.

أحلافهم: وكان للأحلاف شأن خطير في حياة الجاهليين، وتتلخص في أن يحلف كل طرف للآخر على التعاضد والاتفاق، وكانوا ينظرون إليها على أن لها قداسة خاصة وحرمة، ويعاملون الحانث بيمينه بأشد أنواع التحقير والازدراء. وتكون بين المتحالفين مواثيق على الوفاء بالالتزامات التي نُصَّ عليها، ويتم إعلان الحلف ليكون معلومًا بين الناس. وقد تُعْقَد الأحلاف لأغراض معينة فتكون لها آجال

محددة، كأن تسعى قبيلة لعقد حلف مع قبيلة أخرى لمساعدتها في صدّ غزو أو في غزو قبيلة أخرى أو في الأخذ بثأرها منها. ومثل هذه الأحلاف لا تعمَّر طويلا، إذ ينتهي أجلها بانتهاء الغاية التي من أجلها عُقِد الحلف. ولم يكن تفكير العرب ليتجاوز، عند عقدهم هذه الأحلاف، مصالح العشائر أو القبائل الخاصة، ولم تكن موجهة للدفاع عن بلاد العرب جميعا أمام عدو خارجي.

وتُعْقَد الأحلاف على النار، وهذه النار تسمى: "نار التحالف". ذلك أنهم كانوا إذا عقدوا حلفًا أوقدوا نارًا ودعَوْا بالحرمان من خيرها على من ينقض العهد. وقد أشار إلى هذه النار "أوس بن حجر"، إذ قال:

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه ... كما صدّ عن نار المهوّل حالفُ

كما أشار إليها الكميت:

هُمو خوّفوني بالعمى هُوّة الردى ... كما شبّ نار الحالفين المهوّلُ

ولا تُعْرَف صيغة واحدة معينة للقَسَم الذي يُقْسِم به المتحالفون: فمنهم من كانوا يقفون عند الأصنام التي يعبدونها ويقسمون بها. ومنهم، وهم أغلب أهل مكة، من كانوا يحلفون عند ركن الكعبة فيضع المتحالفون أيديهم عليه فيحلفون. ومنهم من كان يقسم بالآباء والاجداد لما لهم من مكانة في نفوسهم. ومنهم من كان يحلف عند المشاهد العظيمة أو عند قبور سادات القبائل، فيحلفون بصاحب القبر ويذكرون اسمه على ما يتحالفون عليه. وفي كتب أهل

الأخبار والأدب أسماء قبائل يظهر أنها كانت أسماء أحلاف عُقِدَتْ في مراسيم خاصة، مثل الرباب والمحاش وما شاكل ذلك من أسماء. وكان من عادتهم أن يُحْضِروا في جفنة طِيبًا أو دمًا أو رمادًا، فيُدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليه باشتراكهم في شيء واحد، وقد يحلفون بالملح وبالماء.

وتدوّن الأحلاف أحيانًا لتوكيدها ثم تحفظ عند المتعاقدين، وقد تُودَع في المعابد كالذي ورد من تحالف ذبيان وعبس وتدوينهم ما تحالفوا عليه في كتاب أقسموا على اتباع ما كُتب فيه. وفي شعر زهير بن أبي سلمى يطالعنا قوله:

ألا أبْلِغِ الأحلاف عني رسالة ... وذُبْيَان: هل أقسمتو كل مُقْسم؟

كما نقرأ في شعر الحارث بن حِلِّزة اليَشْكُرِيّ البيتين التاليين:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدّ ... م فيه العهود والكُفَلاءُ

حَذَرَ الجَوْر والتعدّي، وهل ينـ ... ـقض ما في المهارق الاهواءُ؟

إشارةً إلى العهود والرهائن التي أُخِذت من بني تغلب وبني بكر للوفاء بما تعاهدوا عليه ودَوّنوه من شروط على "المهارق"، أي القراطيس. وكان الملك عمرو بن هند قد أصلح بين الطرفين بحلف سُمِّيَ: "حلف ذي المجاز" وأخذ عليهم المواثيق والرهائن. ويتم توثيق العهود والأحلاف والمواثيق بتوقيع المتحالفين وطبع خواتيمهم في أسفلها. وشهادات

الشهود على صحة العقود والأوامر الملكية معروفة عند أهل اليمن، وكذلك عند أهل مكة، وهم قوم تجار وأصحاب مصالح، ولهم عقود ومواثيق ومعاهدات مع غيرهم من أهل القُرَى وسادات القبائل. ولما كانت مراسيم الأحلاف من الأمور المهمة والأحداث الخطيرة اقترنت من أجل ذلك بتقديم الطعام للمتحالفين، فيجلس المتحالفون من جميع الفرقاء على طعام واحد كالذي حدث من تقديم عبد الله بن جدعان الطعام للمتحالفين فى "حلف الفضول". وقد تكون الوليمة نفسها مظهرًا من مظاهر مراسيم عقد الأحلاف لما للخبز والملح من أثر عند العرب. فعلى من يأكل خبز رجلٍ وملحَه أن يوفي له. ولهذا يعنَّف الغادر ويوبَّخ لعدم مراعاته حرمة الخبز والملح، وهي حرمة تكاد تصل إلى حرمة الدم والرَّحِم.

دياناقم: جاء فى "نهاية الأرب" للنويرى أن العرب لم يكونوا كلهم على دين واحد، بل عدة أديان: فصِنْفٌ منهم أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع المُحْيِي والدهر المُفْنِي، وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث، وصنف عبدوا أصنام قوم نوح، إما بعينها وإما بأسمائها: فكان لكلب وَدٌّ، ولهُذَيْلٍ سُوَاع، ولقسم من اليمن يغوث، ولذي كلاع نسر، ولهمدان يعوق، ولثقيف اللات، ولقريش وبني كنانة العُزَّى، وللأوس والخزرج مناة. وكان هُبَل على ظهر الكعبة،

وهو أعظم أصنامهم، وإساف ونائلة على الصفا والمروة. وكان منهم من يميل إلى الصابئة ويعتقد في أنواء المنازل اعتقاد المنجمين في الكواكب السبعة السيارة، ويعتقدون أنها فعالة بأنفسها، ويقولون: مُطِرْنا بنَوْء الكواكب. وكان منهم من يعبد الملائكة أو يعبد الجن. ليس ذلك فقط، بل كانت لهم أحكام يدينون بها: فكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويُحْرِمون ويطوفون ويَسْعَوْن ويقفون المواقف ويرمون الجِمَار ويغتسلون من الجنابة ويُديمون المضمضة والاستنشاق وفَرْق الرأس والسواكَ والاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الإبط، ولا ينكحون الأمهات ولا البنات، فجاء الإسلام بإبقاء ذلك على وجه مخصوص. وكانوا يعيبون المتزوج بامرأة أبيه ويسمونه: "الضَّيْزَن"، ويقطعون يد السارق اليمنى. وكانوا يجمعون بين الأختين، فجاءت الشريعة بمنع هذا الجمع. وكانوا يَعُدّون الظِّهار طلاقا، وتعتدّ المرأة عن الوفاة بحَوْل. وكانوا إذا لُبِّس عليهم أمرٌ ردُّوه إلى كهنتهم، الذين يدَّعون أن لهم أتباعًا من الجن. وكانوا يعوِّلون على عِيَافة الطير وزجره في حركاتهم ومقاصدهم: تارة بالاعتماد على اسم الطائر، وتارة بطيرانه يمينا أو شمالا، وتارة بصوته ومقدار ذلك الصوت، وتارة بمسقطه الذي يسقط فيه، فجاءت الشريعة بإبطال ذلك.

علومهم ومعارفهم: كان العرب يَتْلُــون العــزائم لأصــنامهم ويَرْقُون مرضاهم لإخــراج الشــياطين مــن أجســادهم، وكــان اعتقادهم أن تقليد نهيق الحمير يمنــع انتشــار الوبــاء، وأن شــرب دماء الملوك يشفى من الخبــل. كمــا كــانوا يعــالجون بالعقــاقير النباتية والأشربة، وخصوصا العسل، الذى كــان أســاس العــلاج فى أمراض البطن. وتجــىء الحجامــة والكَــىّ علــى رأس قائمــة الدواء عندهم، ومن هنا جــاء المثــل المشــهور: "آخــر الــدواء الكَىّ". وكثيرا ما كانوا يعالجون بالبتر، مــع وقــف نزيــف الــدم بالنار باستخدام شفرة محمّاة لقطــع العضــو المــراد بتــره. ومــن طرقهم فى العلاج أيضا أنهم كانوا يأمرون الأحــول بإدامــة النظــر إلى رَحًى دائرة. كذلك كــانوا يعتقــدون أن المجــروح إذا شــرب ماءً مات، وأن شرب الماء الحار يُــذْهب الــرَّوْع عــن المــرأة، وأن شرب دم السادة يشفى من داء الكَلَب، وأن عظــام الميــت تــبرئ من الجنون. ويُفْهَم مما تَعِجّ به العربية من ألفــاظ العلــل والعقــاقير أن العرب عرفوا كثيرا من الأمراض وعلاجاتهــا. ويــرى جرجــى زيدان فى كتابه: "تاريخ آداب اللغــة العربيــة" أن معرفــة العــرب الجاهليين لأسماء أعضاء الجسم علــى النحــو الملحــوظ فى لغتــهم يدل على أنهم كانوا مهرة فى تشريح الجسد، وهــو مــا انتفــع بــه الأطباء العرب فى عصور النهضــة العربيــة بعــد الإســلام. ومــن أطبائهم فى الجاهلية الحارث بــن كلــدة والنضــر بــن الحــارث،

اللذان أفادا معارفهما وممارساتهما الطبية من رحلاتهما إلى بلاد فارس واحتكاكهما بأطبائها. أما فى ميدان البيطرة فقد كانت لهم معرفة جيدة بشؤون الخيل وأمراضها وطرق علاجها، ونبغ منهم عدد من البياطرة كالعاص بن وائل. وقد وضع العلماء فى العصر العباسى عددا من الكتب عن الخيل اعتمدوا فى تأليفها على ما جمعوه من المعارف العربية فى هذا السبيل.

ومن المعارف الطبيعية عندهم مقدرتُهم على تخمين وجود الماء فى مكانٍ ما من تشمّم تربته أو نباتاته، وتفوّقُهم المذهل فى اقتفاء الآثار والاستدلال منها على كثير من السمات الشخصية لمن يقتفون أثره، حتى ليستطيعون التفرقة بين قدم المرأة وقدم الرجل، وبين قدم البِكْر وقدم الثَّيِّب، وبين قدم العاقل وقدم الأحمق، وبين قدم الأعمى وقدم المبصر مثلا. وبالمثل كانت لهم بصيرة راسخة فى ميدان الفراسة، وهى الاستدلال بهيئة الشخص على طباعه وأخلاقه، فضلا عن براعتهم فى توقع نزول الغيث من ألوان الغيوم وأشكالها، وتفوقهم فى ميدان النجوم والاهتداء بها فى باديتهم المتناوحة الأطراف. وكانوا ينسبون المطر والريح والبرد والحر إلى تلك النجوم. كما عرفوا مواقع الكواكب والنجوم وأبراجها، ومنازل الشمس والقمر. وكانت لهم أساطير وخرافات تتصل بالأجرام السماوية، فكانوا يتحدثون عنها كما لو كانت بَشَرًا

تتحارب فيما بينها وتتزاوج، بل ألّهوها فى بعض الأحيان. ومن تشخيصهم لها قولهم إن الدَّبَران أراد أن يخطب الثُّريَّا وتوسَّط القمر له عندها، إلا أنها رفضته قائلة: ماذا أفعل بهذا السُّبْرُوت الذى لا مال له؟ فجمع الدَّبَران قِلاصَه كى يقدمها مهرا لها وظل يتبعها بها حتى ترضاه زوجا، ولا يزال يفعل ذلك حتى اليوم. وهذه المعارف والعلوم هى وليدة الخبرة والتجربة والأوهام جميعا، إلى جانب ما أخذوه عن الأمم المجاورة كالفرس والروم والكلدان.

فنونهم: لم يكن العرب فى الجاهلية يجهلون التصوير على الجدران، إذ كانت على حوائط الكعبة الشريفة آنذاك عدد من الصور منها صور إبراهيم وعيسى وأمه عليهم السلام. وثَمَّ نقوش ثمودية وصفوية ونبطية عُثِر عليها فى العصر الحديث محفورة فى الحجر تمثل آلهة وبشرا وحيوانات. وذكر الهمدانى فى كتابه: "الإكليل" أنه كان هناك جدار أمام أحد القصور الملكية القديمة فى اليمن عليه صورة الشمس والهلال، كما تحدث عن قصرٍ آخَرَ قديمٍ بتدمر مملوءةٍ جدرانه بالصور. كذلك عثر المنقبون الغربيون فى اليمن على نقوش جدارية تصور ناسا من تلك البلاد: بعضهم راجل، وبعضهم راكب فرسه، وبعضهم يقدم قربانا للأوثان.

وبالإضافة إلى ما تقدم كـــان كـــثير مـــن ثيـــاب العـــرب فى الجاهلية منقوشا بأنواع التصـــاوير المختلفـــة كتصـــاوير الرِّحَـــال، وهى صور الإبل بما يوضع علـــى ظهرهـــا مـــن أكـــوار. ويســـمى الثوب المنقوش بهذ الطريقة: "المـــُرَحَّل". ومـــن الشـــواهد علـــى ذلك البيتُ التالى لامـــرئ القـــيس، الـــذى يتحـــدث فيـــه عـــن خروجه مع صاحبته ليلا يتسحب بها فى هدوء كـــيلا يشـــعر بهمـــا أحد، وقد أرخت ذيل مِرْطها "المرحَّل" للتعفية على آثارهما:

خَرَجْتُ بها تمشى تجـــرّ وراءنا على أثـــرينا ذيل مِرْطٍ مُرَحَّلِ

كما عرف الجاهليون "الثيـــاب المعضَّـــدة"، وهـــى الثيـــاب المنقوش عليها صور الأعضاد، أو الـــتى عليهـــا صـــورة العَلَـــم فى موضع العَضُد منها. ومن ذلـــك قـــول زُهَيْـــر بـــن أبى سُـــلْمَى فى وصف بقرة وحشية:

فجـــالتْ على وَحْشيّها وكأنها مُسَـــرْبَلَةٌ من رازقِيٍّ معضَّـــدِ

وثم بيت لامرئ القيس يذكر فيه عقودا مفقَّـــرة تتـــزين بهـــا بعض صواحبه من الفتيات المترفـــات، وهـــى عقـــود مكَوَّنـــة مـــن قطع ذهبية على شكل فقرات الجراد:

غرائـــر فى كِنٍّ وصَوْنٍ ونعمةٍ يُحَلَّيْنَ يـــاقوتا وشَذْرًا مُفَقَّرا

وفى البيتين التاليين لعَبْدَة بن الطبيب وصـــفٌ لفـــراشٍ كـــان يجلس عليه هو ونداماه فى إحدى الحانات، وكـــان مرســـوما عليـــه صور دجاج وأسود:

حتى اتكأنا على فُرُشٍ يزيّنها ... من جيّد الرَّقْم أزواجٌ تهاويلُ
فيها الدجاج، وفيها الأُسْد مُخْدَرَةً ... من كل شيء تُرَى فيها تماثيلُ

كذلك كان للعرب تماثيل يشركونها مع الله فى العبادة، وكان فى فناء المسجد الحرام عشرات الأصنام: منها هُبَل، الذى كان مصنوعا من عقيق أحمر على صورة إنسان له يد من ذهب. ومنها وَدٌّ، وكان على هيئة رجل كأعظم ما يكون الرجال، وعليه رداء وإزار، وقد تقلّد سيفا وتنكّب قوسا. وورد فى "مروج الذهب" أنه كان على كلٍّ من يمين قبر حاتم الطائى ويساره تماثيل من حجر أبيض لأربع نسوة فى غاية الجمال ناشرات شعورهن كأنهن يَنُحْنَ عليه. ويقص السهيلى فى كتابه: "الروض الأُنُف" أنه كان يوجد بقَلِيس صنعاء تمثالان: أحدهما تمثال رجل طوله سبعون ذراعا، والآخر لزوجته. كما جاء فى "معجم البلدان" لياقوت الحموى أنه كان فوق قصر غمدان باليمن مجلس أقيم على كل ركن من أركانه تمثال أسد مصنوع من شَبَه أو تمثال نسر طائر. واكتُشف فى بعض المغاور اليمنية فى العصر الحديث تماثيل رجال ونساء وأبقار مكتوب عليها بالحِمْيَرِيّة. كما كانت بنات العرب يلعبن بتماثيل صغار يسمينها: "الجوارى" و"البنات". وفى الشعر العربى القديم كثيرا ما يشبّه الشعراء حبائبهم بالدمية والتمثال، ومنه قول النابغة فى وصف امرأة فاتنة:

قامَت تَراءَى بَينَ سَجْفَي كِلَّةٍ ... كَالشَمسِ يَومَ طُلوعِها بِالأَسْعُدِ

أو دُرّةٍ صَدَفِيّةٍ غوّاصُها بَهِجٌ مَتى يَرَها يُهِلَّ وَيَسْجُدِ
أو دُمْيَةٍ مِن مَرْمَرٍ مَرفوعَةٍ بُنِيَتْ بِآجُرٍّ تُشادُ وَقَرْمَدِ

وقول امرئ القيس:

وَيا رُبَّ يَومٍ قد لَهَوتُ وَلَيلَةٍ بِآنِسَةٍ كَأَنَّها خَطُّ تِمثالِ

أيامهم: وأيام العرب في الجاهلية أكثر من أن تحصى، وسوف نكتفي هنا ببعض الوقائع المشهورة: فمنها يوم البسوس، وهو من أعظم حروب العرب، وكان بين بكر بن وائل وتغلب بن وائل، وكان للبَسُوس خالة جسّاس ناقةٌ فرآها كُلَيْب بن ربيعة تكسر بَيْض حَمَام موجودا في حِمَاه، فرمى ضرعها بسهم، فوثب جساس على كليب فقتله، فهاجت الحرب بسبب ذلك، ودامت بين الفريقين أربعين سنة. ويوم داحس، وكان لعبد القيس على فزارة، ودام سنين طوالا هلك فيها الكثير، وكان سببه مسابقة بين الخيل. ويوم ذي قار، وهو أيضا من أعظم أيام العرب، وكان كسرى إبرويز قد أَغْزَى بني شيبان جيشا فظفر به الشيبانيون، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم، وقد خلّد الأعشى ذلك النصر المؤزَّر في قصيدة رائعة له. ويوم الستار بين بكر وتغلب، وقد حلق فيه أحد الفريقين رؤوسهم لتكون علامة لهم. ويوم بعاث بين بني الأوس والخزرج، وله ذكر في صحيح البخاري. ويوم الدرك بين الأوس والخزرج أيضا. ويوم نجران، وكان لبني تميم على

بني الحارث بن كعب. ويوم ذي الابل، وكان لتغلب على لخم وعمرو بن هند. ويوم الذنائب، وهو لغسّان على لخم ونجران. ويوم الغصيبة، ويقال: القصيبة، وكان لعمرو بن هند على تميم. ويوم النصيح، وهو لقيس على أهل اليمن، وقيل: يوم المضيح. ويوم الصفقة، وسُمِّيَ كذلك لأن كسرى أصفق الباب على بني تميم في حصن المشقر، ويسمى أيضًا: يوم المشقر، والمشقر حصن بالبحرين. ويوم البردان، وهو من أيام القحطانيين فيما بينهم. وقد وقع لحُجْرٍ آكل المُرَار من كندة (وهو أبو امرئ القيس كبير شعراء الجاهلية) على زيد بن الهبولة من قضاعة. ويوم عَيْن أباغ، وعين أباغ وارد الأنبار على طريق الفرات الى الشام، وقد وقع للحارث الأعرج بن جبلة ملك العرب بالشام على المنذر بن ماء السماء ملك العرب بالحيرة. ويوم حليمة، وحليمة هي بنت الحارث، وبهذا اليوم ضُرِب المثل فقيل: "ما يوم حليمة بسِرّ"، وهو أيضًا للحارث الأعرج الحيريّ على المنذر بن ماء السماء الغساني. ويوم خزاز، لمَعَدّ على مَذْحِج، وخزاز جبل ما بين البصرة إلى مكة، وهو من أعظم أيام العرب في الجاهلية، وكانت مَعَدٌّ لا تستنصف من اليمن، ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى هذا اليوم فانتصرت معد، ولم تزل لها المنعة حتى جاء الاسلام. ويوم حُجْر، وهو لبني أسد على حُجْر (والد امرئ القيس)، وحجر

ملك من ملوك كندة. ويوم الأياد لبني يربوع على بكر، وأياد موضع بالحزن لبني يربوع بين الكوفة وفيد، ويسمى أيضًا: "يوم العظالة، ويوم الإفاقة، ويوم مليحة، ويوم أعشاش". وإنما سمي: "يوم العظالة" لأنه قد تعاظل على الرياسة فيه بسطام وهانئ بن قبيصة ومفروق بن عمرو. ويوم اللِّوَى لغطفان على هوزان، واللوى واد من أودية بني سليم، وسببه أن عبد الله بن الصمة، ومعه بنو جشم وبنو نصر أبناء معاوية بن بكر ابن هوزان، غَزَا غطفان فظفر بهم وساق أموالهم ومضى بها. وحروب الفجَار بين كنانة وقيس، وسميت: "الفجَار" لأنها كانت في الأشهر الحرم، وهي الشهور التي يحرّمونها ففجَروا فيها، وهي فِجَاران: الفجار الأول ثلاثة أيام، والفجار الثاني خمسة أيام في أربع سنين. وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفجار مع أعمامه، وكان يناولهم النَّبْل، وانتهت سنة ٥٨٩م. ويوم بزاخة لضبة على إياد، وبزاخة ماء، وسببه أن محرّقا الغساني وأخاه إيادا وطوائف من العرب من تغلب وغيرهم أغاروا على بني ضبة بن أُدّ ببزاخة فاستاقوا النَّعَم، فأتى الصَّرِيخُ بني ضبة فركبوا فأدركوهم واقتتلوا قتالا شديدا. ثم إن زيد الفوارس حمل على محرّق فاعتنقه وأسره، وأسروا أخاه حبيش بن دلف السيدي، فقتلهما بنو ضبة، وهُزِم القوم،

وأصيب منهم ناس كثير، فقال في ذلك ابن القائف أخو بني ثعلبة:

نِعْمَ الفوارس يوم جيش محرّقٍ   لحقوا وهم يَدْعُون: يا لضرارِ!

نيرانهم: كان للنار فى حياة العرب دور كبير، إذ اتصلت بكثير من جوانب حياتهم من خرافات وأساطير وعادات وتقاليد وقِيَم وأوضاع اجتماعية وشعائر دينية، وهو ما يتضح من الكلام التالى الذى جمعناه من بعض الكتب عن النيران عند العرب وعددها ووظائفها. ونبدأ ببعض أنواعها: فالأولى نار المزدلفة، وهي نار توقَد بالمزدلفة من مشاعر الحج ليراها المنطلقون من عرفة، وأول من أوقدها قُصَيّ بن كلاب. الثانية نار الاستمطار، إذ كانوا في الجاهلية إذا احتبس المطر جمعوا البقر وعقدوا في أذنابها وعراقيبها السَّلْع والعُشَر ويصعدون بها في الجبل الوعر ويشعلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك يؤدى إلى سقوط المطر. قال الشاعر:

أداعٍ أنت بيقورًا مسلَّعة   وسيلةً منك بين الله والمطر؟

الثالثة نار الحِلْف، وكانوا إذا أرادوا عقد حلف أوقدوا النار وعقدوا الحِلْف عندها فيذكرون خيرها ويدعون بالحرمان على من نقض العهد. وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت، فإذا استشاطت قالوا للحالف: هذه النار تهددتك. يخوّفونه بها حتى يحافظ على العهد ولا يحلف كذبًا. فإن كان الحالف مبطلا

نَكَل، وإن كان بريئًا حَلَف. ولهذا سَمَّوْها أيضًا: "نار المهوّل" و"الهُولة". وذُكِر أنهم كانوا لا يعقدون حلفًا إلا عليها .

الرابعة نار الطرد، وكانوا يوقدونها خلف من يمضي ولا يحبون رجوعه (وهى تذكرنا بما يقوله المصريون من أنهم سيكسرون وراء من لا يريدون أن يَرَوْا وجهه كرة أخرى قُلّة ماء). الخامسة نار الحرب، إذ كانوا إذا أرادوا حربًا أو توقعوا جيشًا أوقدوا نارًا على جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم، وهو نوع من أنواع اللغة، بيد أنها لغة بصرية لا صوتية. وقد يكون فى قوله تعالى عن اليهود ومؤامراتهم على الإسلام والمسلمين ومحاولاتهم الدائبة لتأريث الحروب بينهم وبين الأمم الأخرى: "كلّما أوقدوا نارًا للحربِ أطفأها اللهُ" إشارة إلى هذا. السادسة نار الحَرَّتين، وكانت في بلاد عبس، فإذا كان الليلُ أضاءت نار تسطع، أما بالنهار فيُرَى دخان مرتفع، وربما بدر منها عنق فأحرق من مر بها، وقد يكون ظهورها، إن صحّ، راجعا إلى أن الأرض التى تظهر فيها متشبعة بالنفط. السابعة نار السعالي، وتظهر للمتقفّر (أى المنقطع فى القَفْر) فيتبعها فتهوي به الغول على زعمهم. وواضح أن الأمر هنا لا يعدو أن يكون خرافة من خرافاتهم. الثامنة نار الصيد، وهي نار تُوقَد للظباء تغشاها إذا نظرت إليها. التاسعة نار الأسد، وهي نار توقد إذا خافوا الأسد لينفر عنهم، فإن من شأنه النفار عن

النار. وفى الريف المصرى كنا، ونحن صغار، نسمع من الفلاحين أن الذئب يخشى النار خشية شديدة. ولهذا كان إذا تأخر أحدهم فى الحقل ليلا أشعل نارا وبقى بجوارها حتى لا يعدو عليه الذئب فيفترسه. العاشرة نار القِرَى، وهي نار توقد ليلاً ليراها الأضياف فيهتدوا إليها.

الحادية عشرة نار السليم، وهو الملسوع، وكانوا يوقدونها للملسوع إذا لُدِغ، وكذلك المجروح إذا نزف دمه والمضروب بالسياط ومن عضه الكلب، ويساهرونهم بها كي لا يناموا فيشتد الأمر بهم فيؤديهم إلى التهلكة. وإذا كان الشيء بالشيء يُذْكَر فلعلّ القراء لم ينسَوْا ما حدث منذ سنوات حين استطاع أحد اليهود فى العاصمة الأردنية حقن خالد مشعل أحد أبطال حماس بحقنة سم فى أذنه، فاتصل الملك حسين على الفور بالمسؤولين الإسرائيليين كى يمدوه بالترياق الذى يبطل مفعول هذه الحقنة. وأذكر أن الأطباء المعالجين شددوا فى نصح مشعل بأن يغالب النوم بكل ما عنده من إرادة كيلا تغفل عينه أبدا مهما تكن الظروف إلى أن يصل الترياق ويتم حقنه به، وإلا مات. الثانية عشرة نار الفداء، ويقال فى تفسيرها إن ملوكهم كانوا إذا أسروا نساء قبيلة من القبائل خرجت إليهم السادة للفداء أو الاستيهاب، فيكرهون أن يعرضوا النساء نهارًا فيفتضحْن أو في الظلمة فيَخْفَى قدر ما يحبسونه لأنفسهم

من الصَّفِيّ فيوقدون النار لعرضهن. الثالثة عشرة نار الوَسْم، وهي النار التى يسم بها الرجل العربى إبله. الرابعة عشرة نار الحُبَاحِب، وهي كل نار لا أصل لها، مثل الشرار الذى ينقدح من نعال الدواب... إلخ.

أسواقهم: هى تجمعات تجارية واجتماعية وثقافية كانت تُعْقَد فى أماكن مختلفة من شبه الجزيرة بطريقة دورية، ويأتيها العرب من كل الأرجاء فيتاجرون ويسمعون المواعظ والخطب ويتنافرون ويتفاخرون ويَسْعَوْن فى فكّ أسراهم عند القبائل الأخرى. كما كانوا يتناشدون الشعر ويتحاكم مبدعوه إلى كبارهم كالنابغة الذبيانى، الذي كانت تُضْرَب له قبة حمراء من أَدَم فيحكم بين الشعراء وتكون كلمته هى الفاصلة. وكانت القصائد التى تحوز إعجاب هؤلاء المحكَّمين تطير فى أرجاء الجزيرة ويتناشدها العرب فى كل مكان. كما كان للعرب حكّام يرجعون إليهم في أمورهم الأخرى ويتحاكمون أمامهم في منافراتهم ومواريثهم ومياههم ودمائهم لأنه لم يكن لهم دين يرجعون إلى شرائعه، فكانوا يحكّمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسن والمجد والتجربة، ومنهم أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والأقرع بن حابس وعامر بن الظَّرِب وعبد المطلب وأبو طالب وصفوان بن أمية وغيرهم. وكان في نساء العرب أيام الجاهلية أيضا حاكماتٌ اشتهرن بإصابة

الحكم وفصل الخصومات وحسن الرأي، منهن صُحْر بنت لقمان، وابنة الخس، وجمعة بنت حابس الإيادي، وخصيلة بنت عامر بن الظَّرِب العَدْواني، وحَذَام بنت الريان. وكان امتناع الناس في الأشهر الحُرُم عن إيذاء بعضهم بعضًا يساعد إلى حد ما فى الإقبال على هذه الأسواق. والمقصود هنا الأسواق الكبرى، أما الأسواق المحلية الصغرى التى كانت تُعْقَد أسبوعيا فكثيرة جدا، وليست من اهتمامنا فى هذا السياق. وقد عرفت الجزيرة العربية عددًا غير قليل من تلك الأسواق الموسمية، إذ بَلَغت أكثرَ من عشرينَ سُوقًا: من أهمها سوق دُومة الجندل، وكانت تقع عند التقاء عدد من الطرق المهمة بين العراق والشام وجزيرة العرب، وموسمها شهر ربيع الأول إلى نصفه، وموقعها مدينة الجوف الحالية. وكان يعشّر من يحضرونها (أى يأخذ منهم قيمة العُشْر من ربح تجارتهم) رؤساءُ آل بدر في دُومة الجندل، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشّرهم بعض رؤساء كلب. وكان العُشْر يؤخذ عَيْنًا أو نقدًا بحسب الثمن، ولما كان النقد قليلا إذ ذاك كان الدفع عينًا هو الغالب في أداء هذه الضريبة. ثم سوق المُشَقَّر، والمشقّر حصن بالبحرين قرب مدينة هجر، وتُعْقَد سوقه في جُمَادَى الآخرة. ثم سوق هَجَر من أرض البحرين، وهي سوق التمر الذي يُضْرَب به المثل فيقال: "كجالب التمر إلى هَجَر"، وهو يساوى المَثَل

المصرى: "يبيع الماء فى حارة السـقائين"، وكانـت تعقـد في ربيـع الآخر، وكان يعشّر مرتاديها المنذرُ بن ساوَى أحـد بـني عبـد الله بن دارم. ثم سوق عُمان، وكانت تقصـدها العـرب بعـد الفـراغ من هَجَر، ويقيمون بها حتى آخـر جُمَـادَى الأولى، وتجتمـع فيهـا تجارة الهند وفارس والحبشة والعـرب. ثم سـوق حُباشـة، وهـي سوق تِهامـة القديمـة، وكانـت تُقـام في رجـب، وقـد ورد أن الرسول دخل إليها بتجارة السيدة خديجـة رضـي الله عنـها ذات مرَّة هو وغلامها ميسرة أيام أن كان يشـتغل عنـدها قبـل البعثـة فربحا ربحا حسنا. ثم سوق صُحَار، وهي مدينة عمانيـة تقـع علـى البحر، وكانت سوقها تعقد في رجـب. ثم سـوق الشِّـحْر علـى الساحل الجنوبي بين عدن وعمان، وكانت سـوقا لتجـارة البحـر والبر، وتعقد في منتصف شعبان. ثم سـوق عَـدَن، وينتقـل إليهـا العرب بعد انتهائهم من سوق الشِّـحر، وتُقـام فى الأيـام العشـر الأوائل من رمضان. ثم سـوق صـنعاء، وتسـتمر مـن منتصـف رمضان إلى آخـره. ثم سـوق حضـرموت، وكـان انعقادهـا في منتصف ذي القعدة، وربما أقيمت هـي وعُكَـاظ في يـوم واحـد، فيتوجّه بعضهم إلى هذه، وبعضهم إلى تلك.

أما أشهر هذه الأسواق على الإطلاق فأربعـة هـي سـوق عكاظ، وكـان مكانهـا بـين مكـة والطـائف، وإن كانـت إلى الطائف أقرب، وكانـت تسـتمر عشـرين يومًـا مـن أول ذي

القعدة إلى العشرين منه، وهي أشهر أسواق العرب وأعظمها شأنًا. ولم تكن عكاظ سوقا تجارية فحسب، بل كانت أيضا سوقا أدبية يجتمع فيها الشعراء من كل صُقْع، ولهم محكَّمون كالنابغة الذبياني تُضْرَب لهم القباب، وقولهم في الشعر والأدب لا يُرَدّ. كما كانت كذلك مكانًا لأصحاب الدعوات الإصلاحيّة مثل قُسّ بن ساعدة الإيادي، الذي كان يخطب في الناس ويذكّرهم بعظمة الخالق. وورد أنّ الرسول رأى قُسًّا في تلك السوق على جمل أحمر. ومن خطبائها المشهورين أيضا سَحْبان وائل، الذي ضُرِب به المثل فقيل: "أخطب من سحبان". ويقال إنه إذا خطب يسيل عرقًا ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى ينتهي من كلامه. وكان الخطباء يخطبون وعليهم العمائم، وبأيديهم المخاصر، ويعتمدون على الأرض بالقِسيّ ويشيرون بالعصا والقَنَا راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض. وكانت شؤون هذه السوق لقيس بن عَيْلان وثقيف، وهي سوق عامة ليس فيها عشّار، وكانت تحضرها قريش وخزاعة وهوازن وغطفان والأحابيش وطوائف من أحياء العرب يؤمونها من العراق والبحرين واليمامة وعمان واليمن وغيرها. ثم هناك سوق مَجَنَّة، وتعقد بأسفل مكة بَمرّ الظهران. وكان الناس يقبلون إليها بعد عكاظ ويقيمون بها الليالي العشر أو العشرين المتبقية من ذي القعدة حتى يَرَوْا

هلال ذي الحجـة فينتقلـوا إلى ذي المجـاز للحـج. وهـي، وإن كانت أقل شـأنا مـن عكـاظ وذي المجـاز، تسـاويهما في نظـر المـُحْرِمين من العرب وتتمتـع بـاحترامهم جميعـا حـتى كانـت قريش وغيرها من العرب تقول: "لا تحضروا سـوق عكـاظ ومجنّـة وذي المجاز إلاّ مُحْرِمين بالحج". ثم سوق ذي المجـاز، وهـي علـى مسافة ثلاثة أميال من عرفات بناحيـة جبـل كبكـب، أو كانـت تعقد بمِنًى بين مكة وعرفات، علـى خـلاف فى ذلـك، وكانـت تنعقد فى ديار هُذَيْل حين يهلّ ذو الحجـة فينصـرف النـاس مـن سوق مجنَّة إليها، ويقيمون بهـا حـتى اليـوم الثـامن مـن ذلـك الشهر، وهو يوم التّروية. وهذه السوق تتلـو عكـاظ في الأهميـة، وكانت تؤمها وفود الحجـاج مـن سـائر العـرب ممّـن شـهد الأسواق الأخرى أو لم يشهدها. ويجري فيها مـا يجـري في غيرهـا من البيع والشراء وتناشُـد الأشـعار والمفـاخرة والمفـاداة. ورُوى أنَّ الرسول عليه السلام كان يؤمّهـا لبـث دعوتـه إلى الإسـلام. وكان للأسواق دور كبير فى التقريـب بـين قبائـل العـرب لغـةً وأدبا، فضلا عما كانت تحدثه من انتعاش اقتصادى بينهم.

ولعل من المستحسن أن نتريث قلـيلا عنـد عكـاظ، أهـم أسواق العرب كلها، لتقديم صورة لهـا مفصـلة بعـض الشـيء: لقد كانت تقع في الجنوب الشرقي من مكة، وعلـى بعـد عشـرة أميال من الطائف ونحو ثلاثين ميلاً مـن مكـة في واد فسـيح فيـه

نخيل وأعشاب وماء. وتكمـــن أهميتـــها فى وقـــوع الحـــج بعـــدها مباشرة وفى قربها كذلك من مكة. فمـــن أراد الحـــج مـــن العـــرب سَهُلَ عليه أن يجمع بين الغرض التجـــاري والاجتمـــاعي بغشـــيانه سوق عكاظ وبين الغرض الديني بـــالحج. كمـــا كانـــت تنعقـــد في شهر من الأشهر الحرم لا تُقْرَع الأسنّة فيـــه حـــتى ليلقـــى الرجـــل قاتل أبيه أو أخيه فلا يزعجه تعظيمًـــا لـــه. وفي انعقـــاد الســـوق في الشهر الحرام مزية واضحة، وهـــي أن يـــأمن التجـــار فيـــه علـــى أرواحهم وأموالهم. وكان يأتي إلى عكاظَ قبائـــل قـــريش وهَـــوَازِن وغَطَفان والأحابيش وطوائف من أفناء العرب فـــتترل كـــل قبيلـــة في مكان خاص بها. وفي التـــاريخ أن رســـول الله صـــلى الله عليـــه وسلم ذهب مع العباس بن عبد المطلب إلى عكـــاظ لـــيرى منـــازل القبائل فيها، ويروى كذلك أنه عليه الســـلام جـــاء كنـــدة حيـــث يترلون بعكاظ. كما كان يشـــترك فيهـــا أهـــل الـــيمن والحـــيرة. ويقول الأزرقي: كانـــت في عكـــاظ أشـــياء ليســـت في أســـواق العرب، إذ كان الملك من ملوك الـــيمن يبعـــث بالســـيف الجيـــد والحلة الحسنة والمركوب الفاره، فيقف بها وينـــادي عليـــه ليأخـــذه أعز العرب، يـــراد بـــذلك معرفـــة الشـــريف والســـيد، فيـــأمره بالوفادة عليه ويحسن صـــلته وجائزتـــه. ويـــروي ابـــن الأثـــير أن النعمان بن المنذر لما ملّكه كسرى إبرويز على الحـــيرة كـــان يجهـــز

كل عام لَطِيمة، وهي القافلة من التجارة، لتباع بعكاظ. فترى من هذا أن بلاد العرب جميعها كانت تشترك في هذه السوق.

فإذا كان الحج خرج الناس إلى عكاظ فيصبحون به يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تنعقد فيها أسواقهم ويقوم على كلّ قبيلة أشرافُها وقادتها، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء. فإذا مضت أيام السوق انصرفوا إلى مجنّة فأقاموا بها عَشْرًا يتاجرون، فإذا رَأَوْا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز ثم إلى عرفة. وكانت قريش وغيرها من العرب تقول: لا تحضروا سوق عكاظ والمجنّة وذا المجاز إلا مُحْرِمين بالحج، وكانوا يستعظمون أن يرتكبوا شيئًا من المحارم أو يعتدى بعضهم على بعض في الأشهر الحرم. وكانت لسوق عكاظ عدة وظائف: فهي متجر تُعْرَض فيه السلع على اختلاف أنواعها من السيوف والأَدَم والحرير والوِكَاء والحذاء والبُرُود من العَصْب والوَشْي والسمن، إلى جانب الرقيق وغيره. ولم تكن السلع التي تُعْرَض في تلك السوق مقصورة على منتجات جزيرة العرب وحدها، بل تباع فيها كذلك حاصلات الحيرة وفارس ومصر والشام والعراق. ويروون أنه قبل البعث بخمس سنين حضر السوقَ من نزار واليمن ما لم يَرَوْا أنه حضر مثلُه في سائر السنين، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر ونقد وابتاعوا أمتعة مصر والشام والعراق.

وكانت للسوق، إلى جانب ذلك، وظائف اجتماعية مختلفة: فمن كانت له خصومة عظيمة انتظر موسم عكاظ. وكانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر هناك فيقوم رجل فيخطب قائلا: ألا إن فلان بن فلان غدر فاعرفوا وجهه، ولا تصاهروه ولا تجالسوه، ولا تسمعوا منه قولا. فإن أُعْتِب، وإلا أقام شاخصا يشبهه على رمح منصوب فلعنه الناس ورجموه. ومن كان له دَيْن على آخر أَنْظَرَه إلى عكاظ. ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ، ومن ذلك ما ذكره الأصفهاني من أن رجلا من هوازن أُسِر فاستغاث أخوه بقوم فلم يغيثوه، فركب إلى موسم عكاظ وأتى منازل قبيلة مذحج يستصرخهم. وكثيرًا ما تُتَّخذ السوق وسيلة للخِطْبة والزواج، فيروي صاحب "الأغاني" أنه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطُّفَيْل بموسم عُكَاظ، وقدم أمية بن الأسكر الكناني وتبعته ابنة له من أجمل أهل زمانها فخطبها يزيد وعامر، فتردد أبوها ففخر كل منهما بقومه وعدّد فعَالهم شعْرًا. ومن كان صعلوكًا فاجرًا خلعته قبيلته في سوق عكاظ وتبرأت منه ومن تصرفاته، مثلما فعلت خزاعة حين خلعت قيس بن منقذ بسوق عكاظ وأشهدت الناس على ذلك معلنةً أنها لا تطالَب بأبة جريرة يرتكبها ضد أى إنسان. ومن كان داعيًا إلى إصلاح اجتماعي أو ديني وجد فرصته في عكاظ

حيث تجتمع القبائل من أنحاء الجزيرة كلها. وكثيرًا ما وقف قُسّ بن ساعدة بسوق عكاظ يعظ ويخطب على جمل له، فيرغّب ويرهّب ويحذّر وينذر. وعندما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم اتجه إلى دعوة الناس بعكاظ لأنها مَجْمَع القبائل، إذ كانت قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها، ويبعث ملك الحيرة تجارته إليها، ويأتي التجار من مصر والشام والعراق. وكان ذلك الاجتماع أيضا وسيلة من وسائل تفاهم القبائل وتقارب اللهجات وأخذ العرب بعضهم من بعض ما يرون أنه أليق بهم وأنسب لهم. كما كان التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق يُطْلِعون العرب على أشياء من أحوال تلك الأمم الاجتماعية. وفوق هذا كانت عكاظ معرضًا للبلاغة ومدرسة يُلْقَى فيها الشعر والخطب، إذ كانت بها منابر يقوم عليها الخطيب فيعدد مآثره وأيام قومه من عام إلى عام. وكانت كل قبيلة تنزل في مكان خاص بها، ثم تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو في الحلقات المختلفة أو عند شجرة أو حول خطيب يخطب على منبر أو في قباب من أَدَم تقام هنا وهناك. وكان أشراف القبائل يتوافَوْن بالأسواق مع التجار لأن الملوك كانوا يخصّون كل شريف بسهم من الأرباح، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده، إلا عكاظ فإنهم يتوافَوْن بها من كل أوْب.

الفهرست

د. إبراهيم عوض (آداب عين شمس)

دكتوراه من جامعة أوكسفورد ١٩٨٢م

له عدد من المؤلفات النقدية والإسلامية منها:

- معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين
- المتنبى ـ دراسة جديدة لحياته وشخصيته
- لغة المتنبى ـ دراسة تحليلية
- المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
- المستشرقون والقرآن
- ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
- الترجمة من الإنجليزية ـ منهج جديد
- عنترة بن شداد ـ قضايا إنسانية وفنية
- النابغة الجعدى وشعره
- من ذخائر المكتبة العربية
- السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- جمال الدين الأفغانى ـ مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
- فصول من النقد القصصى
- سورة طه ـ دراسة لغوية أسلوبية مقارنة
- أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين ـ دراسة نقدية لرواية "العار"
- مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى
- نقد القصة فى مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م
- د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا
- سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم ـ دراسة تحليلية أسلوبية
- ثورة الإسلام ـ أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)
- مع الجاحظ فى رسالة "الرد على النصارى"
- محمد لطفى جمعة ـ قراءة فى فكره الإسلامى
- إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية ـ خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن اسحاق

- سورة يوسف ـ دراسة أسلوبية فنية مقارنة
- سورة المائدة ـ دراسة أسلوبية فقهية مقارنة
- المرايا المشوّهة ـ دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
- القصاص محمود طاهر لاشين ـ حياته وفنه
- فى الشعر الجاهلى ـ تحليل وتذوق
- فى الشعر الإسلامى والأموى ـ تحليل وتذوق
- فى الشعر العربى الحديث ـ تحليل وتذوق
- موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
- أدباء سعوديون
- دراسات فى المسرح
- دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
- د محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
- دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية ـ أضاليل وأباطيل
- شعراء عباسيون
- من الطبرى إلى سيد قطب ـ دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه
- القرآن والحديث ـ مقارنة أسلوبية
- اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
- محمد لطفى جمعة وجيمس جويس
- "وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع ـ قراءة نقدية
- لكن محمدا لا بواكى له ـ الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون
- مناهج النقد العربى الحديث
- دفاع عن النحو والفصحى ـ الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
- عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين

- الفرقان الحق: فضيحة العصر – قرآن أمريكي ملفق
- لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه
- التذوق الأدبى
- الروض البهيج في دراسة لامية الخليج
- سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب – فصول مترجمة ومؤلفة
- في الأدب المقارن – مباحث واجتهادات
- مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام
- نظـرة علـى فـن الكـتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري (مترجم عن الفرنسية)
- فصول في ثقافة العرب قبل الإسلام

رقم الايداع بدار الكتب

٢٠٦١٧ / ٢٠٠٦م